الجمهورية الجزائريّة الدّيمقراطية الشّعبية

وزراة التّعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

عنوان المذكّرة

السّلالم الحجاجيّة في السّور المسبّحات من القرآن الكريم

مذكرة تخرّج مقدّمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصّص : لسانيات عامّة

إعداد الطالبات:

– راضية باي

– فتيحة سويد

– وردة واغد

إشراف الأستاذ الدّكتور:

* لزهر كرشو

الاسم واللقب	الجامعة	الصّفة
أ.د سليم سعداني	جامعة الشّهيد حمّة لخضر – الوادي–	رئسيا
أ.د لزهر كرشو	جامعة الشّهيد حمّة لخضر – الوادي–	مشرفا
أ.د الأخضر سعداني	جامعة الشّهيد حمّة لخضر – الوادي–	مناقشا

الموسم الجامعي:1444هـ /2022– 2023م

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤ ﴾[الإسراء 44]

شكر وعرفان

عرفان الجميل شيمة الأرواح النبيلة وعملا

بقول رسول الله صلّى الله عليه وسلم " مَن لم يشكر الناس، لم يشكر الله ومَن أهدى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له" .

نحمد الله على أن وفّقنا لإتمام هذا العمل المتواضع، وبشعور غامر بالتقدير والوفاء نتقدّم نحنُ الطالبات بالشكر والامتنان إلى الأستاذ المُشرف :**لزهر كرشو**، الذي حمل معنا الأعباء وذلّل علينا الصّعوبات. صاحب الفضل في توجيهنا ومساعدتنا في تجميع المادة البحثيّة.

إلى الوالدين اللّذين جادا علينا بالرّضا ولولاهما لم يكن الطريق الى الجنان ممهدا

إلى أزواجنا ولكل العائلة الكريمة التي ساندتنا ولاتزال.

إلى جميع أساتذتنا الكرام، مّن لم يتوانوا في مد يد العون لنا .

إلى كلّ مَن تفضّل وأثرى جوانب هذا البحث سواء برأي أو نصيحة

مقدمة

مقدمة:

الحمد لله ذي الفضل والإحسان، الذي أكرمنا بإنزال القرآن، فهدانا لخير الأديان وأنطقنا بأشرف اللسان، والصّلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد وآله الأطهار .

لكلّ أمة ميراث، وميراث الأمّة العربية القرآن الكريم، فقد كان ومازال مصدرا خصبا ومنهلا فيّاضا لمصادر الفكر المختلفة، يعزز زادها للدّراسة. وإنّ البحث فيه والتّدبر في معانيه، عمل لا تنْضَب مادّته ولا يقلّ زاده، وجُهد لا تضيع مساعيه ولا يخيب رجاء من خاض فيه.

فهو الكتاب الذي علّم النّاس كيف يفكرون ويستنبطون الأحكام العقليّة المنطقيّة للوصول إلى حقائق الظواهر المحيطة بهم، وقد دعاهم إلى التّفقه و التّدبر ؛ لهذا تميّزت آياته بخصائص متعددة منبعها سمة الإعجاز وسحر بيانه، ومن أهمّها " الحجاج" الذي يعتمد التّفكير العقلي والبرهان والحجّة لردّ الرأي برأي أقوى منه ، والحجّة بحجّة أبلغ منها فقال تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾[الأنعام: 149] . وعليه فالخطاب القرآني خطاب حجاجي بامتياز.

والخطاب الحجاجي بوصفه أسلوبا تواصليا يمتاز بالقوة الباعثة على التّسليم و التّأثير من خلال توفّره على مجموعة من الآليات اللغويّة والبلاغيّة وشبه المنطقيّة، وهذه الأخيرة التي يُدرج بين أساسياتها السّلم الحجاجي ، الذي يعتبر من أهم السّمات الحجاجيّة التي تعتمد أساسا على التّراتبيّة في توجيه الحجج، وأهميتها تتجلّى في ترتيب تلك الحجج من حيث القوة والضّعف، وذلك بشكل سُلّمي ؛ للتّأثير في المتلقي . وعليه فالسّلالم الحجاجيّة مؤشر واضح على مرونة اللغة، وقوة المنطق الطّبيعي، الذي يستطيع المتكلم من خلاله إنجاز الاقتناع من دون اللّجوء إلى أساليب المنطق الرّياضي البرهاني، فالسّياق والكفايات الثّقافيّة والأساليب اللغويّة المتمثلة في الاستعمالات المعجميّة والنّحويّة والصّرفيّة والبلاغيّة وكل الظروف المحيطة بالخطاب، يمكن للمتكلم أن يستثمرها في صورة حُجج تقود إلى النّتيجة التي يريد إيصالها إلى المتلقي .

وقد كان الخطاب القرآني دافعا إلى التّفكير الرّصين والتّأمل بالعقل، لهداية الإنسان إلى الإيمان والصّلاح . عبر إعجاز ألفاظه و تراتبية حججه، من الأضعف إلى الأقوى أو العكس ؛ قصد استمالة المخاطب وإذعانه بأسلوب خال من العنف والإكراه .

من أجل ذلك جاءت فكرة الغوْص في بحثنا هذا تتبعا للسّلميّة الحجاجيّة في القرآن الكريم الذي غذّى ميولنا الشّديدة للبحث فيه، رغبة في الاستفادة من هذا العلم الواسع وفهم نظريّة السّلالم الحجاجيّة واستثمارها في تحليل النّصوص القرآنيّة ، وقد وفقنا الله في اختيار هذا الموضوع بمساعدة المشرف الفاضل، وحتى نثبت السّلميّة الحجاجيّة في الخطاب القرآني وغاياته الحجاجيّة ؛ فجاءت مذكرتنا موسومة بعنوان : " السّلالم الحجاجيّة في السّور المسبحات من القرآن الكريم " .

والسّبب الّذي دفعنا لاختيار هذه المدونة "السّور المسبحات في القرآن الكريم"(السّور المبدوءة بصيغ التّسبيح) لتكون موضوع دراستنا المقدم ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر يعود إلى أهميّة :

-قداسة النّص القرآني ومتعة البحث فيه مع التّوخي والحذر في دراسته .

-الوقوف على الجانب الإعجازي في القرآن الكريم ولا سيما براعة الاستهلال في السّور المسبحات . ومن ثمَّ الكشف عن مدى تعالق هذه السور وتراتبيتها حجاجيا .

وانصبّت جهودنا من خلال هذه الدّراسة حول الإجابة عن الإشكاليّة العامّة التي يتضمنها العنوان متمثّلة في :

- إلى أي حدّ يمكن للسّلمية الحجاجيّة كشف تراتبيّة المعاني في السّور المسبحات في القرآن الكريم وما مدى تعالقها ؟

وتندرج تحت هذه الإشكاليّة العامّة أسئلة فرعيّة مفادها :

- ما مدى تراتبيّة السّور المسبحات في المصحف الشّريف ؟ وما مدى تراتبيّة موضوعاتها ومواطن التّسبيح فيها ؟
- إلى أيّ حدٍّ تتحقّقُ تراتبيّة الحوارات وأسماء الله الحسنى الواردة فيها ؟

- ما مدى تراتبيّة هذه السّور معجميا وصرفيا ونحويا وبلاغيا ؟

لطالما ظلّت هذه التّساؤلات تشغل تفكيرنا، والبحث فيها ومحاولة الإجابة عنها هاجس ظلّ يراودنا و يدفعنا دفعا نحو دراسة هذا الموضوع وكشف خباياه .

وبالنّسبة للدّراسات السّابقة في هذا الموضوع – على حدّ علمنا–توجد رسالتان جامعيّتان؛ الأولى موسومة بـ (السّور المسبحات دراسة تداوليّة) " محمد شمخي جبر" ، أمّا الثّانية تحمل عنوان (المسبحات في القرآن الكريم دراسة دلاليّة بيانيّة)" لمريم محمود مصطفى الشّوبكي ."

واختلفت دراستنا هذه عن تلكم الدّراسات باختلاف مجال البّحث فيها، فدرسناها دراسة حجاجيّة تراتبيّة .

وللإحاطة بالموضوع وضعنا خطّة تمكّننا من التّحكم فيه، وتساعدنا على تحقيق الأهداف المرجوّة، فقسمنا عملنا هذا إلى مقدمة وأربعة فصول ؛ فصْليْن نظريّيْن وآخريْن تطبيقيّين . وخُتِمَ بخاتمة حوت أهم النّتائج المستخلصة .

تناولنا في الفصل الأول الموسوم بـ(الحجاج مفاهيم وتقاطعات): مفهوم الحجاج وعلاقته بمجاله المفهومي، ثمّ لمحة تاريخيّة عن الحجاج عند الغرب والعرب قديما وحديثًا .

أما الفصل الثّاني (السّلالم الحجاجيّة) فقد تطرّقنا فيه إلى مفهوم السّلم الحجاجي، وماهيّة نظريّة السّلالم الحجاجيّة، وسماتها وأهميتها، ثمّ مسويات السّلم الحجاجي وقوانينه وأنواعه ووسائله .

أمّا الفصل الثّالث (التطبيقي) والموسوم بـ (سلالم الموضوعات العامّة(المطلقة) في السّور المسبحات) : فمهدنا له بتعريف التّسبيح و السّور المسبحات وبيان فضلها، وعلاقة استهلالها بالتّسبيح وتسميتها وموضوعها . ثمّ بيّنا تراتبيّة المعاني العامّة وتطبيقاتها في السّور المسبّحات كعنوان اندرجت تحته خمسّة عناصر، فالأول منها بيّن تراتبيّة السّور المسبحات في المصحف الشّريف، ثمّ تراتبيّة مواطن التّسبيح فيها، ثمّ تراتبيّة الحوار الحجاجي أيضا وأخيرا تراتبيّة أسماء الله الحسنى في هذه السّور .

أمّا الفصل الرّابع (التطبيقي) والموسوم بـ (سلالم الموضوعات المقيّدة (المخصّصة) في السّور المسبحات).أنجزنا فيه أربعة سلالم للسّور المسبحات بالاعتماد على مستويات السّلم الحجاجي فكانت عناوينها كالآتي :

سلميّة المعجم في السّور المسبحات، ثمّ سلميّة الصّرف، ثم سلّميّة التركيب النحوي، ثمّ سلميّة التّقسيم البلاغي فيها .

وفي الخاتمة تمّ تبيين أهم النّتائج المتوصّل إليها، والتي كانت بمثابة الإجابة عن إشكاليات هذه الدّراسة، وحاولنا تقديم بعض الاقتراحات التي تخدم هذا البحث منهجيّا . وقد اقتضت طبيعة الدّراسة الاعتماد على المنهج الوصفي بإجراء تحليلي، لأنّه الأنسب لهذا النّوع من البحوث من حيث وصف السّلالم الحجاجيّة الكامنة في السّور وتحليلها، كما اتبعنا المنهج الإحصائي لرصد أهم الظواهر التي اقتضتها حاجة رسم السّلميّة على اختلاف مشاربها في السّور المسبحات ؛ للوصول إلى النّتائج الحجاجيّة المرجوّة .

و قد استعنّا في هذه الدّراسة على جملة من المصادر والمراجع نذكر أهمّها: القرآن الكريم وكتب التفاسير مثل : في ظلال القرآن لسيد قطب، التحرير والتّنوير لمحمد الطّاهر بن عاشور، صفوة التّفاسير لمحمد علي الصّابوني، لسان العرب لابن منظور ، اللغة والحجاج لأبي بكر العزّاوي، اللسان والميزان لطه عبد الرّحمن، العوامل الحجاجيّة في اللغة العربيّة لعز الدّين الناجح، الحجاج في القرآن الكريم لعبد الله صولة، الفروق اللغويّة لأبي هلال العسكري . تقانة التّحليل الحجاجي للخطاب للزهر كرشو.

وحتما قد واجهتنا صعوبات ككلّ بحث، إذ وجدنا أنفسنا أمام أعظم كتاب مطلق ببيانه وإعجازه وبنائه، وتساءلنا : أنّى لإدراكنا القاصر الإحاطة بأفق القرآن الواسع ؟ فكنّا في تفسير الآيات نحاول الوصول إلى أحسن الفهم، ونوفّقه لروح النّص والسّياق والواقع والعقل مع هيبة وحذر، فكوْننا اشتغلنا على النّص القرآني المقدّس الذي لا يضاهيه منزلة كان من الصّعوبة اكتشاف السّلميّة الحجاجيّة في هذه السّور لولا التّوسل بتلك التّفاسير .

ومع هذا فقد وجدنا لذّة في البحث، ومتعة في تتبع الفكرة وهي تنمو في بطون الكتب وتتطور بتلاقح الأفكار، وكم كانت هذه المتعة تزداد مع العثور على مادّة مفيدة أو استنتاج

فكرة أو دعم حجّة . وما أروع تلك السّويعات التي كنّا نقضيها في ربوع القرآن الذي تجسد فيه الجمال بكلّ آياته والصّدق بكلّ واقعيته، ونحن نحاول أن ننْهل منه ونكتشف فيه ملامح الحجاج وتجلياته وتراتبيّته .

وفي الختام نحمد الله جلّ علاه حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على إتمام هذا البحث المتواضع، توفيقا منه، ثمّ نتوجه بخالص الشّكر إلى أستاذنا الفاضل "لزهر كرشو "، الذي يسّر علينا كلّما تعسّر، ودفع عجلة بحثنا كلّما تعثرت بتوجيهاته السّديدة التي رافقت البحث منذ أن كان فكرة إلى أن اكتمل بصدر رحب وطول نفس . ونشكر كلّ من بذل مساعدة لنا من قريب أو من بعيد في إنجازه .

نسال الله العزيز القدير أن ينفعنا بما عَملنا وينفع به غيرنا .فما كان من صواب في هذا العمل فمن الله وحده له الحمد والشّكر، وما كان فيه من نقص فمن أنفسنا والشّيطان فنسأل الله أجر المحاولة، ونستغفر الله ونصلي ونسلّم على نبيّنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصل الأول :

الحجاج مفاهيم وتقاطعات

توطئة

أولا : مفهوم الحجاج

ثانيا : علاقة الحجاج بمجاله المفهومي

ثالثا : لمحة تاريخية عن الحجاج عند الغرب والعرب قديما وحديثا

توطئة

يعتبر الحجاج من المواضيع المهمة والشّائكة التي نالت اهتمام عددٍ من الباحثين منذ القدم لارتباطه بوجود الإنسان وحياته ، حتّى صار فيه جبلّة وسمة تغذيها النّزعة الذاتيّة تجاه ما يواجهه من مواقف وأحوال، كيف لا وهو جوهر العمليّة التّواصليّة بين المتكلم والمخاطب، وهذا ما أكد عليه القرآن في قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾[الكهف: 54] وهذا يعني أنّه "الإنسان كثير جدله "[1] ؛ ذلك أنّه يملك مؤهلات ذهنيّة كما يحمل ميولات ورغبات يسعى دائما للدفاع عنها بشكل تلقائي، مما جعل حبّه للجدل طبعا راسخا فيه قصد إثبات وجوده وإظهار شخصيته . ومن ثمّ كان الإنسان أكثر الكائنات جدلا، ويقول "محمد التّومي في هذا الصّدد : « إنّ الإنسان بما له ... من نوازع ذاتيّة وميول نفعيّة كان أكثر الكائنات جدلا، والجدل عبارة عن قدرة كلاميّة وبراعة حجاجيّة قد تستخدم لإثبات الحقّ »[2] .

ويجد المتتبع للنّص القرآني توظيفا للحجاج ضمن سياقات كثيرة ضمنيّة وصريحة؛ فمن الضمنيّة تبيانه سبحانه وتعالى للخصوصيّة الإعجازيّة التي امتاز بها القرآن وتفوقه عن قدرة البشر في الإتيان بمثله، وذلك في قوله تعالى :﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[البقرة: 23]

أمّا توظيفه صراحة، فلم يرد بلفظة الحجاج بل وردت مشتقاته على معان كثيرة منها الجدال، التعليل، المخاصمة، الغلبة بالحجة والمراء، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾[آل عمران: 66] وقوله تعالى :﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[الأنعام: 149]، وإذا تتبّعنا توظيف الحجاج في تاريخ البشريّة فإنّنا نجد أنّ بداية بروزه أو بدايات استعماله كانت مرتبطة بوعي الإنسان، إذ نلمحه بشكل بارز في حضارة الهند القديمة وعند

[1]–محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التّونسية للنشر – تونس، دط –1984م ، (15/ 348)

[2]– محمد التّومي، الجدل في القرآن فعاليته في بناء العقليّة الإسلاميّة، شركة الشهاب – الجزائر ، دط– د ت، ص 14

اليونان ؛ حيث كانت تجرى المنافسات والمحاججات في مجالس الملوك والقضاة، وغالبا ما تنتهي إلى منتصر غالب أو مهزوم مغلوب، فقد شكّلت بذلك طابعا مميّزًا في حيلتهم .

وإذا كانت المناظرات عند الهنود اتّخذت طابعا حجاجيا، بِعدّها شكلا من أشكال التّعبير واسترداد الحق، فإنّ " رولان بارث R .Barthes " يقدم أنموذجا آخر من تاريخ اليونان القديمة يكشف فيه عن أهميّة الحجاج في تلك الفترة وفي هذا الصّدد يقول : « قام طاغيتان هما "جيلون" و"هيرون" من صقليّة بنَفي وترحيل السّكان ونزع ملكياتهم من أجل تعمير "سراكوزا" وتقسيم الأراضي على المرتزقة، وعندما أسقِطا من طرف انتفاضة ديمقراطيّة تم رجوع الأهالي إلى مناطقهم، وكانت هناك دعاوى لا حصر لها؛ لأنّ حقوق الملكية كانت معتمة ، هذه الدّعاوي كانت ذات نمط جديد، فهي تعيين لجان شعبيّة كبرى، ويجب من أجل الإقناع أن يكون الشخص الماثل أمامهم فصيحا . »[1]

ولعل أهم نَقلة حدثت في اليونان، كانت حين ألّف " أرسطو" (Aristote) كتابه (الخطابة) الّذي جمع فيه كلّ ما يتعلق بالحجاج الخطابي .[2] نحو : صفات الخطيب، والمخاطب . لقد أدرك أرسطو دور وتأثير الخطابة في حياة النّاس ولذلك عدّ كتابه الباعث الرئيس لثورة البلاغة الجديدة التي قادها "بيرلمانchaim perlman" وزملاؤه.

أمّا في العصر الحديث فقد كانت الانطلاقة من التّداخل المعرفي، فنتَج عن هذه السّمة ظهور تحديات جديدة في شتى الميادين، في نشر الآراء المختلفة . فأصبح كلّ حزب أو داع ينشر دعوته أو رأيه من خلال الخطاب أو الكلمة التي تُعَدُّ وسيلة للتّأثير والإقناع في مجالات متعددة كالقضاء والسّياسة والتّجارة..

التي يطمح كلّ طرف فيها إلى محاججة الطّرف الآخر بغية إقناعه . والإقناع مطلب كلّ عمليّة فكريّة معيّنة، فالمحاججة نمط إقناعي حاضر في كلّ مكان من خلال حواراتنا اليوميّة ومناقشاتنا للرّسائل والأطروحات بشتّى أشكالها، وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى

[1]– رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة عمر أوكان، إفريقيا الشرق –الدار البيضاء، المغرب، دط – 1994، ص 15.

[2]– ينظر: أرسطو طاليس، الخطابة، تح : عبد الرحمن بدوي، وكالة مطبوعات الكويت، دارالقلم – بيروت ، دط – 1979، (ص: ج، د، هـ)

وضع نظريّة تعنى بالحجاج، انطلاقا من الخطاب، حيث تصف أدواته وتقنياته، وتحدد أغراضه وأهدافه . وقبل الحديث عن نظرية الحجاج نقف أوّلا عند تعريف الحجاج حتى يتشكل لدينا تصور واضح عنه

أولا : مفهوم الحجاج :

الحجاج كمصطلح تداولته جلّ كتب التّراث العربي والغربي، قد تعددت تعاريفه وتقاربت نظرة اللغويين لمفهومه في أنّه يضارع الجدل والبرهان، فهو لا يعدو أن يكون آلية يتجسّد عبرها الإقناع ؛ ذلك لأنّ الخبر وتبادل الآراء بين المتكلم والمتلقي يستوجب نيّة القصد لإحداث الإقناع وبأسلوب المحاجّة . وللحجاج مفهومان؛ مفهوم لغوي وآخر اصطلاحي.

أ- الدّلالة اللغويّة للفظ الحجاج :

أ-1 -في التّراث العربي :

قد حدّ "ابن سيّدة" (ت 458ه) الحجاج بقوله : « حَاجَجْتُه أحَاجُّهُ حِجَاجًا مُحَاجّةً من حَجَجْتُهُ بالحجَجِ التي أَدْلَيْتُ بها، والحجّة البُرْهان، وقِيْل الحُجَة ما دُوفِعَ به الخصم، وقال" الأزهري " : الحُجّة الوجه الذي يكوّن الظّفر عند الخصومة، وجمع الحجّة حُجَج وحجاج، وحاجّه محاجّةً وحِجَاجًا نَازَعه الحجّة، وحجّهُ بحجُّة حجًّا غلبه على حجّته، وفي الحديث : « فحجّ آدم موسى» أي غلبه بالحجّة، واحتجّ بالشّيء اتّخذه حجّة . قال الأزهري : إنّما سميت حجّة لأنّها تُحَجُّ أي تقصد ؛ لأنّ القصد لها وإليها »[1] . فالحجّة عند " ابن سيدة " هي البرهان أو سلسلة الحجج التي يستطيع المتكلم أن يفحم بها المتلقي .

أمّا" ابن منظور" (ت 711ه) فقد ذكره في معجمه وقال : «حاج أحاجُّه حجَاجًا ومحاجَّة حتى حَجَجْتُه، أي غلبته بالحجج التي أدليت بها .... ويقال أنا حَاجَجْتُه فأنا مُحاجُّهُ وحَجيجه ؛ أي مغالبه بإظهار الحجة التي تعني الدليل والبرهان »[2]. فابن منظور حذا حذو" ابن سيّدة " في مفهومه هذا ورأى أنّ الحجّة هي البرهان والدّليل

[1]–ابن سيّدة، المحكم المحيط الأعظم، تح : عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – لبنان، دط، مادة حجج

[2]–ابن منظور، لسان العرب، دار صادر– لبنان، ط1 – دت، مج(2 / ص 227) ، مادة حجج

وجاء مفهوم التّحاج عند " الفيروز آبادي" « بمعنى التّخاصم »[1]. والاحتجاج سمّاه " الزركشي "(ت794 هـ) « إلجام الخصم بالحجّة . »[2]أمّا مادة حجج في القاموس الفقهي : « من حاجَّه محاجَة وحجاجا أي : جادله . »3

نستخلص ممّا تقدّم ذكره أنّ الحجاج لغة في المعاجم العربيّة لا يعدو عن هذه المعاني الرّئيسة: المخاصمة، المنازعة، الغلبة بالحجّة، المجادلة. كما لاحظنا اختلافا جزئيا في استعمال الجذر (حجج) فمنهم من يستعمل " التّحاج " كالفيروز أبادي، أمّا " ابن منظور" ففضلّ (المحاجّة أو المحاججة) .وأمّا الزّركشي فاستعمل " الاحتجاج " . وهذا وارد لأنّ الجهاز الاصطلاحي المعتمد في الدّراسات العربيّة لا يخلو من خصّيصة التّنقيب والتّدقيق.

أ- 2 –في القواميس الفرنسيّة أنموذجا:

يقابل لفظ الحجاج في الفرنسيّة لفظ (Argumentation)، والتي تدلّ على معانٍ مقاربة للتي في اللغة العربيّة ؛ فحسب قاموس " روبير Le Grand Robert" هو : « القيام باستعمال الحجج، أو مجموعة من الحجج، التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة، أو هو فن استعمال الحجج أو الاعتراض بها في مناقشة معينة » [4] .

ونجد لفظة (Argumenter) تشير إلى :« الدّفاع عن اعتراض بواسطة حجج، أو عرض وجهة نظر معارضة مصحوبة بحجج » [5]

ورد في قاموس " كامبردج cambridge " أنّ :« الحجاج هو الحجّة التي تعلل أو تبرر مساندتك أو معارضتك لفكرة ما .»[1]

---

[1]– الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الفكر–بيروت "، ط1– 1995، (1 / 168) مادة حجج.

[2]– الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة – حلب، دط– 1958 ص 468

[3]– سعدي أبو حبيب، القاموس الفقهي، دار الفكر دمشق – سوريّة، ط2 – 1988، ص 76مادة حجج.

[4]– Le Grand Robert . Dictiannaire de langue Française paris .1989 . p M 23.انظر: الحبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر استقصاء نظري ، مقال، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظريّة وتتطبيقية، في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم، حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، ط1 – 2010، (3/ 32)

[5]– نفسه، ص 23

ومن خلال هذه التّعريفات المعجميّة نجد أنّ دلالة لفظ (Argumentation) لم تخرج عن إطار استعمال الحجّة، إمّا للدّفاع أو الاعتراض عن فكرة معيّنة، وإذ نقارن المعنى اللّغوي للحجاج في اللغة العربيّة، وفي عمليّة المحاجّة .

ب – الدّلالة الاصطلاحيّة للفظ الحجاج :

إنّ مفهوم الحجاج من المفاهيم المثيرة للالتباس ، والتي يصعب حصرها والإحاطة بها ؛ لأنّه مفهوم مميّع يتميز بكثرة الحقول المعرفيّة التي تناولته، إذ نجده متواترًا في الفلسفة والمنطق وفي البلاغة كما نجده في الدّراسات اللغويّة اللسانيّة . وعليه فقد تشعب استعمال مفهومه إلى ثلاثة اتّجاهات و كل اتّجاه باصطلاح أصحابه ؛ فثمة اصطلاح الفلاسفة

و المناطقة، واصطلاح البلاغيين الجدد واصطلاح لغويي الحجاج .

ب–1– الحجاج عند الفلاسفة والمناطقة :

جاء في موسوعة " لالاند " الفلسفيّة أنّ الحجاج هو : « طريقة عرض الحجج وترتيبها أو هو سرد حجج تنزع كلّها إلى الخلاصة ذاتها .»[2] ويعني ذلك أنّ الحجاج الفلسفي يُعنى بآليات عرض الحجج وترتيبها وسردها ؛ فتقديمها مرتبة هو قوة تدعم أو تقوّي الموقف .

وتجدر الإشارة إلى أنّ " **طه عبد الرّحمن** "(ت1944م) قد لخّص مفهوم الحجاج في هذا الاتّجاه في قوله :« أنّه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة، يحقّ له الاعتراض عليّها .»[3] فتصوّره للحجاج مبني على إفهام المتلقّي لدعوة معيّنة وله الحقّ للاعتراض على تلك الدّعوة، أو الإتيان لحجّة أقوى لدحضها .

---

[1]– cambridge A dvance Learners . Dictionary . cambridge University press . 2 na . pub .2004 . p 56.

[2]– أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفيّة، منشورات عويدات – بيروت، ط2 –2001، (1 / 93)

[3]–طه عبد الرّحمن، اللسان والميزان أو التّكوثر العقلي، المركز الثّقافي العربي – الدّار البيضاء، المغرب، ط1 – 1998م ، ص 226

ب-2- الحجاج عند البلاغيين الجدد :

وأشهرهم" شايم بيرلمانchaim perlman" و" **لوسي ألبريخت تيتكا** "tytica، فيعرفان الحجاج بوصفه :« دراسة تقنيات الخطاب التي تؤدي بالذهن إلى التّسليم بما يُعرضُ عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التّسليم »[1]، ومن هذا المنطلق تكون الاستعارة والكناية والتّشبيه والمجاز مثلا من التّقنيات الخطابيّة التي تؤدي إلى التّأثير في المتلقي أو الزّيادة في درجة ذلك التّأثير .

فالحجاج عندهم حسب رأي "محمد عبده" (ت1905م) لا يعدو أن يكون :« طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد استمالة المتلقين إلى القضايا التي تعرض عليهم أو زيادة درجات تلك الاستمالة .»[2]، ويتقصّدون من التقنيات تقنيات الوصل والفصل على وجه الخصوص .

ب-3- الحجاج عند لغويي الحجاج :

وأشهرهم **أوزفالد ديكرو**(Ducrotoswald)، **و** "**أبو بكر العزاوي**" ونجد أنّ تعريف الحجاج عندهم على حدّ تعريف رائد الحجاج اللغوي في العالم العربي ألا وهو أبو بكر العزاوي في قوله : « الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معيّنة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمثابة الحجج اللغويّة وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها .[3] والمعنى من هذا أنّ الحجاج هو متوالية من الأقوال الإنجازيّة تشمل حجج لغويّة ونتائج ؛ فمثلا عند القول : الجو جميل فلنذهب إلى نزهة .

الجزء الأول من الجملة (الجو جميل) هو حجة قوليّة ، أمّا الجزء الثّاني (فلنذهب إلى نزهة) هو نتيجة .

---

[1]- عبد الله صوله، في نظريات الحجاج دراسات وتطبيقات، دار الجنوب - تونس، ط1 - 2011م، ص 13

[2]- لزهر كرشو، تقانة التّحليل الحجاجي للخطاب ، مطبعة الرمال- الوادي، الجزائر، دط ، 2020م، ص 6، 7 . نقلا عن: محمد العبد، النّص والخطاب والاتّصال، الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعي - القاهرة، ط1 - 2005م، ص 188 .

[3]- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع - الأحمدية، ط1 - 1426هـ، ص16

وعند التّمعن في هذه الاتّجاهات الثّلاثة نجد أنّ التّعريف **الفلسفي المنطقي** يركز على ثلاثيّة القضية المنطوق بها، والمنتج المدّعي والمخاطب المعترض، فيما يركز اتّجاه **البلاغيين الجدد** على التّقنيات المؤثرة، والموجِّهات الفاعلة، أمّا اتّجاه **لغويي الحجاج** فيركزون على المتواليات القوليّة الجامعة بين الأقوال الحجج، والأقوال النّتيجة، والغاية التي تجتمع عليها الاتّجاهات الثّلاثة في التّأثير والتّوجيه، ويمكننا الجمع بين التّعاريف الثّلاثة في تعريف جامع يتلخص في :

الحجاج هو كلّ منطوق يعرض قضيّة ما بهدف استمالة المخاطب والتّأثير فيه، بواسطة طائفة من تقنيات الخطاب في شكل إنجاز متواليات قوليّة تجمع بين الحجج والنتائج المتمخضة عنها .[1]

ثانيا : علاقة الحجاج بمجاله المفهومي :

ارتبط الحجاج عبر مساره التّاريخي بمصطلحات طالما اعتبرت مرادفات له . لهذا تعدّ مسألة تداخل المصطلحات محطّ التباس فيقف الباحث محتارا ممّا يدفعه للسّعي إلى إماطة اللثام عن الحجاج ومفردات أسرته المفهوميّة وهي متعددة ومنها : الجدل، البرهان أو الاستدلال البرهاني، الخطابة، الحوار أوالتّحاور، المناظرة، المخاصمة، المنازعة ... وسنكتفي بدراسة بعض منها مبينين وجوه التّمايز والتّداخل والتّشابه بينهما .

1-الحجاج والجدل :

جعل العرب لفظ الجدل مرادفا للحجاج في اصطلاح القدماء منهم : " الزركشي"(ت 794هـ)[2] في كتابه البرهان في علوم القرآن، والسّيوطي (ت 911هـ)[3]في كتابه الإتقان في علوم القرآن .

---

[1]– لزهر كرشو، تقانة التّحليل الحجاجي للخطاب، ص7، 8

[2]– بدر الدّين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، فصل في معرفة جدله، دار الجيل – بيروت، دط، (2/ 15، 27)

[3]– السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، عالم الكتاب – بيروت، لبنان ، دط –1973، فصل في جدل القرآن، (2/ 135، 13)

وهذا " ابن منظور" يقول : « ... وهو رجل محجاج أي جدل، وحاجَّهُ محاجّة وحجاجا نَازعه الحجّة .»[1] وعليه يكون الحجاج الخصام والنّزاع بواسطة الحجج، وهذا هو الجدل بعينه . وحذا حذوه "ابن حزم" إلاّ أنّه زاد عليه بتصنيف الجدل إلى صنفين مستندا في ذلك إلى القرآن الكريم.[2]

الصّنف الأوّل :

وهو الصّنف المحمود والمشروع، أي الجدل بالتي هي أحسن ومن أجل إظهار الحقّ وفي هذا الصّدد يقول تعالى :﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾[النحل: 125].فقد أوجب الله تعالى الجدال المحمود في هذه الآية لما يحويه من رفق وبيان والتزام بالحق والرّجوع إلى ما أوجبته بالحجة القاطعة . [الحج: 8]

الصّنف الثّاني:

وهو الصّنف المذموم وله وجهان :

أ- وجه يجادل فيه بغير علم، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى :﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ﴾

ب- أن يجادل المجادل نصرةً للباطل بشغب وتمويه، بعد ظهور الحقّ إليه : مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦ ﴾ [الكهف: 56]

بيد أنّه في المقابل نجد " ابن عاشور"(ت 1393هـ) يرى أنّ الجدال منه ما هو على حقّ ومنه ما هو باطل مثلما ورد عند ابن حزم، ولكنّها في الحجاج قائمة على الباطل. كما ربط " بن عاشور" الجدال بالقدرة في قوله :« والمجادلة هي القدرة على الخصام والحجّة فيه وهي منازعة بالقول لإقناع الغير برأيك » إذ يفهم من كلام ابن عاشور أنّ الإنسان إذا

[1]- ابن منظور، لسان العرب، مادة (ح ج ج)

[2]- يُنظر، ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، منشورات دار الآفاق – بيروت، دط – 1983، (1 / 23)

كان قادرا على الحجاج يسمّى مجادلا . [1] وبالتّالي فالجدال أوسع من الحجاج عنده . ولكن "عبد الله صوله" يؤكد أنّ الحجاج أوسع مجالا من الجدال . إذ يقول : " أنّ كل جدل حجاج، وليس كلّ حجاج جدل " [2] .

وبهذا يخرج الحجاج عن دائرة الجدل التي حاصرته وضيّقت مجاله باعتبار أنّ الجدل صناعة منطقيّة، ومدار سعة الحجاج هو تجاوزه للصّناعة المنطقيّة التي يتسم بها (الجدل) إلى التّأثير العاطفي، والاستثارة الخطابية .

2- الحجاج بين الجدل والخطابة :

يرى"**عبد الله صولة** " **(ت 2004 م)** أنّ الحجاج هو القاسم المشترك بين الجدل والخطابة من حيث إنّ الجدل والخطابة قوّتان لإنتاج الحجج .[3] ويمضي في تفسيره لهذا التّداخل و تموقع الحجاج بين الجدل والخطابة، فذهب أنّه يوجد على الأقل حجاجان : جدلي وخطابي . حيث يقول : «أمّا الحجاج الجدلي فمن قبيل ما عرض " أرسطو" في كتاب(الطّوبيقى Topiques) ومعناه المواضع – أي مواضع القول – ومداره على مناقشة

الآراء مناقشة لغاية التّأثير العقلي .»[4]إذ أنّه يركز على الاحتجاج النّظري لتغيير الآراء المختلفة .

أمّا الحجاج الخطابي فمن قبيل ما عرض له " أرسطو" في كتاب (الخطابة) وهو« حجاج موّجّه إلى الجمهور ذي أوضاع خاصّة في مقامات خاصّة، والحجاج هنا ليس لغاية التّأثير النّظري العقلي، وإنّما يتعداه إلى التّأثير العاطفي وإلى إثارة المشاعر والانفعالات إلى إرضاء الجمهور واستمالته، ولو كان ذلك بمغالطته ....»[5]، ويشر " حمّادي صمود" إلى أنّ

---

[1]- ينظر : عبد الله صوله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبيّة، دار الفارابي – بيروت، ط 2 – 2007 م، ص11

[2]- نفسه، ص 17

[3]- نفسه، ص17

[4]- نفسه، ص 18

[5]- نفسه، ص 18

هناك تقارب في تعريف الخطابة اليونانيّة، ومفهوم البلاغة عند الجاحظ . وذلك من خلال الأغراض والحجج ...

فجاء في" البيان والتّبيين" : « البصر بالحجّة والمعرفة بمواضع الفرصة وإظهار ما غمض من الحقّ وتصوير الحقّ في صورة الباطل .» [1] فكلاهما غايته الإقناع والاستمالة والمغالطة والخداع .

3- الحجاج والبرهان :

البرهان نمط استدلالي ينفرد بمميزات خاصّة كاليقين والقطعيّة والدّقة والتّقنين، وهذا ما أثبته "ابن منظور" بقوله : « البرهان الحجّة الفاصلة – البيّنة – يقال برهن يبرهن برهنة، إذا جاء بحجّة قاطعة للّد الخصم » [2] فمن هذا التّعريف يتّضح أنّ" ابن منظور" صنف البرهان كنمط من الحجاج .

ونجد " **طه عبد الرحمن** "يفرق بينهما بقوله : وأغلب الدّراسات والبحوث التي لها صلة بموضوع الحجاج كانت تميزه عن البرهنة، وتبيّن التّعارض القائم بينهما، مجال الحجاج هو المحتمل وغير المؤكد والمتوقع، وهو لصيق دوما بالخطاب واللغات الطّبيعيّة، أمّا البرهنة فمجالها المنطق واللغات الاصطناعيّة الرّمزيّة بشكل عام، والمصطلح الجامع الذي يشملهما هو الاستدلال ؛ فكل حجاج استدلال، وليس كل استدلال حجاجًا، وكذلك كلّ برهنة أو استنباط أو قياس تعتبر استدلالاً والعكس غير صحيح .[3]

أمّا" ليونيل بلينجر" نجده يقابل بين البرهان والحجاج فيقول : « هناك فكرة تسيطر على الحجاج في جميع مراحله التّاريخيّة، إذ كثيرا ما يتمّ معارضة الاستدلال الصّارم – من النّمط الرّياضي أو النّمط الصّوري – بالحجاج الذي يقترب من الجدل والخطابة » [4]

---

[1]– حمادي صمود، التّفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السّادس الهجري، منشورات الجامعة التّونسية دط –1981م، ص: 259، 260

[2] – ابن منظور، لسان العرب، (ج4/ 271)

[3]– طه عبد الرّحمن، في أصول الحوار، وتجديد علم الكلام، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء – المغرب، ط3 – 2007، ص : 57

[4]– L.Bellenger . l´argumentation .principes . Methodes . 2nd édition . p. 6

ويرى" بيرلمانchaim perlman"و" أنّ الدّليل البرهاني هو الدّليل الذي يحلل من قبل المنطق وهو الأكثر إقناعا وإفحامًا، بشرط توفر حقيقة المقدمات المكوّنة له، وأنّ الحجاج لا ينقل من المقدمات إلى النّتيجة خاصّة موضوعيّة كالحقيقة إنّما يسعى إلى نقل الموافقة التي تتمتع بها المقدمات إلى النّتيجة، وهذه الموافقة مرتبطة دائما بجمهور خاص، وهي تختلف من جمهور إلى آخر .[1]

وهناك سمة أخرى يمتاز بها الحجاج عن البرهنة وهي إمكانيّة دحضه وهذا ما أكده طه عبد الرحمن في تعريفه للحجاج في قوله (..... يحقّ له الاعتراض عليها ...) على عكس البرهنة فلا تقبل الدّحض .

ويمكن تلخيص الفروق السّابقة في النّقاط الآتيه :

- البرهان منطق صوري لا يقبل اللبس، والحجاج مسار حواري يستخدم أحكام
- البرهان مساره عقلي يخاطب الإدراك، أمّا الحجاج هدفه الإقناع على أسس عقليّة .
- البرهان ملزم ولا شخصي والحجاج غير ملزم موجه للغير .
- البرهان مجاله اليقينيات، أمّا الحجاج مجاله الرّأي والممكن (العرف) .
- البرهان حجّة واحدة كافية بأن تكون قاطعة، أمّا الحجاج يحتاج حجج كثيرة نسبيًا.
- البرهان جمهوره كوني، والحجاج جمهوره خاص .

4-الحجاج والحوار :

الحجاج هو الجوهر والحوار هو المظهر ؛ فهو القناة التّواصليّة له . ويؤكد هذا الكلام الرّاغب الأصفهاني في تعريفه للحوار إذ يقول : « المحاورة والحوار : المرادّة في الكلام، ومنه التّحاور »[2]. أي أنّ التّحاور والمحاورة تحمل معنى التّفاعل بين طرفين، طرف يسأل وطرف يجيب وهنا يلتقي معنى الحجاج بمعنى التّحاور أو الحوار ؛ فالمحاجج حين يطرح حجّته ينتظر من الطّرف الآخر أن يحاوره ويسأله ويجيبه ويناقشه .

---

[1] 1- C . perrelmin . Methodes du draoit . logique . juridique Dalloz . 1979.p .106

[2] – الرّاغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، تح : صفوان عدنان، دار القلم – دمشق، الدّار الشّاميّة – بيروت، ط3 – 2002م، مادة (ح و ر)

فيتضح أنّ صلة الحوار بالحجاج صلة وثيقة جدًا، فالحجاج الذي يشمل حرّية رأي المتلقي في الرّفض أو الاعتراض على المتكلم، فإنّ ميدانه الضّروري هو الحوار أو التّحاور، فالحوار هو القناة التي تحمل الحجاج من المتكلم إلى المتلقي في إطار تواصلي، يتفاعل فيه المتكلم المعتقد بصحة فكرته مع المتلقي المنتقد لهذه الفكرة ؛ لغرض إقناعه والتّأثير فيه

5- الحجاج والإقناع :

الإقناع من مادة (قَ نَ عَ) بمعنى رضي .فقد جاء في لسان العرب "لابن منظور" : «قنع بنفسه قنعا وقناعة رضي، والمَقنع (بفتح الميم) العدل من الشّهود أي رضا يقنع به ويرضى برأيه وقضائه ....»[1]

أمّا في الاصطلاح فقد عرّفه "حازم القرطاجي" في كتابه : (منهاج البلغاء) بقوله : « هو حمل النّفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التّخلي عن فعله واعتقاده »[2] . وللرّبط بين المعنى اللغوي والاصطلاحي يمكن القول أنّ الإقناع هو عبارة عن الأثر الحاصل في نفس المتكلم، و هو ما يعبر عنه بالرّضى . وهذا الرّضى لا يحصل إلّا بعد عرض الحجج وهذا ما نلمسه في تعريف الإقناع ل " محمد شمال حسن " إذ يقول : « الإقناع هو تقديم الحجج والمناقشات لحمل الفرد على فعل شيء أو الاعتقاد بشيء ما »[3] فالإقناع هنا عمليّة طرح الحجج، ومحاولة حمل المخاطب على الإذعان في قبول ما يطرحه المتكلم . ومن هنا نستنتج أنّ العلاقة بين الحجاج و الإقناع كعلاقة الأداة بالغرض، وعلاقة الوسيلة بالغاية فالحجاج والإقناع يعتبران عملية واحدة . تبدأ بالحجاج كوسيلة وأداة وتنتهي بالإقناع كهدف وغاية .

ويمكن التّفريق بين الإقناع والاقتناع من خلال تمييز كلّ من " شايم بيرلمان" و"تيتكا" كما يبينه القول: « فالاقتناع عندهم هو غاية الحجاج ويرتبط بما هو عقلي على اعتبار أنّه

---

[1]–ابن منظور، لسان العرب ، (4/ 3754) مادة (قَ نَ عَ)

[2]– أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح : محمد الحبيب بن الخولة، دار الغرب الإسلامي – بيروت، لبنان، ط2 – 1998 م، ص20

[3]– محمد شمال حسن، الصورة و الإقناع، دراسة تحليلية لأثر ثر خطاب الصّورة في الإقناع، دار الآفاق العربيّة –بيروت، ط1 –2006، ص 20

إذعان نفسي مبني على أدّلة عقليّة، أمّا الإقناع فهو يرتبط بما هو ذاتي باعتباره يتضمن السماح للمتكلم باستعمال الخيال والعاطفة في حمل الخصم على التّسليم بالشّيء، بل إنّهما يقسمان الحجاج بحسب نوع الجمهور إلى نوعين : حجاج إقناعي وهو يرمي إلى إقناع الجمهور الخاص، وحجاج اقتناعي وهو حجاج غايته أن يسلم به كلّ ذي عقل .»[1]. إذا يرتبط الإقناع بالحجاج ارتباط النّص بوظيفته الجوهريّة الملازمة في محيط أنواع نصيّة أخرى .

وخلاصة القول أنّ " الحجاج " في مجاله المفهومي، وفي دائرة هذه المصطلحات المتداخلة، يمكننا القول أنّ : في الحجاج تقدم الحجّة وهي القضيّة التي تثبت صحّة قضية أخرى، أي مقدمة البرهان التي تعرف بأساس البرهان، والإقناع هو الغاية والهدف منها . أمّا الحوار فهو ميدانه ومظهره وقناته التّواصليّة الذي يحتاج إلى جدال بين الباث والمتلقي في العمليّة الحجاجيّة .

ثالثا : لمحة تاريخيّة عن الحجاج عند الغرب والعرب قديما وحديثا

يُعدّ الحجاج من أقدم المفاهيم المدروسة والآليات المعرفيّة والاجتماعيّة المتصلة بالإنسان وقدراته الحجاجيّة، وقد حظي بأهميّة بالغة لدى الغرب القدامى، وخاصة الفلاسفة اليونانيين الذين كانوا سبّاقين إلى هذا المجال، ثمّ تلتها الدّراسات الإسلاميّة القديمة وانتهت بالدّراسات الغربيّة الحديثة .

1-الحجاج في الموروث اليوناني القديم :

إنّ الدّرس الحجاجي في الموروثاليوناني القديم ينقسم إلى اتّجاهين ؛ اتّجاه سفسطي عرف بالخطابة، واتّجاه فلسفي عرف بالجدل وفيما يلي توضيح ذلك :

[1]-عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال : مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة – بيرلمان وتيتكا ضمن كتاب : أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب منوبة – تونس، دط – دت ص 301

1-1-الحجاج عند السّفسطائيين :

ظهرت السّفسطائية* عندما تحوّل المجتمع اليوناني إلى مجتمع ديمقراطي نشطت فيه الخطابات القضائيّة لتشهد مولد النّظريات الحجاجيّة الأولى على يد " **كوركاس** " وتلميذه " **تيزياس** " و « أصبح هذا الفن موضوعا لمحاولات التّكييف والاستملاك ..... وتشكلت ثقافة الإقناع التي تغذت من مهارة وحنكة الكثيرين منهم الذين قاموا بعملهم في المحاكم .»[1]

والسّفسطة عبارة عن حركة فلسفيّة وظاهرة اجتماعيّة برزت في القرن الخامس قبل الميلاد في أثينا " وقد تميّز روّادها بالكفاءة اللغويّة وبالخبرة الجدليّة ....، وقد لعب وجودهم دورًا كبيرًا في تطوير البلاغة القوليّة التّواصليّة والحياة الفكريّة عامة ."[2]

وأبرز ما يميّز هذا التّيار « بافتتانه بالقول وممارسة اللافتة له ... وأهم ما كان يعرف به السّفسطائيون متاجرتهم بالعلم وتلاعبهم بمبادئ الأخلاق والفضيلة ...، وقد ربطوا الفضيلة العدالة بالقوة والمصلحة واللذة، فحيث تكون القوة أو المصلحة أو اللذة تكون الفضيلة والعدالة، وقد عرفوا بصراعهم الفكري مع الفلاسفة »[3] . وهذا ما أكده محمد سالم محمد الأمين الطلبة بقوله :« وقد عمد السّفسطائيون في ممارستهم للحجاج إلى بناء حججهم على فكرة " النّفعيّة " المتعلقة باللذة " أي الهوى، وليس النّفع المتعلق بالمثل أو الخير .»[4]

وكان السّفسطائيون يخاطبون النّاس قائلين : « إنّ الحقيقة ما يراه الفرد حقيقة والفضيلة ما يبدوا له فضيلة، وقد انتهى بهم هذا المذهب إلى التّأكيد على أنّ اللجوء للحيل الخطابيّة

---

* السفسطة : هي عبارة عن تيار فكري عرف بمحاججته بطرق ملتويّة، وبأقوال مغلوطة، وتبدوا أيضا في الوهلة الأولى موافقة للمنطق، أي ممارسة الخطيب التّحاجج المغالط الذي يستند إلى الإقناع النّفعي .

[1]– بروتون فليب جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح الغامدي، مركز النّشر العلمي – جدّة، ط1 – 2011م – 1432هـ ، ص 20

[2]– محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد – ط1 – 2008م، ص 24

[3]– يُنظر، هشام الرّيفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب : أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة، من أرسطو إلى اليوم، تحت إشراف : حمادي صمود، منوبة – تونس، (د.ط)، (د .ت)، ص : 49 –85، نقلا عن لزهر كرشو، تقانة التّحليل الحجاجي للخطاب، ص 10

[4]– السّابق، ص 27

والألاعيب القوليّة أمر مشروع إن كانت نتيجته في نهاية المطاف تحقيق مصلحة شخصيّة راجحة ... في كسب تأييد الجمهور.»[1] .

كما يزعمون أيضا أنّ : « الخطيب البليغ يستطيع أن ينصر الحقّ كما يستطيع أن ينصر الباطل بقوة حجّته أو براعته بالأقيسة والقضايا الظّاهرة منها والمضمرة وذلك لإيمان هذه الطّائفة بأنّ الحقيقة ليست شيئا موضوعيا قائما بذاته، بل شيء نسبي، والإنسان هو مقياس كلّ شيء، فالحقّ هو ما يراه كلّ إنسان حقّا، والباطل ما يراه باطلا .»[2]

ومن خلال ما تقدّم ذكره نستنتج أنّ : السّفسطائيين هم أساتذة الفلاسفة وهم أوّل من أتقن فنّ الخطابة وعلّمه، غير أنّهم لم يراعوا الحقيقة والفضيلة بوصفها غايات إنسانيّة نبيلة، بل عرفوا بالتّلاعب بهما وباستغلال عواطف البسطاء لأهداف سياسيّة ومصالح ذاتيّة ضيّقة لا تتعدّى تحقيق لذّة الغلبة والظّفر، ومع هذا لا يُجحد فضلهم في تقديم تلك الآليات التي تساعد على الحجاج بطريقة فعّالة مثل تناقض الأفكار أي لكل حجّة حجّة تنقضها .

بالإضافة إلى اهتمامهم بالنّحو والفصاحة، وبجماليّة اللغة الإقناعيّة ومن ثمّ استطاعوا إدخال البلاغة في مدونة أوسع من المعارف .

وامتدّت عنايتهم بالاحتجاج إلى أن جعلوا الخطابة في مقدمة الصّنائع الإنسانيّة، فأصبحوا يحضون بمكانة مرموقة في المجتمع اليوناني، ثمّ انتشر الحجاج السّفسطائي بأثينا واكتسح فضاءاتها، وهذا ما جعل "جورجياسGorgias" يجادل " سقراط " قائلا : « إنّ حصون أثينا وموانئها إنّما بناها أصحاب القول لا أهل الصّنعة.»[3]

ولكن يعاب على السّفسطائيين أنّهم فتنوا تلاميذهم إذ دربوهم على : «الغلبة على الخصوم بحقٍ أو بغير حقٍ، بل دربوهم كيف يزيفون الحقّ ويقبحونه، وكيف يزينون الباطل ويحسنونه »[4]. وهذا ما دعا سقراط إلى عدم تقبل آرائهم عندما تمسكوا بالشّك والظّن «

---

[1]– رشيد الرّاضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت لبنان، ط1 –2010، ص 13

[2]–هدى وصفي وأخريات، في فن الحجاج والجدل، جامعة عين الشّمس كليّة الألسن – القاهرة، د ط – 2002م ، ص 17

[3]–عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان – الرّباط، ط1 – 2013 م، ص 29

[4]–شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف – لقاهرة، ط12–2002، ص 39

فاتهمهم بتمويه الخطأ بالمنطق المزخرف وقوة البلاغة، واحتقرهم لتقاضيهم أجورا .... من تلاميذهم ... واختلف معهم في مفهوم الأخلاق التي تعني عنده السّعادة في حين تعني عند السّفسطائيين سيطرة الإنسان على غيره»[1] .كيف لا وهم من بنوْا حججهم على فكرة النّفعيّة المتعلّقة باللذة وليس النّفعيّة المتعلّقة بالخير، وهذه الأخيرة قد أفضت بهم إلى «توجيه الحجاج بحسب مقتضى المقام الذي يدور فيه الحوار، وذلك اعتمادا على توظيف سلطة القول farce de laugue في الاحتيال على الحقيقة والخير لا يخدمان غرض المحاجج »[2]

كما تعرضت الحركة السّفسطائية للهجوم من قبل " أفلاطون " و " أرسطو" أيضا .

2-1- الحجاج عند الفلاسفة:

1-2-أ- عند أفلاطون (347 ق.م):

هاجم " أفلاطون" الحجاج السّفسطائي خوفا على الإنسان والمدينة ؛ لأنّه يراه حجاجا يزيف استعمال القول الذي يُعتبر وسيلة للتّواصل بين النّاس، فسار في محاوراته مع السّفسطائيين على خُطى أستاذه "سقراط"، وأفرد لمواجهة الممارسة الحجاجّية السّفسطائيّة محاورتين لـ " سقراط " معهم، أولاهما أسماها " جورجياس Gorgias" والثّانية "فيدر" واعتمد في نقده ... على استراتجيّة الكشف ؛ لأنّه رأى أنّ مقارعته لهم .... كشفا للقناع ورفعا للستار عن أغاليطهم، ومزاعمهم وتلاعبهم بالألفاظ . ومعظم النّقد الذي وجهه إليهم كان يدور حول الحجاج ومقصده في ضوء قيمتي الحقّ والخير .[3]

ففي محاورته الأولى "جورجياس Gorgias "« فحص موضوع الخطابة في ضوء المقابلة علم / ظن، وذكر أنّ الإقناع نوعان إقناع يعتمد على العلم، وإقناع يعتمد على الظّن ..»[4].

---

[1]-حامد الظالمي، عايز جدوع، نشأة الحجاج، مجلّة آداب البصرة، العدد 73-2015م ، ص 5

[2]-ينظر : حامد ناصر الظالمي، نشأة الحجاج، مجلّة آداب البصرة ، جامعة البصرة، عدد 73 - 2010م، ص4

[3]-حامد ناصر الظالمي، نشأة الحجاج، ص 4

[4]- هدى وصفي وأخريات، الحجاج والجدل، ص20

ومن هنا نستخلص أنّ الإقناع الذي يدعو إليه أفلاطون هو الذي يعتمد على أسس علميّة وبالتّالي يكون مقيّدا، على عكس الإقناع الظّني القائم على الشّك وبالتّالي فهو مطلق.

أمّا محاورته الثّانيّة " فيدر" فاعتمد فيها الموازنة والمعارضة، والنّص الذي دارت حوله لم يكن خطبة، بل كان نصًّا حجاجيا في الحبِّ . وفيه حَلِم " أفلاطون " بخطاب جدير بالفيلسوف، خطاب يمكن أن يقنع الآلهة نفسها، والآلهة عنده كانت عنوانا للخير والحقِّ والجمال ... قيم أساسية لبناء الإنسان .[1]

فهو في نظر العلماء المحدثين رفع الفلسفة من الأرض إلى السّماء بتجريده ومثاليته ونظرته لمفهوم الحجاج كانت نظرة جزئية سطحية .[2]

وخلاصة القول : أنّ مقصد الحجاج عند السّفسطائيين ينطلق من استعمال الخطابة لكسب القضيّة أي حجاج مبني على الخداع من أجل التّأثير عن الجمهور . على عكس أفلاطون الذي يهمه من الخطابة تحقيق الفضيلة للنّفس، التي تعتمد على دعامتين أساسيتين وهو العلم والخير . ويهتم بالحجاج الأخلاقي المثالي، وبالتّالي فلسفته مثاليّة وهذا ما دفع " أرسطو" (تلميذه) لنقد فلسفته .

1-2-ب-عند أرسطو(322 ق م):

إذ كان "أفلاطون" اعتبر الجدل الآلة المناسبة لكشف الحقيقة، « فإنّ " أرسطو" انعطف بالجدل نحو مسار آخر ينسجم وانزياحه الفلسفي عن أستاذه »[3]، وكما اختلفت البلاغة عنده على سابقيه (أفلاطون، السّفسطائيون) .

يُعدّ "أرسطو" فيلسوفا موسوعيا، يُعدّ كتابه الريطوريقا أو الخطابة أهم وأقدم كتاب اهتمّ بالإقناع، ويذكر أنّ " أرسطو" استدرك عن "سقراط " رفضه للخطابة، وأكدّ بدوره على أهميّة

[1]– حامد ناصر الظالمي، نشأة الحجاج، ص 6

[2]– ينظر : حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، ص 63

[3]–عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 48

الخطاب في تحقيق العدالة، حيث عرّفها بقوله : « قوة تتكلّف الإقناع الممكن في كلّ واحد من الأمور المفردة ».[1]

أكدّ "أرسطو " من خلال أبحاثه ودراساته، أنّ للحجاج علاقة بمجالين آخرين هما : الحطابة والجدل، وبهذا خالف أستاذه "أفلاطون " الذي يعتبر الخطابة جدليّة فلسفيّة موضوعها الحقيقة، فأرسطو نظر للحجاج من زاويتين متقابلين : زاوية بلاغيّة وأخرى جدليّة. ومن ثمّ جعل أرسطو الخطابة على ثلاثة أنواع، تتمثل في الآتي :[2]

أ –الخطابة المشوريّة (الاستشاريّة) :

تتخذ طابقا سياسيا هدفها تحقيق الخير لصالح العالم وفق قواعد ديمقراطيّة، وزمنها المستقبل

ب –الخطابة القضائية(المشاجريّة):

يهدف القضاة من خلالها إلى معرفة الحقيقة ابتغاء تحقيق العدالة وزمنها الماضي .

ج– الخطابة القيميّة (الاحتفاليّة) :

نوع يمدح أو يذم الأشخاص، أو الأفكار في مقامات أخرى، وزمنها الحاضر .

وقد ميّز " أرسطو " بين ثلاثة مستويات حجاجيّة تمثّلت في : « الايتوس، والباتوس واللوغوس) في علاقاتها بالأبعاد الثّلاثة للفعل الخطابي المتجسد في (الخطيب، المستمع الخطاب ».[3]

[1]–أرسطو طاليس، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، تح عبد الرحمن بدوي، دار العلم – بيروت ، دط – 1979م، ص 8، 9

[2]–محمد طاروس، النّظريّة الحجاجيّة من خلال الدّراسات البلاغيّة والمنطقيّة واللسانيّة ، دار الثّقافة – المغرب ، ط1– 2005 م، ص 15

[3]– نفسه، ص 8، 9

ويمكن تجسيد ما تقدّم ذكره في المخطط الآتي :

المستويات الحجاجيّة عند "أرسطو"

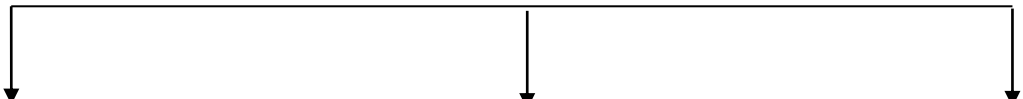

مايتعلق بالخطيب وأخلاقه ما يتعلق بالمتلقي وحالته النّفسية ما يتعلق بالخطبة /القول

وجعل " أرسطو" **المكونات الرّئيسية للخطاب** ثلاثة، وهي [1] :

- الإيجاد (الحجج أو التّصديقات) : تحضير ما يقال .
- الترتيب : تنظيم المادة المحصل عليها .
- الأسلوب (العبارة) : إضافة المحسنات البلاغيّة، وهي مكونات نصيّة وهناك مكونات غير نصيّة تتمثل في الآتي :
- الذّاكرة : الرّجوع إلى الذاكرة
- الإلقاء : تشخيص الخطاب شأن الممثل : الحركات و الإنشاد .

وتسمّى الحجج عند " أرسطو" بالتّصديقات وقسّمها إلى قسمين حيث يقول : « فأمّا التّصديقات فمنها بصناعة ومنها بغير صناعة، وقد أعنى باللاتي بغير صناعة تلك اللاتي ليست تكون بحيلة منا، لكن بأمور متقدمة، كمثل الشّهود والعذاب والكتب و الصّكاك وما أشبه وأمّا بالصّناعة فما أمكن إعداده وتثبيته على ما ينبغي بالحيلة أو بأنفسنا ».[2]

وميّز" أرسطو" بين الخطابة والجدل عندما جعل منهما فنًا قائما بذاته يتداخلان في شتّى العلوم، وإن ربط بينهما بخيط خفي يشير إلى التقائهما في الغاية وهي الإقناع، ويفرق بين الحجاج الجدلي والحجاج الخطابي « فالحجاج الجدلي حجاج تبكيتي .»[3] .أي (البكت

---

[1]– ينظر: هنريش بليت، البلاغة والأسلوبيّة، نحو نموذج سيميائي لتحليل النّص، تح : محمد العمري ، دط–دت، ص 33

[2] – أرسطو طاليس، الخطابة . ص 9

[3]– الزّوبيدي، تاج العروس، تح : الطحاوي، (4 / 447) مادة (ب، ك، ت)

*–التبكيت والبكت : الغلبة بالحجّة، ويقال : بكته حتّى أسكته، وفي الأساس ألزمه بالسّكت لعجزه عن الجواب .

والتبكيت)*، لهذا الخط بنيته اللغوية الأساسيّة وهي السّؤال، و«هو قياس على نتيجة تكون نقيض القضيّة التي يريد المجيب حفظها، أمّا الحجاج الخطابي فهو حجاج إقناعي يقصد به الخطيب إقناع الجمهور بحكم ما أو توجيهه لسلوك ما .»[1]

و لكن شكّلت العلاقة بين الخطابة والجدل عند "أرسطو" نقطة خلاف عند العلماء قديما وحديثا من حيث انفصالهما، أو كون الخطابة جزء من الجدل، ففي كتاب " المواضع " اهتم بدراسة الجدل وهو عنده الحجاج في المسائل الفكريّة الخلافيّة وقصد إلى بيان قواعد الأنطولوجي المنطقي للقضايا .[2]

ولقد تأسست دراسة "أرسطو" للحجاج على: « دعامتين أساسيتين: الأولى يختزلها مفهوم الاستدلال والثّانية تقوم على البحث اللغوي الوجودي .»[3]

إنّ اعتماد "أرسطو" على الاستدلال الحجاجي الذي يتمّ بواسطته إنتاج العلم، والذي ينطلق من معارف سابقة منح النّظريّة الصّدى الواسع في العلوم الإنسانيّة، واعتماده كذلك على البحث اللغوي الوجودي في النّظريّة الأرسطيّة أكّد أنّ الإنسان لا يحيا إلّا باللغة، وإدراكه لذاته ووسطه لا يتمّ إلّا بها .

مّما سبق نستنتج أنّ السّفسطائيين هم روّاد في الخطابة والحجاج، بيد أنّهم لم يراعوا الحقيقة والفضيلة فاتّصفت خطابتهم بالاستيلابيّة العاطفيّة، كيف لا وهم الذين استلبوا حرّية المتلقي، واستغلوا عواطفه وتلاعبوا بها لأهداف ومصالح سياسيّة ذاتيّة ومارسوا الخطابة والحجاج تحت شعار " الغاية تبرر الوسيلة "، فحيث ما تكون المنفعة تحصل اللذة عندهم، وهكذا حوّلوا الإنسانيّة إلى لعبة يلعبون بها، أمّا الفلاسفة فهم أهل الجدل وغايتهم البحث عن الحقيقة وتحقيق العدالة، إلّا أنّهم استغلوا العقل البشري وحلّلوه فعرفوا نقاط ضعفه ومن ثّم سلبوا حريّة المتلقي وتعاملوا معه كأنّه آلة .

---

[1]– آمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النّبوي، دراسة تداوليّة، ص 50، 51

[2]– يُنظر ، هشام الرّيفي، مقال الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب، أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم ، إشراف حمادي صمود، ص 97

[3]–محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 36

2-الحجاج في التّراث العربي القديم :

لكّل أمّة ميراث، وميراث الإغريق واليونان الخطابة، وعين الخطابة الحجاج، والعرب ككلّ الأمم تركت أثرها في فنّ الخطابة، وعُرِف الحجاج عندهم في درسهم البلاغي بمصطلحات مختلفة، منها الاحتجاج والجدل والجدال و المجادلة والمناظرة، ومن خلال الدّراسات العربيّة القديمة يمكننا رصد الحجاج في ثلاث مراحل : ما قبل التّنظير (الممارسة)، مرحلة التّنظير (مرحلة الجاحظ)، ومرحلة ما بعد التّنظير (ضبط السّياقات).

2-1- الحجاج ما قبل التّنظير (الممارسة):

يزخر التّراث العربي بالخطابات الحجاجيّة المتّصفة بالطّابع الإقناعي، الممارس منذ العصر الجاهلي، فالعرب منذ الجاهليّة بلغوا أعلى درجات الرّيادة في القول والكلام، والبلاغة والبيان ، وأدّت الأسواق الأدبيّة وظيفة المؤسسة الإعلاميّة لصناعة الشّعر والخطب، كما تعتبر مختبرا لتفقد الحوليات وتدقيق الأحكام النّقديّة، وإجازة المجيدين منهم بلقب الشّاعر أو الخطيب . وحيثما كانت الأحكام كانت الاختلافات، ومنه امتزجت الممارسة النّقديّة بالأنشطة الحجاجيّة .[1]

كانت الخطابة في هذا العصر أهم الوسائل الإقناعيّة التّأثيريّة في الجمهور بعد الشّعر، إلّا أنّها كانت شفاهيّة .[2]ثمّ تنامت هذه الخطابات التي تجسّدت هذه الاستراتجيّة في عصر النّبي ﷺ والخلفاء الرّاشدين في كثير من السّياقات، وذلك لملائمتها طبيعة الدّعوة الإسلاميّة ، حيث تناولت موضوعات جديدة كالدّعوة إلى الله، وهذا يحتاج إلى أسلوب يتسم بالحكمة والإقناع لاستمالة المتلقي ، ولقد تقدّمت مكانة الخطيب عن منزلة الشاعر في هذا العصر»[3]

أمّا في العصر الأموي فقد استدعى الصّراع على السّلطة بطابعه المذهبي وجوب تفعيل الاستراتجية الإقناعيّة في الخطابات السّياسية ، السّاعية لإثبات الشّرعيّة للحكم أو

---

[1] -ينظر : محمد يطاوي، أصول نظريّة الحجاج عند العرب بين الممارسة والتنظير، مجلّة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها ، المملكة المغربيّة، العدد :21، ماي 2018م م ص 146، 147

[2] -ينظر:عبد الله إبراهيم، التّلقي والسّياقات الثّقافات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2005م، ص 115

[3] -ينظر، بن أحمد عالم فايزة، الحجاج في التّراث العربي ، مجلّة علوم اللّسان، الجزائر، العدد 2 – ديسمبر 2012م، ص107

عدمه. وتبلورت في كثير من العلوم، مثل علوم القرآن لدرء الطّعون عليه وعلوم الفقه وأصوله للتّقعيد وعلم الكلام والعلوم اللغويّة النّحويّة والأدبيّة والنّقديّة، كما كان مطلبا ضروريا لإثبات التشريع .[1]

ومن خلا ل ما تقدّم ذكره نستنتج أنّ الخطابة في هذا العصر استعملت للإقناع أكثر من الإمتاع، سواء للإقناع الموضوعي أو الانتصار للانتماء كما كان الأمر في مواجهة الشّعوبيّة أو مع الفرق الكلاميّة المتطاحنة.

2-2-مرحلة التّنظير (مرحلة الجاحظ) :

يُعدّ "الجاحظ" (255ه) مؤسسا لنظريّة الحجاج العربي من خلال كتابه (البيان والتّبيين)، وقد ورد الحجاج عنده بمصطلح " البيان" وقد عرّفه قائلا : « والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتّى يفضي السّامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان الدّليل ؛لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسّامع ' إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع .»[2].وعليه ففهم الجاحظ للبيان فهم تداوليّ، ودليل ذلك كلمتا (الفهم والإفهام) اللتان تحملان في طيّهما الدّلالي معاني (المتكلم) من خلال لفظة (الفهم)، والمتلقي من خلال لفظة (الإفهام) ومعنى الوظيفة التّواصليّة بينهما، عندما يترجم الجاحظ معنيي كلمتي (الفهم) و(الإفهام أو التّفهيم)، فهو لا يتجاوز مدلول كتابة البيان والتّبيين .

كما يتضح من خلال تعريف "الجاحظ "للبيان علاقته بالحجاج إذ يعتبر تعريفه له بمثابة العمليّة الحجاجيّة كما وضّحها "عبّاس الحشاني" في قوله : إذ يمكن اعتبار البيان من البحوث المهمة في الحجاج وذلك للارتباطات الآتية : الكشف عن المعنى، ويكون هذا

[1] -ينظر : محمد يطاوي، أصول نظريّة الحجاج عند العرب بين الممارسة والتنظير ، ص149-154

[2]- الجاحظ، البيان والتّبيين ، تح : عبد السّلام محمد هارون، مكتبة الخانجي -القاهرة ، ط1 - 1418ه، 1996م، (1/ 76)

بدليل الفهم والإفهام والغاية من الكلام ، وهتك الحجاب وهذا يعني الإقناع والإفصاح ومجمل هذه العناصر عمليّة حجاجيّة بين فعلي الإنتاج والتّلقي [1] .

فصّل" الجاحظ " في استراتجيات الإقناع في ثنايا كتابه، بل إنّه أعطى للحجاج العربي بصمته الخاصّة به، من خلال مخالفته للدّرس الحجاجي عند اليونان من حيث إنّ التراث اليوناني قد كان يُعنى بالمتلقي عناية خاصّة، أمّا الدّرس الحجاجي العربي فقد أولى كلّ الأهميّة للخطيب وصفاته وأخلاقه ورصد شروط نجاحه وإخفاقه إذ يقول" الجاحظ" :«أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أي يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخيّر اللفظ لا يكلم سيّد الأمّة بكلام الأمّة ولا الملوك بكلام السّوقة ...» [2] .

كما أسّس الجاحظ تيّار بلاغيا جديدا في عهده ؛ وهو تيّار بلاغة الخطاب، وفيه ربط البلاغة بالخطابة لغاية إقناعيّة في حين أنّ التّيار البلاغي المعهود في عصره هو تيار بلاغة الصّورة والمحسنات، ويمكن تلخيص دوافع الجاحظ إلى ربط البلاغة بالخطابة إلى :«البعد المذهبي للجاحظ ؛ المذهب المعتزلي وولهه بأئمة الحجّة والكلام . »[3]

وتمثلت استراتيجية الإقناع في الدّرس الحجاجي العربي حسب الجاحظ في كتابه (البيان والتّبيين) في مكّونين :

أ : **المكون اللغوي :**

وهو المتعلق بالفعل اللغوي، الذي يتكل الجاحظ عليه في إقامة الاستراتجيّة الإقناعيّة للخطاب، ويتجلّى ذلك في تركيزه على صفات الخطيب المتّصلة بالفصاحة والسّلامة النّطقيّة والبيانيّة – بعامة – وتفصيله في عيوب النطق والبيان، ومن البراهين الدّالة على تقديمه لما هو لغوي على ما هو غير لغوي عقده فصلا بعنوان « ذكر ما قالوا في مديح اللسان . »[4]

---

[1]– ينظر عباس الحشّاني، خطاب الحجاج والتّداوليّة، دراسة في تاج ابن باديس الأدبي، عالم الكتب الحديث – الجزائر، ط1 –2014م، ص30

[2]– الجاحظ، البيان والتّبيين ، (3/ 27، 28)

[3]–عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص61

[4]– السّابق، (1 ، 16)

ب-**المكون الاجتماعي :**

وهو المكون المتعلق بالتّواصل، وقد لخصّها الجاحظ في كلمتي (الفهم والإفهام)، والتي تقتضي التّواصل والتّعاون في إنجاح العمليّة التّواصليّة، والتّأليفية للكلام، كما يمكن تلخيص الوظائف التي تتنازع (البيان) الذي عناه الجاحظ في وظيفتين، فقد ضبطها محمد العمري قائلا : « الوظيفة الفهميّة، الوظيفة الإقناعيّة، والوظيفة الثّانية هي الصّريحة، وأمّا الأولى فهي الوظيفة الكامنة المتحكمة .»[1] .

أ –الوظيفة الفهميّة :

وهي وظيفة بيان المعرفة والاستكشاف ويجعل الجاحظ وسيلة الفهم في الذّكر والإخبار والاستعمال وترجع كلّ هذه الأمور إلى وظيفة واحدة هي اللغة، إذ أنّها تجلٍ خفي الصّدور وغامضها، وتقرّب بعيد المعاني وتحل من عقدها وهذا ما يؤكده الجاحظ قائلا :«قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني : المعاني القائمة في صدور النّاس المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، ... مستورة خفيّة، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة ... وإنّما يحيي تلكم المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إيّاها .»[2]

ب – الوظيفة الإقناعيّة :

- وهي وظيفة بيان الإقناع ومدار التّأثير، وهي « قائمة على الصّواب اللغوي، والتّوسط البلاغي في حوار مع المقام »[3]

وخلاصة القول أنّ "للجاحظ" بصمته الخاصّة في الدّرس الحجاجي العربي ؛ وذلك لاهتمامه الشّديد بالخطيب (صفاته وأخلاقه ...) على خلاف الدّرس الحجاجي الغربي الذي ركز كل اهتمامه على المتلقي ؛ وهذا ما جعله يرفع سقف فخره بالخطابة العربيّة والخطيب

[1]– ينظر : محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص174

[2]–الجاحظ، البيان والتّبيين، (75/1).

[3]– محمد العمري، البلاغة العربيّة أصولها وامتداداتها، دار النشر افريقيا الشرق، المغرب – لبنان، ط1 – 1999 م، (1/ 200)

العربي، وهكذا عمل الجاحظ على تأسيس نظريّة بلاغة الحجاج والإقناع (النّظرية الإقناعيّة).

أمّا الأعلام الذين جاءوا بعده فيمثلون مرحلة ما بعد التّنظير (مرحلة ضبط السّياقات الإقناعية).

ومن أبرز من مثّل هذا الجهد التّكميلي للنّظريّة الإقناعيّة للخطاب : أبو الحسن بن إسحاق بن وهب (ت 337هـ)، أبو هلال العسكري (ت 395هـ)، أبو الوليد الباجي (ت474هـ)، أبو يعقوب السّكاكي (ت 626هـ) و عبد الرّحمن بن خلدون (ت 808هـ).

1-أبو الحسن بن إسحاق بن وهب(ت 337هـ):

صاحب كتاب (البرهان في وجوه البيان) وقد أكمل هذا الأخير مسيرة الجاحظ في مبحث البيان، وقد قدّم في كتابه تعريفا دقيقا للجدل والمجادلة، بقوله : « وأمّا الجدل والمجادلة فهما قول يقص بهما إقامة الحجّة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين ويستعمل في المذاهب والدّيانات، وفي الحقوق والخصومات، وفي الاعتذارات، ويدخل في الشّعر وفي النّثر »[1]

يتضح من خلال هذا الكلام أنّ " ابن وهب " حدّد هدف الجدل والمتمثل في (إقامة الحجّة) كما ركّز على عنصر الخلافيّة بين المتجادلين (فيما اختلف اعتقاد المتجادلين) ومجال استعماله (في المذاهب والدّيانات ....)، وجنسه الخطابي (شعر ونثر) .

وجعل من الجدل والمجادلة خطابا تعليليّا إقناعيا، وميّز بين أنواع الجدل وقسّمه إلى محمود ومذموم، كما تحدث في بحث من مباحثه حول " آداب الجدل " و « اشترط مجموعة من الشّروط التي يجب توفرها في المحاجّة كأن لا يقبل قولا إلّا بالحجة و لايردّه

[1]- عباس الحشاني، خطاب الحجاج والتّداوليّة، ص 176

إلا لعلّة، وألا يجيب قبل فراغ السّائل من سؤاله، وألّا يستصغر خصمه ولا يتهاون فيه ...»[1].

وقد اشترط ابن وهب في آداب الجدل ما يلي :

- ألّا يعجب برأيه وما تسول له نفسه
- أن يحلم المجادل عن ما يسمع من الأذى والنّبر .
- أن يكون منصفا غير مكابر، لأنّه يطلب الإنصاف من خصمه ويقصده بقوله وحجته
- ألّا يستصغر خصمه ويستهين به .

نجد مما ذكره ابن وهب في مبحثي " الجدل والمجادلة " و " آداب الجدل " ما يمكن أن ينظر إليه الآن من منظور " الاستراتيجيات الاتصاليّة الحجاجيّة " ويتجلى ذلك في :

- أن يبني المجادلة مقدماته مما يوافق الخصم عليه
- ألّا يقبل قوة إلّا بحجّة، ولا يرده إلّا لعلّة .
- أن يخاطب النّاس بما يعهدون ويفهمون، فلا يخرج في خطابهم عمّا توجبه أوضاع الكلام[2] وقول ابن وهب " إنّ الجدل إنّما يقع في العلّة " مطابق لما تقوله به النّظرية الحجاجيّة المعاصرة .[3]

إنّ محاولة "ابن وهب" في كتابه (البرهان في وجوه البيان) والذي نُشر سنة 1941م تحت عنوان " نقد النثر " ونسب خطأ إلى " قدامة بن جعفر"، ثمّ نُشر بعد ذلك منسوبا لصاحبه "ابن وهب"، تعدّ في نظر كثير من المعاصرين من أهم المحاولات في التراث العربي في دراسة الحجاج، فهو أقرب إلى مشروع النّظرية "، فقد اهتمّ بإنتاج المعرفة وتصنيفها وطرق تداولها ومستويات تقنيتها[4]

---

[1]– حافظ اسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة، دار الروافد الثّقافيّة – بيروت، دط– 2013 م ، (9/4)

[2]– أبو إسحاق بن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح : محمد شرف، مطبعة الرّسالة عابدين – مصر، دط – د ت، ص 190

[3]–محمد العبد، النّص والخطاب والاتصال، الأكادمية الحديثة للكتاب الجامعي –القاهرة، ط1 – 200م، ص 196

[4]– ينظر : حافظ إسماعيل علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظريّة وتطبيقية في البلاغة الجديدة ، ص 12

ومّما سبق نخلص إلى القول إنّ : "ابن وهب " اتفق في كثير من تصوراته حول نظرية الجدل مع النّظريات الحجاجيّة المعاصرة، والتي تعدّ جهود " أرسطو" العمدة لها، وهذا ما يبرر ذلك التّقارب الذي بين آراء ابن وهب والنّظريات المعاصرة بحكم استقائها جميعا من مصدر واحد وهو المصدر اليوناني الأرسطي .

2- أبو هلال العسكري (395هـ):

من خلال كتابيه (كتاب الصّناعتين)، (الكتابة والشّعر)، فأهم خاصيّة حجاجيّة أثارها هي تلك التي تعطي للحجاج أوالجدال قيمته التّأثيريّة، وبعده الإقناعي (لكلّ مقام مقال) ، فنجده يقول في ذلك : «وأعلم أنّ المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من مقال، فإن كنت متكلما أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح لهم الخطب، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد، فتخط ألفاظ المتكلمين مثل : الجسم والعرض والكون والتّأليف والجوهر، فإنّ ذلك هجنة »[1]

3- أبو وليد الباجي(474هـ):

صاحب كتاب (المناهج في ترتيب الحجاج)، و قد ركّز في كتابه عن المناظرة والمجادلة، واعتبرها أعلى العلوم قدرا، وأعظمها شأنا من خلال قوله :« وهذا العلم من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا، لأنّه السّبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحقّ من الحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل ، لما قامت حجّة ولا اتّضحت محجّة، ولما عُلِم الصّحيح من السّقيم ولا المعوج من المستقيم . ».[2]

والجديد الذي جاء به "الباجي" هو الشّروط الذي يتحلّى بها المناظر وذكرها في كتابه في باب " ذكر ما يتأدّب به المناظر " وعرض فيه [3]:

---

[1]–أبو هلال العسكري، كتاب الصّناعتين، الكتابة والشّعر، تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربيّة – مصر، ط1 – 1952م، ص 135

[2]– أبو وليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تح : عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي –بيروت، لبنان، ط 3 – 2000م، ص8

[3]– ينظر : أبو وليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، ص 9، 10

- الشّروط الإيمانيّة : إذ ينبغي للمناظر أن يقدم على جدله تقوى الله .
- الشّروط الفيزيولوجيّة المتعلّقة بالجسد : فيجب عليهم التّوقر في الجلوس ولا ينزعج من مكانه .
- الشّروط الأخلاقيّة : يقبل خصمه، عدم مقاطعته، وعدم استصغاره .
- الشّروط العلميّة : لا يتكلم على ما لم يقع له العلم به من جهته، ولا يستدلّ إلّا بدليل وقف عليه وخبره .
- الشّروط النّفسية : لا يناظر في حال الجوع والعطش ولا في الخوف والغضب، ولا في حال يتغير فيها عن طبعه .

ومن خلال ما سبق، يعدّ الباجي أول من صنّف للحجاج شروطا، وأعطى للمناظرة والمجادلة المكانة العلية؛ لأنّها تميّز الصّحيح من السّقيم وغايته في ذلك إثبات الحقّ وإبطال الباطل.

4-أبو يعقوب السّكاكي (626هـ) :

ورد مصطلح الحجاج في كتابه (مفتاح العلوم)، فقد وصلت البلاغة معه إلى التّقنين والمعياريّة، فقد أخضع البلاغة إلى المنطق، فأخرجها إلى الذّوقيّة الاستحسانيّة إلى التّقنين المؤطر بالمقولات العقليّة المنطقيّة .

وأكثر شيء يمكننا أن نلفت النظر إليه في كتابه هو الاهتمام بالمقام حتّى أنّه أفرد له عنوانا موسوما بـ : (لكلّ مقام مقال)، ويقول فيه : «مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشّكر يباين مقام الشّكاية، ومقام التّهنئة يباين مقام التّعزية، ومقام المدح يباين مقام الذّم ... وكذا

مقام الكلام مع الذّكي يباين مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير المقتضى الآخر». [1]

ومن هذا القول نتأكد أنّ ما يقعّد له السّكاكي بصفة مطابقة الكلام للمقام وعدم مطابقته يدخل في صميم الاسترتجيّة الاقناعيّة للخطاب .

[1]– أبو يعقوب السّكاكي، مفتاح العلوم، تح : عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 – 2000م، ص 256

وما يمكن لحظه في كتاب (المفتاح للسّكاكي) استخدامه للمنطق في الرّبط بين المعاني، عن طريق تفعيل ألية الاستدلال . فالتّصوير البياني أو البيان هو استدلال مرجعه "اعتبار الملازمات بين المعاني " [1]. ويحدّد السّكاكي الملازمة بين المعاني في جهتين :

- جهة الانتقال من الملزوم (السّبب) إلى اللّازم (النّتيجة) وهو المجاز، يعني ذكر السّبب ويُراد به النّتيجة .
- وجهة الانتقال من اللّازم إلى الملزوم، وهي الكناية .

ويقول في ذلك :« انصباب علم البيان إلى التّعرض للمجاز والكناية، فإنّ المجاز ينتقل فيه من الملزوم إلى اللازم، كما تقول رعينا غيثا، والمراد لازمه، وهو النّبت ... وإنّ الكناية ينتقل فيها من اللازم إلى الملزوم كما تقول: فلان طويل النّجاد والمراد طول القامة الذي هو ملزوم طول النجاد ...». [2] ويكون السّكاكي(626 هـ) بهذا الرّبط الاستدلالي العقلي قد أخرج البيان من الزّخرفة والتّفن الذّوقي إلى الاسترتجيّة الاقناعيّة للخطاب . وهي عوامل حجاجيّة تتماهى مع ما دعا إليه دارسو الحجاج في العصر الحديث .(أوزفالد ديكرو، Ducrotoswaldمثلا).

3-الحجاج في الدّراسات الغربيّة الحديثة :

بعد هذه الجولة التي تطرقنا فيها إلى جهود الغرب القدامى ونظرتهم إلى الحجاج، تبيّن لنا أنّ جهودهم في الدّرس الحجاجي اتّخذت جانبين : جانب جدلي، وجانب بلاغي، واكتشفنا أنّ جذور الدّرس الحجاجي عندهم يمتدّ إلى الإغريق واليونان وبالتّحديد إلى "أرسطو" -هذا الأخير – الذي أرسى معالم الدّرس الحجاجي أمّا في العصر الحديث صيغ الدّرس الحجاجي عند الباحثين المعاصرين صياغات حديثة ليتخذ وجهتين مختلفتين تماما عمّا كان عنه سابقا، فالوجهة الأولى بلاغيّة ويمثلها "بيرلمان، chaim perlman " والثّانية تداوليّة مثلها "ديكروDucrot" .

[1]– أبو يعقوب السّكاكي، مفتاح العلوم ، ص 438

[2]– نفسه، ص 438

وسنحاول في هذه الجزئية تسليط الضوء على مدى إسهامات الباحثين المعاصرين في إثراء الدّرس الحجاجي، ولعلّ من أهمهم الباحث التشيكي "شايم بيرلمان، chaim perlman"وزميلته البلجكيّة "تيتيكا " "tytica" .في البلاغة الجديدة، و"ديكرو" و"أنسكومبر"في التّداوليّة المدمجة .

1-3- الحجاج عند "بيرلمان perlman " و"تيتكا tytica " :

اهتمت نظريّة البلاغة بالحجاج؛ لأنّ غايتها الإقناع وكان من أهم الكتب التي اشتهر بها الباحثان في الحجاج كتابهما المشترك الموسوم بـ(المصنف في الحجاج)، الذي ظهر من قبل باسم الخطابة الجديدة، وهو كتاب ألف عام 1958م، « بوصفه خطابة تستهدف استمالة عقل المتلقي والتّأثير في سلوكه، أي الإقناع » [1] وكانت غايتهما منه إخراج حجاج قائم بذاته له مميزاته وأهدافه، ولذلك عمل الباحثان على تخليص الحجاج من اتهامه بالمناورة والمغالطة والتّلاعب بالجمهور من ناحية وتخليصه من ربقة المنطق ومن أسر الأبينيّة الاستدلاليّة الصّارمة والمجردة من ناحية أخرى ... [2] .

ومقربين إيّاه من مجالات استخدام اللغة مثل العلوم الإنسانيّة والفلسفة والقانون .[3]

يعرف المؤلفان الحجاج بأنّه : « جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفة حمل المتلقي على الإقناع بما يعرض عليه أو الزّيادة في حجم هذا الإقناع، معبرا عن غاية الحجاج الأساسيّة إنّما هي الفعل في المتلقي على نحو يدفعه إلى العمل أو يهيئه إلى القيام بالعمل .»[4]

---

[1]–عبد الجليل العشراوي، الحجاج في الخطابة النّبويّة، عالم الكتاب الحديث – الأردن، ط1، – 2002 م، ص 30

[2]–ينظر : عبد الله صوله، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج ا–لخطابة الجديدة –، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، ص 298

[3]–ابتسام بن خرّاف، الخطاب الحجاجي السّياسي في كتاب الإمامة والسّياسة، لابن قتيّبة – دراسة تداوليّة – رسالة دكتوراه، جامعة باتنة، 2009 /2010م، ص 72

[4]– سامية الدريدي، الحجاج في الشّعر العربي القديم من الجاهليّة إلى القرن الثّاني هجري، عالم الكتب – الأردن، ط1 – 2008م، ص 21

ومن هنا يتبين أنّ الحجاج عبارة عن جملة من الأساليب توضع في الخطاب لإقناع المتلقي لما قدم إليه أو أن تزيد في حدّة إقناعه في ذلك الموضوع .

أمّا غاية الحجاج عندهما فقد حدّدها "بيرلمان " بقوله : «إنّ هدف نظرية الحجاج هو دراسة التقنيات الخطابيّة التي تسمح بالإثارة أو تعزيز موافقة الأشخاص على القضايا التي تقدم لهم .»[1] والغاية الأساس للحجاج إنّما هي : «الفعل في المتلقي على نحو يدفعه إلى العمل أو يهيئه إلى القيام بالعمل » .[2]

في هذا الكتاب إذن حاول المؤلفان التّقريب بين الحجاج والخطابة :« والغاية من تقريبنا بين الحجاج والخطابة أن نلحّ على أنّه لا حجاج بدون وجود جمهور يرمي الخطاب إلى جعله يقتنع ويسلم ويصادق على ما يعرض عليه » .[3]

وعليه قسّم المؤلفان الحجاج إلى قسميّن بحسب نوع الجمهور هما : « الحجاج الإقناعي L´argumentation persuasive وهو يرمي إلى إقناع الجمهور الخاص L´auditoire particulier، والحجاج الاقتناعي L´argumentation convainconte وهو حجاج يرمي إلى أن يسلم به كلّ ذي عقل.»[4]

وينطلق المحاجج لإقناع متلقّيه بجملة المقدمات التي تعتبر نقطة انطلاق عند كلّ من" بيرلمان وتيتيكا" وهذه المقدمات هي : الوقائع، الحقائق والافتراضات، والقيم والهرميات، والمعاني والمواضيع، نظر " بيرلمانCH Perlman " وزميلته للحجاج على أنّه نظرة بلاغيّة فقد ربطاه بالتّقنيات الحجاجيّة التي يتوصل إليها الخطاب إلى الإقناع والإذعان، وتنحصر في نوعين: «النّوع الأول يقوم على طرائق الوصل (procèdes liaisons)، والنّوع الثّاني يقوم على طرائق الفصل (procèdes de dissociations) ؛والطرائق الاتصاليّة يقصد بها الآليات التي تقرب بين العناصر المتباينة، وتمكن من إقامة روابط علائقيّة بينهما، حتّى

[1]– محمد طلحة، تداوليّة الخطاب السّردي، منشورات الحياة الصّحافة – الأغواط، ط1 – 2008م، ص 126

[2]– السّابق، ص 22

[3]–عبد الجليل العشراوي، الحجاج في الخطابة النّبوية، ص 30

[4]– عبد الله صوله، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته ، من خلال مصّنفه في الحجاج والبلاغة الجديدة لبيرلمان وتيتيكا ، أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، أشرف صمود، ص 298

يمكن دمجها في بنيّة حجاجيّة متماسكة . ومن أشكالها الأدّلة شبه المنطقيّة، والحجج المؤسَسَة على بينية الواقع، والحجج المؤسِّسة لبنية الواقع.»[1]

أمّا الطرائق الانفصاليّة فهي :«عبارة عن التّقنيات التي تستخدم بهدف تفكيك اللّحمة الموجودة بين عناصر تشكّل عادة كلّ لا يتجزأ .»[2] ويمكن عرض هذه التّقنيات كما يلي :

1-الحجج شبه المنطقيّة :

وهي التي تعتمد في قوتها الإقناعيّة من مشابهتها للحجج الشّكليّة والمنطقيّة مثل: التّناقض والتّماثل التام أو الجزئي، وقانون التّعديّة، والحجج التي تعتمد على العلاقات الرّياضيّة، مثل علاقة الجزء بالكلّ وعلاقة الأصغر بالأكبر .

أ – الحجاج بالتّناقض : « ونقصد بالتّناقض أن تكون هناك قضيتان في نطاق مشكلتين، إحداهما نفي لأخرى، ونقض بها .»[3]

ب-حجاج التّماثل التّام : فمداره على التّعريف الذي يكون فيه المعرَّف والمعرِّف متماثلين لفظا، الأمر الذي جعلنا نعتبر اللفظ الثّاني محمولا على المجاز، فقولنا على سبيل المثال : الرجل رجل .

ج-الحجاج القائم على العلاقة التّبادليّة:تتمثل هذه الحجج في معالجة وضعيتين، إحداهما في سبيل الأخرى مثل: قوله ﷺ:« لا يؤمن أحدكم حتّى يحب لأخيه ما يحبّ لنفسه.»[4]

د-حجّة التّعدية : « حيث تقوم على استنتاج علاقات انطلاقا من توظيف قيمة عنصر ثالث يتمّ المرور عبره لتأكيد صدق العلاقة بين العنصرين الأول والثّاني .»[5]

---

[1]– محمد سالم محمد الأمين الطّلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 127

[2]– نفسه، ص 127

[3]– عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، ص 325

[4]–نفسه، ص : 327، 328

[5]– محمد سالم الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 129

2-الحجج المؤسَّسة على بنية الواقع :

وهي الحجج التي تستخدم الحجج شبه المنطقيّة للرّبط بين أحكام مسلّم بها؛ ومن ضروب الاتصال أو الترابط بين هذه الآراء أو الأحكام: « الاتصال التّتابعي : وهو الّذي يكون بين ظاهرة ما وبين نتائجها أو مسبّباتها، والاتصال التّواجدي :ويكون بين شخص وبين أعماله عموما بين الجوهر وتجلّياته.»[1]

« تنتمي حجج التبذير وحجج الاتّجاه إلى وجوه الاتصال التّتابعي، أمّا وجوه الاتّصال التّواجدي الّتي تدخل فيها عدّة أمور منها: التّداخل بين العمل والشّخص، والتّرابط بينه وبين عمله لايمكن فصلهما وعلاقة الحجّة بالسّلطة أيّ كان نوعها، سواء كانت دينية أم علميّة، ثمّ علاقة الرّمز بأطرافه المكوّنة له فتقوم على التّلازم بين أطرافه .»[2]

3-الحجج المؤسِّسة لبنية الواقع :

الحجج تربطها صلة وثيقة بالواقع هي :« الّتي تؤسِّسه وتبنيه أو على الأقلّ تكمّله وتظهر ما خفي من علاقات بين أشيائه أو تجلّي ما لم يتوقّع من هذه العلاقات، وما لم ينتظر من صلات بين عناصره ومكوّناته.»[3]، وتقوم على تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصّة وهي :

-المثل ويؤتى به في الحالات التي لا توجد فيها عادة مقدّمات .

- البيان أوالتّبيين أو الاستشهاد والّذي من شأنه أن يقوي درجة التصديق بقاعدة ما معلومة وذلك بتقديم حالات خاصة توضّح القول .[4]

-«التّمثيل ليس قائما على علاقة تشابه، وإنّما هو تشابه علاقات .فهو يمنح المخاطب متعة كبيرة وتسليما للفرضيات المعقّدة، عندما يكشف دقّة وجوه الشّبه وطرافة الاستدلال بالتّمثيل .[1]»وهوما يعبّر عنه في البلاغة العربيّة بالتّشبيه التّمثيلي .

---

[1]- عبد الله صولة، الحجاج أطرهومنطلقاته وتقنياته، ص332

[2]- السّابق، ص 131

[3]-سامية الدّريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه ص 242

[4]- ينظر عبد الله صوله، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، ص 336-337

أمّا الطّرائق الانفصاليّة «فتقع في العناصر التي تؤلف وحدة واحدة ويتمّ تجزئتها. لغايات حجاجيّة ومن ذلك توظيف عناصر الرّبط والوصل والعطف النّحوية، واستخدام جمل اعتراضية تحمل أفكار معيّنة مؤكّدة أو ناقصة لما قبلها أو بعدها وغالبا ما يُستخدم ذلك في الحدود والتّعريفات .»[2] ومنه فالغاية من تقنيتي الوصل والفصل لـ " بيرلمان وتيتيكا " هو ربط الغايات الحجاجيّة بالوسائل اللغويّة والمنطقيّة والبلاغيّة .

وممّا يجب ذكره في هذا المقام أنّ الحجاج عند " بيرلمان وتيتيكا "من خلال الكتاب المعنون بـ: مصنّف في الحجاج (traite d´argumentations) الّذي شكّل ظهوره فتحا جديدا وأساسيّا في عالم الخطابة الجديدة، قد مثّل نظرة منطقيّة للحجاج وكان حريصا على الظّهور بمظهر المنطقي المتمكّن من آليات التّفكير، وهذا ما يُنزل الحجاج في صميم التّفاعل بين الخطيب وجمهوره، فالحجاج حسب تّعريفهما، يأخذ من الجدل التمشّي الفكري الّذي يقود إلى التأثير الذّهني في المتلقّي، ويأخذ من الخطابة توجيه السّلوك أو العمل و الإعداد له ولكنّه يظلّ مختلفا عن الخطابة والجدل من زاوية كسره للثّنائيّة التّقليديّة وجمعه بين النّظري والتأثير السّلوكي العلمي، فهو خطابة جديدة متّسعة.[3]

وحصيلة التّقنيات الحجاجيّة في نظرهما أنّ يكون الخطاب في الحجاج « على قدر المقام حيث يتطابق موضوع الخطاب وأسلوبه، فلا يضطر المحاجج في فترة لاحقة من خطابه إلى التّراجع أو تغيير المواقف والمواقع .»[4]

3-2-الحجاج عند أزفالد ديكرو و " أنسكومبر " :

يُعدّ "ديكروDucrot" من مؤسسي نظريّة الحجاج اللغوي، باعتبارها نظريّة لسانيّة تهتمّ بدراسة الوسائل اللغويّة سنة 1973م، وهو أول من أدخل التّداوليّة في اللسانيّات .

---

[1]– محمد سالم محمد الأمين الطّلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 132

[2]–المرجع نفسه، ص133

[3] – ينظر: عبّاس حنّاشي، مصطلح الحجاج بواعثه وتقنياته، مجلّة المخبر، أبحاث في اللّغة العربية والأدب الجزائري، جامعة بسكرة – الجزائر، العدد 9، 2013، ص: 271

[4]–محمد سالم محمد الأمين الطّلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 133

وتستند هذه النّظريّة مرجعيّا إلى الإسهامات التّداوليّة في شقّها الخاص بالأفعال اللغويّة عند " أوستينAustin " (1961م) و"جون سيرلJohn searle" (1932م)وإلى بعض أبحاث" إيميل بنفيستBenveniste " حول التّلفظ، وإلى حواريّة "باختين Bakhtine".[1]ثمّ طوّر" ديكروDucrot" آراء "أوستينAustin" ... وأضاف فعلين لغوّيين، فعل الاقتضاء وفعل الحجاج .

وملخّص هذه النظريّة أنّها نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللّغوية وبإمكانات اللّغة الطّبيعيّة الّتي يتوفّر المتكلّم وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما، تمكّنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية، ثمّ إنّها تنطلق من فكرة مفادها : إننّا نتكلّم عامّة بقصد التأثير.[2]

إذن فهي نظرية ميدانها لساني لغوي وغايتها حجاجيّة، وأدواتها الإجرائية الوسائل اللّغوية، وهدفها ترسيخ الدّور الحجاجي للغة، فيكون "ديكرو "هنا قد نزع عن التّداولية ثوبها الفلسفي البحت.

فقد أقرّ كلٌّ من" ديكرو" و "أنسكومبر" في مؤلّفهما المشترك بأنّ الحجاج متجذّر في اللّغة، ويعرّفانه بأنّه متواليات من الأقوال ، بعضها بمثابة الحجج اللّغوية، وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تستنتج منها [3]

كما تأسست رؤيتهما على ضرورة التّمييز بين الحجاج باعتباره خطاب والاستدلال باعتباره منطق ؛ لأنّهما ينتميان إلى نظامين مختلفين ، حيث يرى كلّ منهما أنّ الأقوال التي تتكون منها الاستدلال منفصلة عن بعضها البعض، أي لا تمثل تسلسل الأقوال نفسها. بحيث كلّ قول يعبر عن قضيّة ما، ... أو وصفا من أوضاع العالم باعتبارها واقعيا أو متخيلا ؛ ولهذا فإنّ تسلسل الأقوال في الاستدلال ليس مؤسسا على القوال نفسها لكّنه على القضايا المنطقيّة المتضمّنة فيها، أمّا الحجاج فهو مؤسس على بنيّة الأقوال اللغويّة وتسلسلها داخل الخطاب .[4]

---

[1]– يُنظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 95

[2]– ينظر: أبو بكر العزّاوي، اللّغة والحجاج، ص 14–15

[3]– ينظر: نفسه ص:16

[4]– نفسه، ص 17

« كما قدّم "ديكرو" مفاهيم الحجّة التي تمثل بناء استدلاليا أو عنصرا دلاليا يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر، قد ترد في شكل قول أو نص أو مشهد طبيعي أو سلوك غير لفظي، كما تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السّياق، والشّيء نفسه بالنّسبة للنتيجة والرّبط الحجاجي الذي يربط بينهما ونوضّح هذا بالأمثلة التالية»:[1]

- أنا متعب إذن أنا بحاجة إلى الرّاحة .
- أنا متعب، أنا بحاجة إلى الرّاحة .
- أنا متعب .
- أنا بحاجة إلى الرّاحة .

فإذا قارنّا بين هذه الأقوال فسنجد أنّه تمّ التّسريح بالحجّة والرّابط والنّتيجة في المثال الأول، وفي المثال الثّاني تمّ التّصريح بالحجّة والنّتيجة وأضمر الرّابط . أمّا المثال الثالث فلم يصرح فيه إلاّ بالحجة، والنّتيجة مضمرة. يتم استنتاجها من خلال السّياق، ونجد عكس ذلك في المثال الرّابع، حيث ذُكِرَت النّتيجة وأُضمرت الحجّة .

وتتميّز هذه الحجج اللغويّة بجملة من الخصائص منها[2] :

-أنّها سياقيّة: إنّ الحجّة التي يقدّمها المتكلّم قد تؤدي إلى حجّة أخرى، بحيث يمنحها السّياق صبغة حجاجيّة، وبهذا تكون العبارة الواحدة المتضمّنة لقضيّة واحدة حجّة أو نتيجة ، وذلك بحسب السياق.

– نسبيّة : إذ تحمل كلّ حجّة قوة حجاجيّة معيّنة، فقد يقدّم المتكلّم حجّة ما يدافع بها عن قضيّة معيّنة لكن في المقابل يستدلّ الخصم بحجة قويّة مناقضة ومضادّة لها تكون أقوى منها، أي أنّ هناك حجاجا قويّة وحجاجا ضعيفة تترتب بحسب درجتها .

-قابلة للإبطال : يمكن للحجّة أن تُرفض أو تنقض بواسطة حجّة أخرى أقوى منها .

وعليه فالحجّة تتصف بالنّسبية والمرونة، كما أنّ لها طابعا تدرجيّا وسياقيا، بالإضافة إلى قابليتها للإبطال، غير أنّها ترتب حسب القوة والضّعف في سلم يسمى "السّلم الحجاجي "

[1]– أبو بكر العزّاوي، اللّغة والحجاج، ص 15–19

[2]– ينظر : نفسه ص:19

كما فرّق "ديكرو" بين معنيين للفظ الحجاج : المعنى العادي و المعنى الفني أو الاصطلاحي (التّداوليّة المدمجة).

- الحجاج بالمعنى العادي : ويعني به طريقة عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف التّأثير في السّامع فيكون بذلك الخطاب ناجحا فعّالا، وهذا المعيار الأول لتحقيق السّمة الحجاجيّة، غير أنّه ليس معيارا كافيا، إذ يجب ألّا تهمل طبيعة السّامع (المتقبّل)المستهدف فنجاح الخطاب يكمن في مدى مُناسبته للسّامع ومدى قدرة التّقنيات الحجاجيّة المستخدمة على إقناعه، فضلا على استثمار النّاحية النّفسية في(المتقبّل) من أجل تحقيق التّأثير المطلوب فيه .[1]

الحجاج بالمعنى الفني : يدلّ على صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب و المدرجة في اللسان، ضمن المحتويات الدّلاليّة .

والخاصيّة الأساسيّة للعلاقة الحجاجيّة أن تكون **درجيّة** أو قابلة للقياس بالدّرجات، أي أن تكون واصلة بين سلالم . و إنّ مفاهيم السّلم الحجاجي والتّوجيه الحجاجي يختصان بالعلاقة الحجاجيّة سواء أحددت هذه العلاقة لسانيا أم اندرجت تداوليا فهو ضمن الحجاج بمعناه الفني [2] . وعليه فإنّ الحجاج الفني يتوافق مع مفهوم التّداوليّة المدمجة .

وقد لخّص "محمد طروس "أهم الأفكار الواردة في التّداوليات المدمجة عند "ديكرو " و" أنسكومبر" وهي كالآتي:[3]

–استقلال المقول عن المحتوى الخبري ؛ أي عدم الحكم عليه بالصّدق أو الكذب . بل يستند عن القوة والضّعف التي تحكم علاقة الحجج ببعضها البعض .

–التّداوليات المدمجة تدمج التّداول في الوصف الدّلالي، ويشتغل مباشرة على البنيّة التّركيبيّة

[1]– صابر الحبّاشة، التّداوليّة والحجاج، مداخل ونصوص ، صفحات للدّراسة والنّشر – دمشق، سوريا، ط1 –2008م، ص 21

[2]– نفسه، ص 21

[3]– محمد طروس، النّظريّة الحجاجيّة من خلال الدّراسات البّلاغيّة والمنطقيّة اللسانيّة، دار الثّقافة – المغرب، ط1 – 2005، ص 106، 107

-نظريّة التّداوليّة المدمجة ارتبطت بالسّلالم الحجاجيّة والرّوابط الحجاجيّة والعوامل الحجاجيّة.

و عليه تنهض هذه النّظرية بمفاهيم أهمها : العلاقة الحجاجيّة والمواضع الحجاجيّة والقيم الحجاجيّة، والقوة الحجاجيّة، والاتّجاه الحجاجي، والقرائن الحجاجيّة، **والسّلم الحجاجي هذا الأخير هو أهم النّتائج التي توصل لها "ديكرو"** .

وسنوجز هذه النّظريّة في المخطط الآتي :

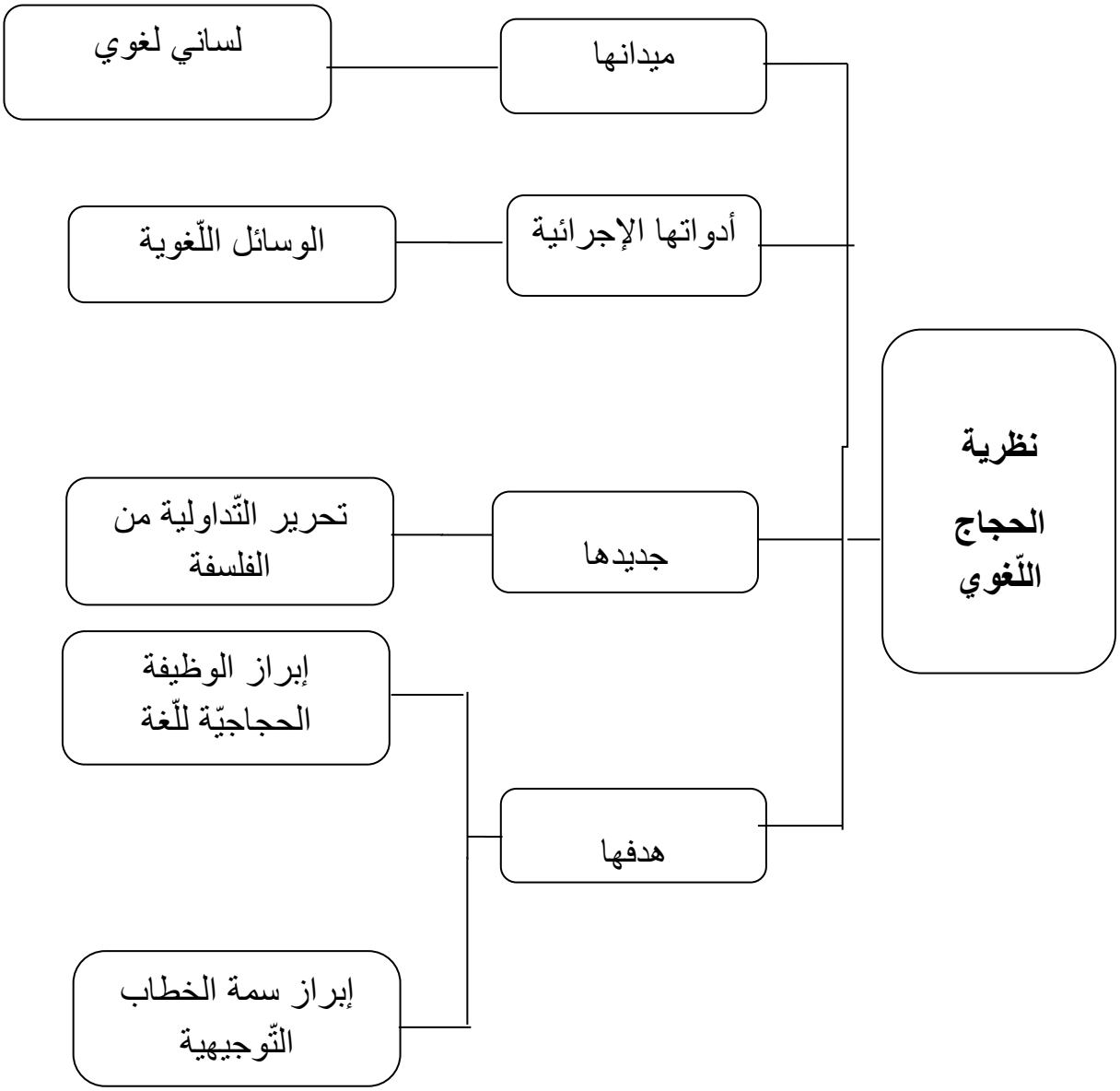

4- الحجاج في الدّراسات العربية الحديثة :

تعتبر الدّراسات الحجاجية العربيّة الحديثة مشروعا علميا واعدًا، و مؤطَّرا بجملة من النّظريات المعرفية التي تضبط أوجه استعمالاته في المجالات المختلفة، وجاءت هذه الدّراسات مسطّرة في دراسات وأبحاث وكتب ترجمات ومقالات... متفرّقة بين الباحثين، فقد اهتمّوا بالحجاج وتقنياته وآلياته المختلفة، ومن أبرزهم نذكر: الدّكتور "طه عبد الرّحمن" والدّكتور" أبا بكر العزّاوي" والدكتور "محمد العمري"، وفريق البحث التّونسي بجامعة منّوبة وغيرهم ....وقد اتجهت هذه الدّراسات إلى ثلاثة اتّجاهات :فلسفية و بلاغية ولسانية و سنوجز ذلك بالوقوف على باحث واحد في كلّ اتّجاه .

4-1-الحجاج في الدّرس الفلسفي (طه عبد الرّحمن) :

لقد حدّد مفهوما لطبيعة الحجاج وآلياته، وقدّمها في مصنفيّن : (في أصول الحوار وتجديد علم الكلام) والثّاني (اللسان والميزان أو التكوثر العقلي.)، حيث حاول من خلالهما إيجاد رابط منطقي لغوي يوصل لنظريّة حجاجيّة تأخذ بقوة المنطق وسلامة اللغة ؛ لذلك تميزت نظرته للحجاج بطابع فلسفي، كما أنّه زاوج بين القديم العربي والحديث الغربي

عرّف الحجاج انطلاقا من مبدأين أساسيين هما "قصد الإدّعاء" و"قصد الاعتراض" قائلا : « حدّ الحجاج أنّه كلّ منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها »[1]. فيرى أنّ جوهر الخطاب يقوم على العلاقة الاستدلاليّة التي تحصل بين هذين المبدأين، غير أنّهما قد يجيئان على مقتضى التّجريد، أو التّفريق أو الجمع، ممّا يجعل العلاقة الاستدلاليّة على أصناف ثلاثة وهي : الحجاج التجريدي، والحجاج التّوجيهي والحجاج التّقويمي .[2]

[1]- طه عبد الرّحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 226

[2]-ينظر محمد حمودي، الحجاج واستراتجيات الإقناع عند طه عبد الرّحمن، مجلة حوليات التّراث، جامعة مستغانم، الجزائر، 2012م، العدد 12، ص 130، 131.

ووضع نظريّة الحجاج انطلاقا من كونه صفة للخطابة حيث يقول : « إنّ الأصل في تكوثر الخطابة هو صفته الحجاجيّة، بناء على أنّه لا خطاب بغير حجاج ».[1]

كما عقد في كتابه بابًا سمّاه(الخطاب والحجاج) واستعرض أنواع الحجج وأصنافها حيث ركّز على السّلم الحجاجي بوصفه عمدة في الحجاج، إذ أفرد له فصلا خاصا، ودرس الاستعارة من وجهة نظر حجاجيّة .[2]

وتوسع في كتابه في أصول الحوار وتجديد علم الكلام وذلك من خلال مقارنته بالبرهان حيث أعطى للحجاج صفتين رئيسيتين : "تداولي" لأنّ طابعه الفكري مقامي واجتماعي، وصفته الثّانية "جدلي" لأنّ هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلاليّة أوسع وأغنى من البنيات البرهانيّة الضيقة ... [3]

4-2- الحجاج في الدّرس البلاغي (محمد العمري) :

« يعدّ محمد العمري من أبرز البلاغيين العرب الذين اهتمّوا بالمقولات البلاغيّة المعاصرة عامّة والحجاجيّة خاصّة سواء من خلال دراسته المبكرة حول بعض مظاهر الإقناع في الخطابة العربيّة القديمة، أو من خلال ترجماته المتعدّدة لبعض روّاد هذا التّيار ، أو اهتماماته الطّموحة لإعادة رسم خارطة عامّة للبلاغة العربيّة القديمة روافدها اتّجاهاتها، امتداداتها وخصائصها الصّوتية والنّحويّة والمنطقيّة . »[4]

يهدف "محمد العمري" في كتابه " في بلاغة الخطاب الإقناعي" إلى التّنبيه للبعد الإقناعي للبلاغة العربيّة، هذا البعد الذي كان حاضرا عند الجاحظ على وجه الخصوص ثمّ نُسِي مع هيمنة صياغة السّكاكي للبلاغة العربيّة، ولقد طبّق فيه الباحث التّصور البلاغي

---

[1]- طه عبد الرّحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 213

[2]- ينظر، الحوّاس مسعودي، البنيّة الحجاجيّة في القرآن الكريم، مجلّة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، 1997م، العدد 12، ص 330

[3]- ينظر طه عبد الرّحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثّقافي العربي – الدار البيضاء، ط1 –2000م، ص 65

[4]- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 287.

لـ"بيرلمان " و "أولبريخت" لعمقه وبساطته وارتباطه مباشرة بـ"أرسطو" ، ...مجتهدا في كشف آليات الخطابة الإقناعيّة التي تميّزها على الشّعر .[1]

وقد عرّف "العمري " البلاغة في كتابه : "البلاغة الجديدة بين التّخييل والتّداول" بأنّها:«البلاغة هي علم الخطاب الاحتمالي الهادف إلى التّأثير أو الإقناع أو هما معًا إيّهاما وتصديقا.»[2]

وقد ركز في كتابه " في بلاغة الخطاب الإقناعي " على عنصرين من عناصر الإقناع هما : عنصر المقام وصور الحجاج، حيث صنّف المقامات حسب موضوعاتها إلى : مقامات الخطابة، ومقامات الخطابة السّياسيّة، ومقامات الخطابة الاجتماعيّة وشؤون الحياة .وسلّط اهتمامه خاصّة على المقام في الخطابة السّياسيّة .

أمّا صور الحجاج عنده فتهدف إلى تحقيق الانسجام، وذلك باشتراكها مع العقل ومبادئه وتتمثل هذه الصّور في الآتي : القياس الخطابي والمثل والشّاهد .[3]

والملاحظة المسجلّة هنا أنّ "محمد العمري" حاول من خلال أعماله إحياء البلاغة القديمة وذلك باستثمار عنصرين من عناصر الإقناع وهما : عنصر المقام، وصور الحجاج

4-3- الحجاج في الدّرس اللساني (أبو بكر العزّاوي):

يعدّ " أبو بكر العزّاوي" رائد الحجاج اللغوي في المغرب، بل في العالم العربي، ويعتبر من أصحاب المشاريع الجديدة للدّراسات اللغويّة والحجاجيّة، بحكم انفتاحه على النّظريات الغربيّة . ومن أهمّ أعماله الحجاجيّة مجموعة من الكتب والمقالات نذكر منها :

(اللغة والحجاج) و (الخطاب والحجاج).

---

[1]- ينظر : ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السّياسي، إشراف : السعيد بن إبراهيم، رسالة دكتوراه، جامعة باتنة، 2009 / 2010م، ص 180

[2]-محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التّخييل والتّداول، إفريقيا الشّرق – الدّار البيضاء، د ط – 2005م، ص 6

[3]- ينظر : محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشّرق – بيروت، ط2 – 2009 م، ص 40، 71

وعرّف الحجاج على أنّه :« تقديم الحجج المؤديّة إلى نتيجة معيّنة، ويتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجيّة داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثّل الحجاج في إنجاز متواليات القول بعضها بمثابة الحجج اللغويّة وبعضها الآخر بمثابة النّتائج التي تُستنتج منها» .[1]

وقد درس الحجاج على مستوى اللغة، انطلاقًا من فكرته الشائعة، " إننا نتكلم عامة بقصد التأثير والإقناع"، معتمدًا في هذا على أن من خصائص اللغة الجوهرية "الحجاج "؛ ذلك ؛ «أن هذه الوظيفة مؤشر لها في بنية الأقوال والجمل نفسها، بل وفي بنية اللغة بوجه عام، فنحن نجدها في المعنى ونجدها في كل الظّواهر الصّرفية، والمعجمية، والتركيبية، والدلالية .»[2] .

وقد ذهب إلى التأكيد على أن كل النصوص والخطابات التي تُنجز بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية، لكن مظاهر الحجاج وطبيعته ودرجته تختلف من نص إلى نص، ومن خطاب إلى خطاب، فليس مجال الحجاج هو القول أو الجملة، وإنما مجاله الحقيقي هو الخطاب والحوار، حيث تظهر وجوه استعماله، وتتجلى طرائق استعماله[3].

إضافة إلى هذا حاول التأكيد على أن الخطابات البصرية، والصور الإشهارية، التي لا تتضمن أي مكون لغوي حجاجية أيضًا؛ فهي تشتمل على الحجاج الأيقوني؛ ، وبالتالي فالحجاج مرتبط بكل أصناف التّواصل اللغوي، وغير اللغوي.

وقد وقف في كتابه (اللغة والحجاج) عند مفهوم القوة، بقوله « إذا كان مفهوم القوة يُستعمل في مجالات علمية ومعرفية عديدة، يستعمل في الفيزياء، وعلم النفس و...فإنه يستعمل كذلك في مجال اللغة وعلم اللغة، وإذا كان هذا المفهوم يشمل في الفيزياء كل ما من شأنه أن يُغير وضع الاستقرار، أو الحركة بالنسبة لجسم...فإن له في مجال اللغة معاني ترتبط أيضا بالتأثير والتغيير.»[4]

---

[1]– أبو بكر العزّاوي، اللغة والحجاج، ص 16

[2]– أبو بكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، الأحمدية للنشر– الدار البيضاء ، ط 1 – 2010 م، ص 27.

[3] – ينظر : نفسه .ص 36.

[4] – أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 134

وفي إطار نظريّة الحجاج تحدّث أيضا عن السّلّم الحجاجي ، وطبّق مفهومه على الاستعارة مستنتجا أنّ الأقوال الاستعاريّة أعلى حجاجيا من الأقوال العادية[1] ونوضّح ذلك في المثال الآتي :[2]

(ن) شجاعة خالد

ق2 خالد بن الوليد أسد

ق1 خالد بن الوليد شجاع

إذن هناك علاقة وثيقة بين مفهوم السّلّم الحجاجي ومفهوم القوّة الحجاجية ؛ فالقول الّذي يقع في أعلى درجات السّلّم هو الدّليل الأقوى

وما يمكن استخلاصه أنّ "أبا بكر العزاوي "حاول توسيع مجال تطبيق نظريّة الحجاج اللغوي في الخطابات. بعد أن كان تطبيقها محصورا في الرّوابط والأدوات الحجاجية .

[1]– ينظر، عبد االهادي بن ظافر الشّهري، استراتجيات الخطاب، ص452

[2]–ينظر أ بو بكر العزّاوي، اللّغة والحجاج ص103

الفصل الثّاني :

السلالم الحجاجيّة (المفهوم والمستويات والقوانين)

توطئة

أولا : مفهوم السّلم الحجاجي .

ثانيا : ماهية نظرية السّلالم الحجاجيّة .

ثالثا : سمات نظرية السّلالم الحجاجيّة وأهميتها .

رابعا : مستويات السّلم الحجاجي

خامسا : قوانين السّلم الحجاجي .

سادسا : أنواع السّلم الحجاجي .

سابعا : وسائل السّلم الحجاجي .

توطئة

ما تنفكّ الدّراسات اللّسانية الحديثة تتطوّر في شتّى الجوانب، حتّى وصلت إلى أحدث دراساتها المتمثلة في (الدّراسات الخطابية الحجاجية)، وهذه الأخيرة تحاول دائما الوصول إلى الكيفية التي تقوم عليها الخطابات بعملية الإقناع والتّأثير؛ حيث إنّ أكثر ما يميّز الخطاب الحجاجي هو التدرّج في الكلام، إذ يقوم بجعل الحجج المقدَّمة بهذه الشّاكلة "**التدرّج**" محقِّقة مداها الأبْعد في الإقبال نحو المطلوب .

فأيّ خطاب حجاجيّ لا يتأتّى نجاحه من غير تنظيم في عرض أو ترتيب الحجج والأقوال، ويكون ذلك من خلال توظيف اللّغة توظيفا سليما يسمح لها تداوليا بتشكيل حجاجيّ، ولقد أثار هذا الموضوع دوافع البحث عند الكثير من الباحثين، حتّى أصبح مبحثا مهمّا جدّا لديهم ، فخصّوه بالدّراسة والتنظير و التّفصيل، وقد تبلورت تلك الدّراسة في كتاب " السّلالم الحجاجية " والّذي ألّفه اللّساني الفرنسي **ديكر**و(DucrotOswald) سنة 1980م، الّذي أصبح وجهة معظم الباحثين، نظرا لتميّز تصوّر صاحبه القائم على الحجاجية في ذات اللّغة.

والّذي مكّنه من إرساء أسس نظرية السّلالم الحجاجيّة، حيث لاقت لاحقا اهتماما بالغا عند الباحثين المعاصرين في مبحث الحجاج اللّغوي وخاصة ما يعرف بالسلّم الحجاجي، وفيما يأتي سنحاول بسْط أهمّ مفاهيم هذه النّظرية. فما هو السلّم الحجاجي؟ وما هي أهميته ؟ و ما هي مستوياته وقوانينه ؟ و ماهي أنواعه و وسائله ؟

أولا : مفهوم السلّم الحجاجيّ :

وقبل إيراد هذا المفهوم نودّ الوقوف أوّلا على الجذر اللّغوي لمادّة (س ل م) في المعاجم اللّغوية.

أ- لـغـةً :

فقد جاء في معجم الوسيط معنى (سلّم):« ما يُصْعَد عليه إلى الأمكنة العالية وما يتوصّل به إلى شيء ما ... والجمع سلالم وسلاليم ».[1]

فهذا المعنى المادّي للسلّم الّذي به نتمكّن من الوصول إلى الأماكن العالية، فهو وسيلة لا محالة من استعمالها كي نصل إلى العلو.

أمّا في كتاب العين فيقول الفراهيدي(ت170هـ) :« هي السُّلَّمُ و هو السُّلَّمُ أي السّببُ والمِرقَاةُ والجميع سلاليمُ فالمِرقاة هي وسيلة الرُّقيّ أو آلته وموضِعُهُ »[2]، أوما يُرقى به أو فيه، كما أنّه يُذكّر ويُؤنّث ، ويقال :« (صَعَدتُ مِرقاةً أو مِرْقاتيْن)، أي درجة او درجتيْن، والجود مِرقاةُ الشّرفِ، ويقال المجد صعبُ المِراقي».[3]

وجاء في معجم مقاييس اللّغة العربية (س ل م) « معظم بابه من الصّحّة والعافية ... والسّلّم معروف وهو من السّلامة أيضا، لأنّ النّازل عليه يُرجَى له السّلامة ». [4]

ويظهر من دلالات هذه المادّة أنّ السّلّم يتضمّن معنى السّلامة والنّجاة، ومعنى التّدرّج من خلال النّزول من السّلّم، أي أنّه على درجات، وهو حال السّلّم الحجاجي كما سيأتي بيانه.

---

[1]- مجمع اللّغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الوطنيّة – القاهرة، ط4 – 2004م، ص446 (مادة سلم).

[2]- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح : مهدي المحزومي و إبراهيم السمرّائي، دار مكتبة الهلال- بيروت، دط – دت ، (7 / 266).

[3]-السّابق ، ص 367.

[4]-ابن فارس أو الحسين أحمد، مقاييس اللّغة العربية، تح: عبد السّلام هارون، دار الفكر –دمشق سوريا، دط –1979م، (3 /91)، مادة (س ل م).

ولقد وردت كلمة "السلّم" في القرآن الكريم للدّلالة على معنى الصعود والارتقاء والعروج في السّماء، ومن أمثلة ذلك :

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[الطور: 38]

جاءت الآية بنفي علمهم بالغيب عن طريق التهكّم والسّخرية بهم ، بإنكار أن يكون لهم سلّم يرتقون به إلى السّماء ، ليستمعوا ما يجري في العالم العلوي ، لذلك وصف بـ: "يستمعون فيه" أي صاعدين فيه إلى كلام الملائكة، أي يرتقون به إلى السّماء فيسترقوا بعض العلم .وقوله أيضا:﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾[الأنعام: 83]

تشير هذه الآية عن قصة إبراهيم عليه السلام، لمّا جادله قومه فيما ذهب إليه من التّوحيد فجاءت مناظرته بأسلوب هادئ متزّن، و اتسم حجاجه بالعقل والحكمة .قاطعا كل شبهة ومعاند ومن هنا جاءت الدّرجة في الرّتب والدرجات .

أمّا " **السّلّمية** " فهي : صفة ملازمة لعدّة ظواهر ولاسيّما اللّغة التي وُصِفت بعض أنظمتها الدّلالية والتّداولية بكونها تراتبيّة سلّميّة، وأنّ سلّميّة اللّغة مبْثُوثَة في جميع أنظمتها، يكمّل بعضها بعض، ولاسيما إذا أُضِيف عامل المقام أو وصفيات الخطاب. [1]

وعليه تظهر هذه الدلالات اللّغوية في تعريف السّلّم والسّلّميّة من منظور حجاجي، فكثير ما تتضافر الحجج بُغية الظّفر بفكرة معيّنة، وما يلاحظ عن هذه الحجج خضوعها للترتيب و التّدرّج وهذا ما يشكّل سلّما حجاجيّا أو سلّميّة، وهو حال السّلامة حين نسلم من شان ما .

[1]– ينظر ، عزالدين النّاجح، العوامل الحجاجية في اللّغة العربية، مكتبة علاء الدّين للنشر والتوزيع – تونس ط1 – 2011 م، ص 122.

ب –اصطلاحا :

يعرّف الباحث المغربي "**طه عبد الرّحمان**" (1944م)السّلّم الحجاجي بأنّه :**«**عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزوّدة بعلاقة تراتبيّة **»**[1] . وهذا يعني تراتبيّة الحجج المدافعة عن فكرة ما، ترتيبا يحقق لها نجاحها، على أن تكون هذه الأقوال تمتلك حجيّتها وفي هذا تتفاوت درجة وقوّة كل حجّة حتّى تكون مرتّبة حجاجيّة ، كما يشترط "طه عبد الرحمان" شرطيْن للسّلّم الحجاجي ويتمثّلان في :

1– **«**كل قول يقع في مرتبة ما من السّلم يلزم منه ما يقع تحته، بحيث يلزم من القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التّي دونـه.**»**[2]

أي لايمكن أن نطلق على مجموعة من الحجج المبعثرة وغير المحكمة والّتي لا تتضمّن الدّفاع عن فكرة واحدة مصطلح السّلم الحجاجي . بل لابدّ ان تكون مرتبة بحسب قوّتها وبروزها في القول .

2– **«** كل قول كان في السّلّم دليلا على مدلول معيّن، كان مايعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه.**»**[3] أي أنّ الحجج التي تداع عن فكرة واحدة، أقواها ما كان أعلى مرتبة ممّا تحتها فهي دليل على حجيّة الفكرة .

ثانيا – ماهيّة نظريّة السّلالم الحجاجيّة :

تعتبرنظرية السّلالم الحجاجيّة من أهمّ المفاهيم الحجاجية، الّتي أفرزتها الدّراسات اللّسانيّة التّداولية في حقل الحجاج، وقد تنوّعت أسماؤها ومفاهيمها بحسب تنوّع اختصاصات الدّارسين لها، فالباحث "**طه عبد الرّحمان**" تناولها تحت **(مراتب الحجاج وقياس التّمثيل)** ويقول فيها:**«**اعلم أنّ الاهتمام بـ "مسألة المراتب أوالمدارج" باعتبارها ظاهرة لغوية طبيعيّة اتّخذت صبغة خاصّة مع انبعاث الدّراسات اللّسانية ومباحث "فلسفة اللّغة"، ويكفي شاهدا

[1]– طه عبد الرّحمان، اللّسان والميزان أو التّكوثر العقلي ، ص277.

[2]– نفسه : ص277 .

[3]– نفسه : ص277.

على ذلك تنوّع اختصاصات الدّارسين الّذين اشتغلوا بهذه المسألة اللّغوية، فنجد من بينهم اللّساني والمنطقي والرّياضي والمتفلسف .»[1]

كما جاءت هذه النّظرية لتطرح تصوّرا لكيفية تدرّج العمليّة الحجاجيّة من حيث هي فعاليّة بين قول الحجّة ونتيجتها، وهكذا اهتمت بنظام و تراتب الحجج داخل الخطاب الطّبيعي، فأُدرجت هذه النّظريّة في الحجاج اللّغوي ؛ لأنّها مجموعة من الأقوال المزوّدة بعلاقة ترتيبيّة في عمليّة تفاعليّة بين قول الحجّة والنّتيجة، ونظريّة السّلالم الحجاجيّة تنطلق من إقرارها بهذا التّفاعل و التّلازم .

ومعنى التّلازم هو:« أنّ الحجّة لا تكون حجّة بالنسبة إلى المتكلّم إلاّ بإضافتها إلى نتيجة مع الإشارة إلى أنّ النّتيجة قد يصرّح بها وقد تبقى ضمنيّة.»[2]ونضرب هنا مثلا ففي قولنا : أنا مُتعب (حجّة) نتيجتها ضمنيّة(أحتاج للرّاحة)، لكن قول الحجّة والنتيجة في تلازمهما تعكس تعدّد الحجج في مقابل النتيجة الواحدة. على أنّ هناك تفاوت من حيث القوّة فيما يخصّ بناء هذه الحجج .

كما أنّ« الحجج تنتمي إلى قسم واحد، كقولنا: الطّالب مجتهد (ن) فقد نجح في المسابقة بامتياز(ق1) وتحصّل على جائزة الجامعة (ق2)، فـ (ق1)الذي يمثّل نجاح الطّالب في المسابقة بامتيازو(ق2)الّذي يمثّل حصوله على جائزة الجامعة، هما حجّتان مختلفتان من حيث القوّة الحجاجيّة، وتؤدّيان بدورهما إلى نتيجة واحدة هي :اجتهاد الطّالب وكفاءته العلميّة.»[3]

ثالثا– سمات نظريّة السّلالم الحجاجية وأهميّتها :

يبيّن مفهوم السّلّم الحجاجي في الخطاب من حيث تركيزه على مبدإ التّدرّج في توجيه الحجج أنّ« المحاجّة اللّغويّة لا ترتبط بالمحتوى وإحالته على مرجع محدّد، بل هي رهينة

[1]– طه عبد الرّحمان، اللّسان والميزان أو التّكوثر العقلي، ص273.

[2]– أسمهان سهل كاظم، محمد عبد مشكور الكعبي، السّلالم الحجاجية ومستوياتها في كتب المجالس النّحويّة، حوليات آداب عين الشّمس –بغداد، العراق، العدد يوليو – سبتمبر، مج49، ص 92.

[3]–بن عزيزة بختة، الخطاب الإشهاري والقيمة الحجاجيّة، منتديات تخاطب، ملتقى الفلاسفة واللّسانيين واللّغويين والأدباء والمثقّفين، 05/16/ 2013.https://takhatub.ahlamontada.com/t9111-topic

القوّة والضّعف الّذي ينفي عنها الخضوع لمنطق الصدق والكذب، ومما تجدر الإشارة إليه أنّ المتكّلمين يختلفون في بناء منظومة السّلالم ، إذ أنّها متّسمة بالخصوصيّة والذّاتية فالبعض يلخّص موقف خصومه، والبعض الآخر يدمجه في برهانه ويتبنّاه مؤقتا.»[1]

وعليه تكمن أهمّية السلّم الحجاجي في: الدّور الّذي يلعبه في ترتيب الحجج بشكل سلّمي للتّأثير في المتلّقي وحمله على الإذعان، كما يسمح بضبط درجة القوّة أو ضعفها فيتيح لنا التمييز بين حجّة حاسمة وحجّة ممكنة وحجّة قويّة وحجّة ضعيفة، «فنظرية السّلالم الحجاجية مؤسّسة على التّدرّج في توجيه الحجج، و أهميّتها لا تتجلّى من خلال الصّدق والكذب، وإنّما في قوّة الحجج وضعفها، فالخطيبة في حججها ترتّب الحجج من حيث القوّة والضّعف، وذلك بحسب السّياق الّذي ترد فيه.»[2]

كما تجدر الإشارة أنّ لـ"ديكرو DucrotOswald" الفضل الكبير في وضع السّلّم الحجاجي والتّنظير له، ومن ثَمَّ الكشف عن الدّور الكبير الذي تلعبه العلاقات السّلّميّة الّتي تنتظم فيها الملفوظات اللّغوية في إنشاء الحجاج داخل الخطاب، فماذا يقصد ديكرو بالسّلّم الحجاجي ؟ وما علاقته بالقسم الحجاجي داخل الخطاب؟

1-مفهوم القسم الحجاجي :

أقرّ (**Ducrto**) بأنّه يجب الوقوف عند مفهوم "القسم الحجاجي" لكونه مصطلحا مركزيّا، وعنصرا مهمّا في نظريّة السّلالم الحجاجيّة، وقد اصطلح عليه بالاختصار (C.A)(Est abrèviation de l'expession classe d'arguments).ويعرّفه قائلا:

«La première notion à dèfinir est celle de classe argumen- tative (par abrèviation :C.A.) .Nous dirons qu‘un locuteur - en entendant par ce mot un sujet parlant insèrè dans une situation de discours particulièrè – place deux ènoncès **p** et

---

[1]-بن عزيزة بختة، الخطاب الإشهاري والقيمة الحجاجيّة. منتديات تخاطب، ملتقى الفلاسفة واللّسانيين واللّغويين والأدباء والمثقّفين، 16/05/ 2013.https://takhatub.ahlamontada.com/t9111-topic.

[2]- ميْسم صباح خضير، زينب الملا السّلطاني، نظرية السّلالم الحجاجيّة (خطب النّساء في العصر الإسلامي أنموذجا) مجلّة ديالي – جامعة بغداد ، العدد73 – 2017، ص 286

p'dans la C.A. dèterminèe par un ènoncè **r** ،s'il considère **p** et **p'**comme des argumuents en faveur de **r**».[1]

والمقصود بذلك أنّ المتكلّم في وضعيّة خطاب محدّدة، يمكن أن يضع ملفوظيْن في قسم حجاجي واحد، يفضي إلى نتيجة "ن" بشرط أن يكون الملفوظان يقودان ويخدمان نفس النتيجة "ن". فالمفهوم من كلام "**ديكرو**"(**Ducrto**) أنّ القسم الحجاجيّ هو مجموعة من الملفوظات أو الأقوال الّتي تأخذ محلّ"ق1" في المعادلة الحجاجيّة وتقود هذه المجموعة من الحجج إلى نتيجة واحدة تثبتها وتؤكّدهاويرى "ديكرو"أنّ العملية الحجاجيّة تتلخّص لغويّا في أن يقدّم المتكلّم قولا أو مجموعة أقوال هي ("ق1" تقود إلى "ق2" هي بمثابة النتيجة "ن".

وضرب الدّكتور لزهر كرشو مثالا على ذلك في قوله : **«** قولك لصديقك : بُعدُ المسافة، وقهر المرض أعاقاني عن زيارتك ؛ فالقولان : ق1 (بُعدُ المسافة)، ق2 (وقهر المرض)، يخدمان النّتيجة (ن) : (أعاقاني عن زيارتك) وبينان الاختيار الحجاجي للمتكلم قصد تبرير عدم زيارته لصديقه **»**[2]

يمكن وضعها في السّلّم التالي:

ن= أعاقاني عن زيارتك

السّلّم الحجاجي ← بُعد المسافة، قهر المرض ← القسم الحجاجي (C.A)

ولو أُجيز لنا تمثيل القسم الحجاجي من خلال ما قيل، يمكن تلخيصه في الشكل التّالي:

ن= نتيجة

حجّة1 ق1

حجّة2 قَ1

قَ ّ 1

القسم الحجاجي (C.A)

[1]-Oswald. Ducrot .Les èchelles-argumentatives .èd .Minuit. 1980.P. 17.

[2] –لزهر كرشو، تقانة التحليل الحجاجي للخطاب، ص43، 44

فـ (ق1+قَ1 +قَ َ1+...) كلّها حجج يكمّل بعضها بعضا في سبيل دفع المتلقي للإذعان و التّسليم بـ"ن "أي النّتيجة .

وهذا التّرتيب للحجج يلعب فيه العامل الحجاجي دورا حاسما مع مراعاة موضوع المحادثة فالغاية منها احترام مقتضيات المقام . ومن هذا اتّخذ السّلّم نجاعته ؛ إذ تعدّد الحجج وتعدّد المقامات مدعاة للترتيب والسّلّميّة، بالإضافة إلى ما يحمله الملفوظ من طاقة تؤهّله إلى الظّفر بالنّتيجة . ولا يكون هذا إلّا بما يوفّره العامل من حسن التّوجيه للملفوظ .

فمفهوم القسم الحجاجي إذن محددّ « بالنّسبة إلى مفهوم النّتيجة من ناحية، والمتكلّم من ناحية أخرى، فإذا انتمى قولان أو أكثر إلى باب حجاجيّ واحد، فذلك يعني أنّهما يُمكنان من خدمة النّتيجة نفسها، ويمثلان اختيار متكلم واحد »[1]

إنّ مقاربة لغة أي نص مقاربة حجاجية يحتاج إلى أن ينطلق المتلقي من معطيات أو توجيهات يقدّمها له ذلك النصّ، سواء كانت هذه التّوجيهات مباشرة أو غير مباشرة ؛ لأنّ اللّغة الخطابيّة الحجاجيّة لاتتوقّف على جانب معيّن من ملفوظاتها بل تحمل خصائص أخرى، وتعتبرهذه التّوجيهات معالم يهتدي بها المتلّقي للوصول إلى مقاصد النصّ الحجاجي، ويتوقّف فعل القراءة بحد ذاته على قدرة هذا المتلقّي على تمثّله لتلك التّوجيهات الموجودة في ثنايا هذا النصّ، وهي قضيّة وُسِمت في الدّرس الحجاجي بـ:التّوجيه الحجاجي.

2-مفهوم السّلّم الحجاجي عند ديكرو(DUCROT):

«هو علاقة تراتبيّة لسلسة الأقوال (ملفوظ/حجج) المؤديّة إلى النّتيجة المراد الوصول إليها (ملفوظ / نتيجة) »[2]، يُقِرّ "ديكروDUCROT" قبل خوضه في تعريف السّلّم الحجاجي أنّ الفروق بين الحجج وتراتبها ضمن القسم الحجاجي الواحد هو الّذي اضطرّه إلى

[1] -جاك موشلار وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتّداوليّة، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين، إشراف : عز الدين المجدوب، المركز الوطني للتّرجمة، دار سيناترا – تونس، ط2 – 2010، ص298.

[2] – لزهر كرشو، تقانة التّحليل الحجاجي للخطاب، ص44

إدماج مفهوم السّلّم الحجاجي الّذي به يميّز بين قوّة الحجّة وضعفها عن غيرها، وأقدرها على الإيصال إلى النتيجة[1]. ويعرّفه قائلا:

«Dans la mesure où une C.A.comporte une telle relation d'ordre ، nous l'appelons : (èchelle argumentative)»[2]

بمعنى أنّ أيّ قسم حجاجي (C.A) يتضمن علاقة تراتبيّة، ونسميّه سلّما حجاجيا واختصاره هو (E . A)ومثّله "ديكرو" في الشّكل التّالي [3]

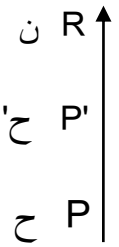

وبعد هذا التّعريف وصف " **ديكرو**" علاقة الحجّتين بالنّتيجة، وذلك عندما يقرّ بأنّ (ح')أقوى حجاجيا في الوصول إلى النّتيجة (ن) وأيسر إقناعا بها من (ح)، فكلاهما موصل إلى النتيجة، لكن ليس بنفس الطّاقة الحجاجية، فالحجّة الأولى في قاعدة السّلّم مساعدة للثّانية، بل إنّها أصل لها ومنطلق للأخذ بها، ونضرب مثالا لذلك :

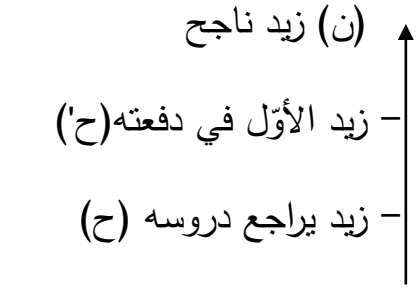

فالحجّة (ح): زيد يراجع دروسه تفضي إلى النتيجة (ن):زيد ناجح والحجّة(ح'): زيد الأوّل في دفعته ، تفضي إلى النتيجة نفسها، لكن الحجّة (ح')أقوى ، ومنه نستنتج أنّ الحجّة كلّما كانت أقرب إلى قمّة السّلّم تكون أنجع وأوقع في نفس المتلقّي والعكس صحيح، أي كلّما

3 - Ducrot .Les èchelles-argumentatives .èd .Minuit. 1980.P. 17. Oswald

2– نفسه : P. 18

1 - Ducrot .OP .cit .P.18 .Oswald

كانت الحجّة أقرب إلى القاعدة كانت أقل حجاجيّة و أقلّ تأثيرا، وعليه فالقوّة الحجاجية في السّلالم تكمن في مدى تدرّج الحجج داخل الخطاب .

كما حاول كلّ من "**ديكرو**"(**Ducrto**) و"**أنسكومبر**"(**Anscomber**)رصْد مفهوم جامع للسلالم الحجاجيّة حيث أجمعا على أنّها: نظام للحجج قائم على معيار التّفاوت في درجات القوّة على سلميّة ممكنة بين الحجّة الأكثر قوّة، وبين الحجّة الأكثر ضعفا، إذ يمكن أن تقول عن المتكلّم أنّه وضع فئةً حجاجيّة، حين يعتبر(ح')حجّة أعلى أو أقوى من (ح)بالنسبة إلى (م) .

وإذا قُبِل أنّ استنتاج (م) من (ح) يتضمّن قبول استنتاج (م) من (ح') والعكس غير صحيح، أي أنّ استنتاج(م) من الحجّة الأكثر قوّة يُقصي إمكانية اللّجوء إلى الحجّة الأقلّ قوّة، بهذا المعنى تنتظم الفئة الحجاجيّة بواسطة علاقة السّلّميّة أسماها(ديكرو) السلّم الحجاجي (س. ج) .[1]

ويزيد طه عبد الرّحمن في توضيحه أكثر عن طريق ذكر شرطيْه إذ إنّ :

« أ- كلّ قول يقع في مرتبة ما من السّلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطّرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه .

ب- كلّ قول كان في السّلم دليلا على مدلول معيّن، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليّه. »[2] . ومن أمثلة السّلم الحجاجي في تراتبيّة الحجج قصد الوصول إلى نتيجة نضرب المثال الآتي : (ن) الكفاءة العلميّة

ح1 الحصول على شهادة الدّكتوراه

ح2 الحصول على شهادة الماستر

ح3 الحصول على شهادة ليسانس

ح4 الحصول على شهادة الثّانويّة

[1]- ينظر :محمّد طروس، النّظرية الحجاجيّة، ص 95، 96 .

[2] - طه عبد الرّحمن، اللسان والميزان، ص277

3-التّوجيه في السّلّم الحجاجي :

جاء في القاموس الموسوعي للتّداولية: «إنّ الوجهة الحجاجية هي الاتجاه الّذي [يعيّن]للقول قصد الوصول إلى هذا القسم من الاستنتاجات... إنّ الوجهة الحجاجية هي خاصية من خصائص الجملة موضوع أداء القول، وهي الّتي تحدّدها للخطاب، ويطابق التّوجيه الحجاجي للكلمة معناها نفسه. »[1] ونفهم من هذا الكلام أنّ دلالة أيّ كلمة هي قيمتها التّوجيهية ذاتها.

وفي هذا الصّدد يشير ديكرو إلى أنّ:«الملفوظات تحمل خاصيّة التّوجيه الحجاجية ممّا يسمح لها بالتّجاوز والمتابعة لملفوظات معيّنة، وهذا ما يسهم في تحكيم اتجاه النتائج والامتناع عن نتائج أخرى، وهذا بواسطة مجموعة من الرّوابط مثل : (بل، لكن).»[2]

ثمّ أخذ يشرح ذلك قائلا:« لكي يقدّم (ق1) كحجّة تفضي وتقود إلى التّسليم ب(ق2) لايكفي بذلك أن يكون (ق1) من الحجج الّتي تضمن الإذعان بـ: (ق2)، وإنّما البنية اللّغوية لـ (ق1) يجب أن تنهض بشروط من شأنها أن تؤهله لكي يكون حجّة تقود إلى (ق2) »[3]. ويتبيّن لنا من هذا الشّرح الذي قدّمه "**ديكرو**" أنّ التّوجيه يُبنى وفق سلالم، وهذا لدعم الخطاب وقوّته، حيث أنّ هذا التوجّه يقوم من خلال منح القول اتّجاها حجاجيّا ودفع المخاطب إلى وجهة معيّنة، وجعل اللّغة محلا للحجاج وليس أداة له فقط وهذا ما ركّز عليه عز الدين الناجح في كتابه(العوامل الحجاجية في اللّغة العربية) قائلا: « اللّغة حجاج

---

[1]-باتريك شارودو ودومينيك منغو: معجم تحليل الخطاب، تر : عبد القادر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة- تونس ، دط -2008م. ص 399 .

[2]- ينظر: كورنيليافون صكوحي، الحجاج في المقام المدرسي، منشورات كلية الآداب، دط ، جامعة منّوبة، 2003م، ص32 .

3-OswaldDucrot. et Anscomber. L'argumentations dans la langue .èd. Pierre Mardaga.1983. P.81

محض، و إنّ الحجاج توجيه صرف .»[1] ويسير هذا التوجّه وفق مستويين اثنين :مستوى المتلقي ومستوى الخطاب . [2]

أ- مستوى المتلقّي:

ويقوم هذا المستوى على الإقناع أو التّأثير في المتلقّي من طرف المتكلّم، وهذا لأجل توجيهه من خلال طرح الحجج عندما يقدّ م قولا يفضي بالتّسليم إلى قول آخر، أو أقوالا تفضي بالتسليم إلى أقوال أخرى، وهذه الأقوال يقوم المتلقّي باستخراج النتائج منها وتكون هذه النتائج صريحة أو ضمنيّة .و اعتبر ديكرو أنّ الحجاج هو طريقة للفعل في الآخر.

ونلاحظ من خلال ماسبق أنّ العناصر الحجاجية في السّلّم الحجاجي لابدّ أن تتوفّر على أدوات توجيهية تعتمد على أسلوبيْ الإقناع والإمتاع للتّأثير في المستمع عن طريق الفهم العقلي والتنبيه العاطفي .

ب- مستوى الخطاب:

« يبنى الخطاب على مجموعة من الحجج المدرجة في الملافظ الّتي تشكّل بنية الخطاب فالحجّة تكتسي بالنسبة للنتيجة قيمة معيّنة، إذ أنّها تعزّزها أو تدحضها بدرجات متفاوتة .»[3]

وعليه فالنّتيجة هي الفاصل في الحجّة من خلال هذا القول، ويمكن الفهم حينما نأخذ بعين الاعتبار قدرات المتخاطبين من خلال أمور مشتركة بينهما والمتمثّلة في المعارف اللّغويّة والإدراكيّة والعرف اللّغوي، فكل هذا لا يقع مستوى الخطاب تحت الفهم العام وتجنّب وقوعه فوق مستوى الفهم.[4]

---

[1]- عزالدين النّاجح ، العوامل الحجاجية في اللّغة العربية، ص 31 .

[2]- ينظر: سفيان لوصيف، عبد الحليم ريوقي، السّلالم الحجاجية في الخطاب التّفسيري، مجلّة المدوّنة، العدد2 -، مج 8، ص 1757 .

[3]-رشيد الرّاضي ، الحجاجيات اللّسانيّة عند ديكرو وأنسكومبر، مجلّة عالم الفكر، العدد1- 2005م، مج 34، ص 228.

[4]- ينظر: سفيان لوصيف ، عبد الحليم ريوقي، السّلالم الحجاجية في الخطاب التّفسيري، مجلّة المدوّنة، العدد2- 2001، مج 8، ص1557

رابعا- مستويات السلّم الحجاجي :

تعتبر الكلمة هي الأساس في تأليف الكلام ، و اللبنة الأولى في بناء الخطاب، فمن جمالها يكتسي النّص حلّته، ومن معانيها يستمدّ الخطاب قوّته، وفي ثناياها **يقر** حجّته، فالمتكلّم والمتلقّي مرتبطان ارتباطا وثيقا بهذه الكلمة، فالأوّل يشعر بالكلمة الّتي ينطقها، ويدرك قيمة معناها وقوّة تأثيرها .أمّا الثّاني فهي تخاطبه وتستدعيه وتستقرّ في ذهنه .

ونحن نعلم أنّ المتكلّم في الخطاب الحجاجي يعتمد على مبدأ التّدرّج والعلاقة التراتبية بين الحجج بحسب قوّتها أو ضعفها، للوصول إلى التّأثير والإقناع، ففي السّلّم الحجاجي تتزاحم الكلمات وتتدافع الحجج في ترتيبها وتتباين الفروق اللّغوية فيما بينها في مستويات مختلفة كـ:المعجمية، الصرفية و البلاغية ...الخ

أ- سلّميّة المعجم :

«إنّ الكلمة بحد ذاتها قد تكون في رتبة معيّنة من سلّم ما ، كما هو الحال مثلا في العلاقات داخل الحقل المعجمي من الحقول الدّلاليّة »[1]، وتتّضح السّلّمية الحجاجية لها من خلال : « حركيتها ومزاحمتها لغيرها من الكلمات، ومن خلال ما تتوافر عليه من خصائص معجميّة، فهي بهذه الحركة تحجز لنفسها رتبة في السّلّم الحجاجي تجعلها عاملا مهمّا في توجيه الكلام، نحو غايته الحجاجية.»[2] تقوم سلّميّة المعجم على ضرب خاص من التقابل ويقصد بالتقابل الاسترسال في المفردات نحو :

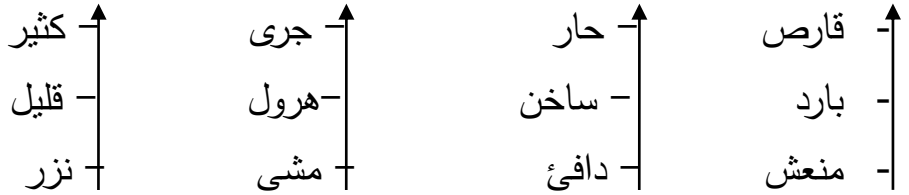

[1] – أسمهان سهل كاظم، محمد عبد مشكور الكعبي ، السلالم الحجاجية ومستوياتها ص 96، نقلا عن أحمد مختار عمر علم الدلالة، ص99

[2]–بلحرش عبد الحليم، السلّمية الحجاجيّة للكلمة في الحوار القرآني، قراءة تداولية في مشاهد من قصتيْ إبراهيم وموسى عليهما السّلام، مجلة دراسات معاصرة، المركز الجامعي الونشريسي – تيسمسيلت الجزائر، 2003 م، المجلّد 3، العدد ، 02 / جوان/ 2019 ص 66 .

والملاحظة المسجّلة هنا أنّ المعجم تحكمه سلّميّة تؤكّدها الوظيفة المرجعية للّغة والدّليل على ذلك درجات الألوان واسترسالها [1] .

فالثّعالبي (430هـ) مثلا قد أحصى في اللّون الأبيض و الأسود أنماطا عديدة ففي اللون أبيض يقول: «أبيضٌ *ثمّ يقِقٌ * ثمّ لهِقٌ* ثمّ واضحٌ *ثمّ ناصعٌ* ثمّ هِجانٌ *وخالِصٌ*، أمّا الأسود فيقول : أسود و أسحمٌ *ثمّ جوْنٌ وفاحمٌ *ثمّ حالكٌ وحائكٌ ...»[2]

وليس الأمر ببعيد عن الحركة، فأفعال الحركة من قبيل مشى ، هرول ، وجرى ...إلخ تنِمّ عن سلّميّة في الحركة في حدّ ذاتها، وهذا ما قصدناه عند قولنا إنّ سلّميّة المعجم تؤكّدها الوظيفة المرجعيّة ، للّغة، أي أنّها مباشرة وكثيفة بحيث لا تحتاج لإدراكها إلىكدّ عقل أو روية و حسبنا مثالا : الملاحظات الّتي تسند للطلبة في الامتحان:

متوسّط ⟵ قريب من الحسن ⟵ حسن ⟵ حسن جدّا. [3]

وتتّضح السّلّميّة الّتي عالجها "**ديكرو**DucrotOswald" وفي المستوى المعجمي من خلال بعض النّماذج الّتي قدّمها من قبيل الصّفات الّتي قد تطلق للتعبير عن الحرارة :(بارد، قارس، حار ساخن، دافئ) أو الكميّات أو تدرّجات الألوان، مثلما ضرب "**ديكرو**"مثال حول ثمن التّذكرة، والجدول الآتي يوضّح البعض من ذلك[4]:

le prix du ticket(ثمن التّذكرة)	les montants (الكمّيات)	adjectifs(الصّفات)
-La pace cout 30France -La pace cout 20France -La pace cout 10France	-La bouteille est pleine -La bouteille est aux trois-quarts pleine - La bouteille est à moitié	-Il fait glacial -Il fait froid - Il fait frais

[1] -ينظر : عزالدّين النّاجح، العوامل الحجاجية في اللّغة العربية، ص 23-24

[2]-أبو منصور الثّعالبي : فقه اللّغة و أسرار العربيّة، ص126 .

[3]- السّابق ، ص124.

6 -Oswald Ducrot .Les èchelles-argumentatives .èd .Minuit. 1980.P. 22-25-30.[4]

إنّ الصفات تعدّ من أكثر أقسام الكلام تعبيرا وقياما عن السّلّميّة، وذلك للجانب التّقويمي الّذي تنهض عليه ويمكن للمثال التّالي توضيح الأمر أكثر :[1]

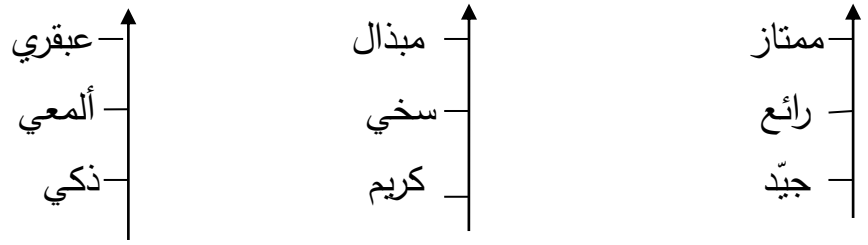

فالصّفة الّتي تقع في أسفل السّلّم هي أقلّ صفات السّلّم حجاجيّةً و أقلّها قياما بعملية التّوجيه الحجاجي في حين أنّ الصّفة الّتي تقع في أعلى السلّم هي الصّفة الطّراز الّتي تحتوي السّمات المشتركة وغير المشتركة، لما يكوَّنُ السّلّم، وبالتّالي هي أكثر مفردات السّلّم حجاجيةً .

وهناك كلمات على طرفي نقيض تتوسّطها تدرّجات تقع بينها، ونجد في مجالس العلماء بعد مناظرة طويلة بين" الزجاج"(ت 310 هـ) و"المبرّد"(ت 286 هـ) أنّ الزّجاج اقتنع بحجج المبرّد و ببراعته النّحوية من خلال أسلوبه القائم على إقناع" الزّجاج"(ت 310 هـ) بأراء نحوية ثمّ ينقضها تباعًا ويقنعه بالنقيض وهكذا حتّى قال الزّجاج : فقلت في نفسي : هذا من عنده، ثمّ بكرتُ إليه كالمعتذر ولزمته .[2]

فقد عبّر "الزّجاج"(ت 310 هـ) عن مدى اقتناعه ببراعة" المبرد"(ت 286 هـ) بقوله : " هذا هو الحقّ " وأردفه بتعبير بالمعنى نفسه : " وما سوى ذلك باطل " فالحقّ كلمة ذات دلالة معجميّة يعرّف عنها دائما بالنقيض وهو" الباطل " فيقال : الحقّ هو نقيض الباطل وكذا في تعريف " الباطل" واستعمال الزّجاج هاتين المفردتين هو لإظهار مدى تأثيره بالمبرد ونلاحظ أنّه لا يوجد تدرجات بين الكلمتين فالأمر إمّا حق أم باطل .

[1]– عزالدّين النّاجح، العوامل الحجاجية في اللّغة العربية، ص125.

[2]– ينظر أسمهان سهل كاظم، محمد عبد مشكور الكعبي، السّلالم الحجاجيّة ومستوياتها، في كتب المجالس النّحويّة، ص96

ولكن هناك صفات أخرى أيضا تكون على طرفي نقيض مع إمكانية وجود مراتب بينهما ؛ ففي قول الاسكافي "(ت 420 هـ) واصفا حجّة "الفرّاء"(ت 207 هـ) في رأي نحوي « وهذا الذي ذهب إليه ضعيف جذا لا يصح ».[1]

فبين القوّة والضعف مراتب منها القبول والجائز، وعندما استعمل الاسكافي هذه المفردة لم يكتف بقوّتها الحجاجيّة الدّالة على رفض الرّأي النّحوي الّذي عرض له، بل أردفها بكلمة " جدّا " أي أنّه وصف أعلى من الضعف ويمكن وضع السّلم الآتي لهذه المفردة، وهو سلّم يتّجه للأسفل لحمله قيم سلبيّة.[2]

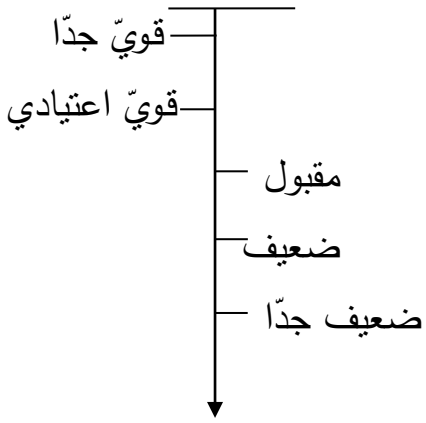

كما أشار الدّكتور "**طه عبد الرحمان**" في كتابه "**اللّسان والميزان** " إلى سلّميّة المعجم تحت مصطلح (أشكال التصوّر المرتبي) وذلك من خلال عرضه التّاريخي لمختلف الباحثين الّذين أولوا أهميّةً بدراسة هذه المراتب، وهي ثلاثة أشكال :[3]

أ-<u>المراتب المتضادّة</u> :

فقد تكون الألفاظ دالة على معانٍ يمكن ترتيبها بين طرفين متباينين ، مثال ذلك جملة الألفاظ المرتّبة التالية :(الرّمضاء، الحرّ، الدّفء، الفتور، البرد، القرس .)، فاللّفظتان : الرّمضاء والقرس هما بمنزلة طرفين متباينين أعلى وأسفل بينهما أربع مراتب ؛فقد جاء هذا

[1]-أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب، كتاب مجالس، تح : غانم قدوري الحمد، دار عمار- عمان، ط1 - 2002م، ، ص 373، نقلا عن أسمهان سهل كاظم، محمد عبد مشكور الكعبي، السّلالم الحجاجيّة ومستوياتها ، ص 97

[2]- ينظر أسمهان سهل كاظم، محمد عبد مشكور الكعبي، السّلالم الحجاجيّة ومستوياتها، ص 97

[3]- طه عبد الرّحمان، اللّسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص274، 275

التّصوّر المرتبي عند اللّساني الشّهير (إدوارد سابيير)، ولعلّه هو أوّل من اشتغل من المحدثين بألفاظ المراتب في اللّغة الطّبيعيّة .

ب-**المراتب الموجّهة توجيها كمّيّا** :

يوجد هذا الضّرب من المراتب في الألفاظ الدّالة على معانٍ تقبل التّدرّج في اتّجاه واحد إمّا على مقتضى التّزايد أو على مقتضى التّناقص ؛ مثال ذلك أسماء معاييرالوزن الآتيّة :(درهم، مثقال ، أوقية، رطل). المرتّبة على سبيل الزّيادة في الوزن أو (رطل ، أوقية ، مثقال درهم) المرتّبة على سبيل النّقص منه، واشتغل على هذا النّوع من المراتب كلا اللّسانييْن الأمريكي "هورن Horne " والفرنسي "فوكونيي fauconnier"

ج-**المراتب الموجّهة توجيها قصديّا** :

قد تدخل المراتب لا على الألفاظ وحدها، بل كذلك على الجمل، فيكون قصدُ المتكلّم عاملا في تحديد اتّجاه المراتب الّتي تنزلُها هذه الجمل، مثال ذلك أن يقصد المتكلّم " التوقّف عن العمل متى شعر بالملل و بالأوْلى متى غلب عليه النّوم" فالقولان (شعر المتكلّم بالملل) و (غلب على المتكلّم النّوم) هما بمثابة مرتبتين متفاوتتين بينهما بموجب القصد الذي للمتكلّم في التوقّف عن العمل، واختص بالنّظر في هذا النّوع من المراتب اللّسانيان الفرنسيان" **ديكرو**" و" **أنسكومبر**"

ب - سلّميّة الصّرف :

إنّ السّلّمية في اللّغة لا تكمن في المستوى المعجمي فحسب، بل تتعدّاه إلى المستوى الصّرفي وإنّ الاهتمام بالجانب الصّرفي في عملية التّخاطب من أهمّ الرّكائز الّتي يعتمد عليها المتكلّم ويعوّل عليها في إثبات ما يصبو إليه.

وفي هذا الصّدد يقول الدّكتور "فاضل صالح السّمرّائي" :«ولا شكّ أنّه لو لم تختلف معاني الكلمات لما اختلفت الصّيغ الصّرفية إذ أنّ كلّ عدول من صيغة إلى أخرى لابدّ أن يصحبه عدول عن معنى إلى آخر .»[1] ويكون ذلك من خلال تقلباتها واشتقاقاتها المختلفة،

[1]-فاضل صالح السامّرّائي، معاني الأبنية العربيّة، دار عمّار للنّشر والتّوزيع – عمان، ط2 -2007م، ص 6

وإنّ الانتقال من صيغة إلى أخرى من ناحية تراتبية السّلّم الحجاجي له أثر كبير في دعم الحجّة .

وهذا ما بيّنه الدّكتور "عز الدّين النّاجح" في قوله : « فالصّيغ الصّرفية من اسم فاعل وأسماء التّفضيل والصّفة المشبّهة وصيغة المبالغة تؤكّد سلّميّة اللّغة ، فاسم الفاعل أقلّ تعبيرا عن المعنى من الصفة المشبّهة الّتي تدلّ على ملازمة الموصوف للصّفة، وصيغة المبالغة أقوى منهما لاحتوائها على مقولة العدد و الكثرة لذلك كانت عمليّة إنتاجها تقتضي زيادة خاصّة وذلك من خلال مقولة التضعيف والحركة الطّويلة . » [1] وهذا ما يوضّحه السّلّم الآتي :

فالانتقال من كاذب إلى كذوب، ومن كذوب إلى كذّاب في ما نرى، قد استدعته الوظيفة الحجاجيّة للغة، وبالتّالي رقيُّ وقع الكلمة من خلال موقعها في السّلم الحجاجي، إذ الانتقال من صيغة إلى أخرى، بما يقتضيه هذا الانتقال من زيادة ، وإنّما هو في الحقيقة انتقال من درجة إلى أخرى في السّلم .

كما أضاف الدكتور أنّ السلّمية لا تقوم على النظام الصّيغي فحسب ، بل تتجاوزه إلى نوعية الجموع في العربية (جمع القلّة، جمع الجمع، جمع الكثرة) وإلى أصناف الحركات قوّة وضعفا .[2]

[1]–عزالدّين النّاجح، العوامل الحجاجية في اللّغة العربيّة، ص 126

[2]–ينظر : نفسه، ص 126

إنّ سلّميّة النّظام الصّرفي تتحكّم فيه المفردة في حدّ ذاتها من خلال مستوى تكوّنها، إذ أنّ كل زيادة أو نقصان في الكلمة (الصّرافم) يتولّد عليها زيادة معنى جديد، فنجد كلمة كاتب المفردة في أسفل السلّم ومع زيادة الحركة الطويلة والنّون (كاتبان) ترتقي في السّلّم إلى المثنّى، وبالتّضعيف (كتّاب) تحصّلت على معنى أقوى ، لم تحققه كلمة كاتب أو كاتبان . ومن خلال ما تقدّم ذكره يمكننا القول أنّ السّلّميّة تتجلّى في:

1-الحجاج بالمبالغة :

«فالمبالغة أسلوب من أساليب اللغة العربيّة يؤتى به لتفخيم المعنى وتمكينه في نفس المتلقّي .... وهذا الأسلوب يشتمل على مجموعة من الصيغ الصّرفية الدّالة على المبالغة في الكلام وأشهرها : فعّال، فَعيل، فعلان، فَعول، مِفعال، فَعِل .»[1]

2-الحجاج بالتفضيل :

« تعتبر صيغ التّفضيل آلية من آليات الإقناع، و يسعى من خلالها إلى المقارنة بين المرغّب فيه والمرغّب عنه، وتثبيت ما يصبوا إليه في ذهن المتلقي ... هذا ما تطرّق له الدّرس الحجاجي الحديث في حديثه عن مفهوم حجّة المقارنة argument comparatifالّتي يعقد فيها المتكلّم مقارنة حجاجية بين أمريْن يريد تحقيق أحدهما في نفس المتلقّي .»[2]

و من أمثلة ذلك قول ثعلب :"لايصحّ الشعر ولا الغريب ولا القرآن إلّا بالنّحو .النّحو ميزان هذا كلّه .وقال : تعلّموا النّحو فإنّه أعلى المراتب" فالوظيفة الحجاجية تستدعي استخدام صيغة التّفضيل (أعلى) ؛ لأنّها شحنة حجاجية قويّة، فالمقام مقام استدلال . على أنّ النّحو ميزان ومعيار صحة كل من الشعر والغريب والقرآن ، وعليه وجب الانتقال بالصيغ كالآتي :[3]

[1]- بلحرش عبد الحليم، السّلّمية الحجاجية للكلمة في الحوار القرآني، ص 65

[2]- نفسه : ص 65

[3]- أسمهان سهل كاظم، محمد عبد مشكور الكعبي، السّلالم الحجاجيّة ومستوياتها، في كتب المجالس النّحويّة، ص 97

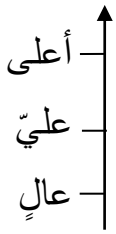

ج – سلّميّة التّركيب النّحوي :

إنّ التركيب النّحوي يوفّر تراتبية حجاجية للنّصوص حسب مقام الخطاب، فالتركيب الطّبيعي للجملة قد لا يستفزّ المتلقّي، أمّا خرق هذا الترتيب فلا يكون اعتباطيا بل تستوجبه حالة المتلقي من النص، أو قصديّة المتكلّم بجعل المتلقّي يلتفت إلى هذا الخرق من أجل الإذعان، وتتعدد أشكال الخرق في التّركيب، ومنها التّقديم والتّأخير و الحذف ... حتّى إن كان يبدو أمرا طبيعيا ، ولكنّه يبقى خرقا وليس التّركيب بمعزل عن المحيط العام للنّص، بل تتدخّل عوامل أخرى تسهم تحديد نمطيّة التركيب، منها السّياق ، المقام، المقاصد و الأهداف، طبيعة المتلقّي .[1] ونأخذ مثالا عن ذلك، قول أبي البقاء الرّندي في قصيدة " الفردوس المفقود " :

لمثلهذا يبكي القلب من كمدٍ * إنْ كان في القلب إسلامٌ وإيمانٌ.**

جملة جواب الشّرط جملة الشّرط

نجد في هذا القول تقديما وتأخيرا، بحيث قدّم جملة جواب الشّرط على جملة الشّرط وهذا دليل على اهتمام أبي البقاء الرّندي بالمقدَّم (جملة جواب الشّرط) من أجل تقوية حجاجه من خلال هذا الخرق الذي يجعل المتلقي يلتفت إليه، بالإضافة إلى حذف خبر "كان "وتأخير اسمها وجوبا في عجز البيت وتقدير الكلام : (إن كان إسلام وإيمان موجدين في القلب .)

[1]– ينظر : بلحرش عبد الحليم، السّلّمية الحجاجية للكلمة في الحوار القرآني ، ص 99–100

د – سلّميّة النظام البلاغي :

عرّف الدكتور "**عزالدّين النّاجح**" سلّمية النظام البلاغي قائلا بأنّها : **«**ما يوفّره المكوّن البلاغي للملفوظ من قيمة مضافة عبر تلوّنات جهازه ليحتلّ درجة مهمّة في السّلّم الحجاجي وبالتّالي يكون ذا طاقة جاجية تدفع المتقبّل إلى الإذعان والتسليم .**»**[1]

إنّ سلّمية النّظام البلاغي نستطيع إدراكها من خلال درجتي الخطاب (حقيقة / مجاز) والمجاز في حدّ ذاته قائم على التّراتبية وحسبنا دليلا أنواع التشبيه وأضرب الاستعارة وصروف الكنايات [2] فـ:(الحقيقة) في تراتبية التّأثير الحجاجي أضعف من المجاز الذي يمثّل رأس السلّم . ونستطيع تمثيل هذا المفهوم ووضعه في السلّم الآتي :

- مجاز (عليٌّ كثير الرّماد)
- حقيقة (عليٌّ كريم)

وكذلك التشبيه بتنوّع أضربه تتدرّج تراتبية التّأثير الحجاجي لكلّ نوع ويمكن وضعها ضمن السّلّم من الأضعف إلى الأقوى ، لنتحصّل على السّلّم الآتي :[3]

- التشبيه الضمني (يكون المشبّه والمشبه به ضمنيان يلمحان من التركيب)
- التشبيه البليغ (ما حذف فيه أداة التشبيه ووجه الشّبه)
- التشبيه التّمثيلي (إذا كان ووجه الشّبه فيه صورة منتزعة من متعدّد)
- التشبيه المقلوب (ما يكون المشّبه مشبّها به)
- التشبيه المجمل (ما حذف منه ووجه الشّبه)
- التشبيه المؤكّد (ما حذفت منه أداة التشبيه)
- التشبيه المفصّل(ما ذكر فيه ووجه الشّبه)
- التشبيه التّام (المستوفي لجميع أركانه)

[1]– عزالدّين النّاجح، العوامل الحجاجية في اللّغة العربيّة، ص 127

[2]–نفسه ص127

[3]– أسمهان سهل كاظم، محمد عبد مشكور الكعبي، السّلالم الحجاجيّة ومستوياتها، ص 98

إنّ معيار قراءتنا للتشبيه هو مدى خفاء المعنى وظهوره ؛« فالمعنى في التشبيه المفصّل مثلا أكثر جلاءً منه في التشبيه الضّمني أو التّمثيلي . وما الحجاج إلّا لعبة خفاء المعنى وظهوره ، وأنجعه ما كان فيه المعنى متراوح بين الظّهور والخفاء ».[1]

وشأن التشبيه كشأن الاستعارة، فهي على درجات من القوّة والضّعف، ونقصد بها الاستعارة الحجاجية، وهي التي تتم باستغلال المتكلم لوسائل لغوية قصد توجيه خطابه وتحقيق أهداف حجاجيّة [2]، وتتمثّل في إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقّي. وتقوم قوّة الاستعارة على عمليّة الاستنتاج، فالقول الاستعاري فائدته تزيد قوّة عن فائدة القول الحقيقي الّذي يوضّحه ويشرحه نحو قولنا : (ضحكت الشّمس) أبلغ فائدة من العبارة الّتي تفسّره (أشرقت الشّمس) .

وكذلك الكناية تعدّ من« مستويات البلاغة الحجاجية، فبدل أن تصرّح تكنّي، وينطبق عليها ما قلناه على الاستعارة .»[3] نحو قولنا(صخر كثير الرماد)أبلغ من قولنا:(صخر كريم)

وكذا الشّأن مع أصناف الخبر كما قسّمه القدامى إلى أصناف ثلاثة ؛« فالابتدائي وهو ما خلا من المؤكدات يقع في قاعدة السّلم في حين أنّ الخبر الطّلبي هو ما قام على مؤكد واحد، أمّا الخبر الإنكاري فهو ما قام على أكثر من مؤكدين.»[4] وعليه يمكن تمثيل تدرّجات الخبر ضمن السّلمية اللّغوية الحجاجية كالآتي :

- الإنكاري : والله لقد ضرب علي صالحا ضربا.
- الطّلبي : والله ضرب علي صالحا.
- الابتدائي : ضرب عليّ صالحا.

فالخبر الابتدائي يقع برتبة أقل من ناحية الطّاقة الحجاجية ؛ وهذا لعدم احتوائه على مؤكدات بسبب خلو ذهن المتلقّي، بينما الخبر الطّلبي هو أعلى رتبة منه، لتضمّنه على

[1]–عز الدّين النّاجح، العوامل الحجاجية في اللّغة العربية ، ص 128

[2]– ينظر أبو بكر العزّاوي، اللغة والحجاج ، ص 108

[3]– أسمهان سهل كاظم، محمد عبد مشكور الكعبي، السّلالم الحجاجيّة ومستوياتها، ص 99

[4]– عز الدّين النّاجح، العوامل الحجاجية في اللّغة العربية ، ص129

مؤكّدّ واحد، نتيجة إجابة عن سؤال سائل تأكيدا للخبر. أمّا الخبر الإنكاري فقد احتلّ قمّة السلّم بسبب قيامه على مؤكّدين أو أكثر نتيجة لإنكار المخاطب أو مبالغته في الإنكار .

وصفوة القول إنّ سلّميّة اللّغة مبثوثة في جميع أنظمتها ومستوياتها (المعجمية الصّرفية، البلاغية، والتركيبية النحوية) إذ يكمّل بعضها البعض، ولاسيما إذا أضيف عامل المقام، أو وضعيات الخطاب ، فإنّها تساعدنا على اكتشاف هذه السّلّميّة علاوة على ما صرّح به "أنسكومبر" و"ديكرو" من أنّ الوظيفة الأوليّة للغة هي الوظيفة الحجاجية، ويقتضي إظهار هذه الوظيفة أن تكون اللّغة سلّميّة تراتبية كما تتفاضل الأقوال وتتمايز نجاعتها في استمالة المتلقّي وضمان تسليمه.

خامسا- قوانين السّلّم الحجاجي :

يخضع السّلّم الحجاجي لقوانين ثلاثة وهي : قانون النّفي، قانون القلب، و قانون الخفض .

أ- **قانون النفي (تبديل السّلّم):**

جوهر هذا القانون يقوم على مبدإ النّقيض ومقتضاه أي : **«**أنّه إذا كان القول دليلا على مدلول معيّن، فإنّ نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله .**»**[1] ؛ معنى ذلك أنّ أيّ قول يؤدّي إلى نتيجة معيّنة فإنّ نقيضه (نفيه) يؤدّي إلى نتيجة مضادّة مثل :

-عليٌّ كريم، فهو يساعد المحتاجين

- عليٌّ ليس كريما، فهولا يساعد المحتاجين

فقبولنا للحجاج الوارد في المثال الأوّل يستلزم علينا قبول الحجاج في المثال الثّاني.

ب- قانون القلب :

يعتمد هذا القانون على القلب كمبدإ في ترتيب الحجج ومقتضى هذا القانون :**«** إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التدليل على مدلول معيّن، فإنّ نقيض الثّاني أقوى من

[1]- طه عبد الرّحمان، اللّسان والميزان أو التّكوثر العقلي، ص278

نقيض الأوّل في التّدليل على نقيض المدلول.»[1] ؛ معنى ذلك أنّ الأقوال المنفيّة في سلّم حجاجيّ ما هي عكس الأوّل المثبتة في السلّم الحجاجي الآخر .

-حصل زيد على الماجستير، وحتى الدكتوراه

- لم يحصل زيد على الدّكتوراه، بل لم يحصل زيد على الماجستير .

إنّ حصول زيد على شهادة الدّكتوراه(ق2) أقوى دليل على مكانته العلمية (ن) من الحصول على الماجستير(ق1) في حين أنّ النّقيض عدم حصوله على الماجستير(قَ2) هو الحجّة الأقوى على عدم كفاءته العلميّة من عدم حصوله على الدّكتوراه(قَ1) [2]. ويمكننا تمثيل ذلك:

(ن) زيد ذو كفاءة علمية — (ن) ليس لزيد كفاءة علمية

(ق1) حصول زيد على الدّكتوراه — (قَ1) عدم حصول زيد على الماجستير

(ق2) حصول زيد على الماجستير — (قَ2) عدم حصول زيد على الدّكتوراه

ج- قانون الخفض :

« مقتضى هذا القانون في أنّه إذا صدق القول في مراتب معيّنة من السّلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها.»[3] ويوضح هذا القانون الفكرة التي ترى أنّ النفي اللغوي الوصفي يكون مساويا للعبارة ""Moins que فعندما نستعمل جملا من قبيل.[4]

-الجو ليس باردا

- لم يحضر كثير من الأصدقاء إلى الحفل

ففي المثاليين تمّ استبعاد بعض التّأويلات، التي هي من قبيل أن البرد قارص أو شديد البرودة وأنّ الأصدقاء كلّهم حضروا إلى الحفل، ويتم تأويل الجملتين على النّحو الآتي:[5]

---

[1]- طه عبد الرّحمان، اللّسان والميزان أو التّكوثر العقلي، ص278

[2]- ينظر:أبو بكر العزّاوي ، اللغة والحجاج، ص 23

[3]- أبو بكر العزّاوي ، اللغة والحجاج، ص 277

[4]- نفسه : ص 24

[5]- نفسه، ص24

-إذا لم يكن الجو باردا، فهو دافئ أو حار .

-لم يحضر إلا القليل منهم إلى الحفل .

وتتجلى صعوبة صياغة هذه الوقائع في أنّ الخفض الذي ينتج عن النّفي لا يتموقع في السّلم الحجاجي، فلا تندرج الأقوال الإثباتيّة من نمط : (الجوّ بارد) والأقوال المنفيّة من نمط : (ليس الجو باردا) في الفئة الحجاجيّة نفسها ولا في السّلم الحجاجي نفسه .

سادسا: أنواع السّلالم الحجاجيّة :

تبنى التّراتبية السلّمية على حجج تأخذ طريقها الإقناعي، إمّا صعودا وإماّ نزولا وإمّا تراكمِيّا بحسب نوع المخاطب والموضوع المحتجّ فيه؛ لذلك وجب على المتكلّم أن يرتّب حججه وفق سلّم حجاجي، بصورة تسلسلية موجّهة بهدف تحقيق الإقناع الّذي يمثّل لبّ العمليّة الحجاجية.

ويتخّذ ذلك التسلسل الصّور الآتيّة :

أ- **<u>سلّم الحجج التّصاعدية</u>** :

في هذا النّمط تتخذ الحُجج مسارا تصاعديا، «إذ يبدأ منشيء الخطاب بإيراد الحجّة الضعيفة، ثمّ الحجة القويّة، ثمّ الحجّة الأقوى، وتتخذ الحجج وضعا خاصا يمكن أنّ يصنف على أنّه نوع من المؤكدات في الخطاب ؛ لأنّ المحاجج حين يستعمل هذا النّوع من الحجاج فإنّه يسعى إلى ترسيخ دلالة كلّ حجّة في ذهن المتلقي، ما يصعب عليه تجاهلها أو نسيانها»[1]، وبما أنّ الحجاج ينطلق من أسفل السّلم «فغالبا ما تكون الحجّة الأولى المطروحة في الخطاب مهيأة للمتلقي ومحفزّة لذهنه على التّواصل والمتابعة لما سيأتي بصورة تصاعديّة وفق قوّتها لاستمالة المتلقي وإذعانه .»[2] ومثال ذلك :

[1]-عايد جدوع حنون، صلاح جباري شناوة العبودي، السلالم الحجاجية في شعر أحمد الوائلي، مجلة أوروك -العراق ، جامعة المتنى كلية العلوم الإسلاميّة ، 2016م، العدد 2، المجلد 9، ص83

[2]- مزاحم مطر حسين، مروة حسام كاظم، السلالم الحجاجيّة في كلام الإمام حسن عليه السلام، مجلة كلية التّربية الأساسية للعلوم التّربويّة الإنسانيّة -العراق، جامعة بابل، 2018م، العدد 41 ، ص 1091

ق3 أحمد شوقي أمير الشّعراء.
ق2 أحمد شوقي فاق شعراء عصره .
ق1 أحمد شوقي ليس شاعرا عاديا .

نلحظ من خلال هذا المثال أنّ الحجّة الأولى تمثل إخبارا بأنّ أحمد شوقي ليس شاعرا عاديا، ولتتأكد هذه الحجّة يعمد منشيء الخطاب إلى تعزيزها، وتأكيدها بحجّة ثانية، وهي التي تثبت سمة التّصاعديّة لأنّها أقوى من الحجّة الأولى، ثمّ بحجّة ثالثة وهي الأقوى من الثّانية .

ب-سلّم الحجج التّنازليّة :

في هذا النّمط تتخذ الحُجج مسارا تنازليا عكس النّمط الأول ، « وهو حجاجٌ من الأقوى إلى الأضعف تترتّب فيه الحُجج تنازليا، وتكتسي نجاعةً حجاجيّة أكبر عند توجيهه إلى المتلقّي الشّاك أو الجاحد الّذي لا ينفع معه الحجج الضّعيفة في بداية الخطاب . »[1]

فالمتكلّم يأخذ دور المدافع وفق هذا النّمط بدل أن يكون موجّه الخطاب، ويلجأ إليه عندما يريد تقييد المتلقّي وحجم باب النّقاش عليه، ليدفعه لطريق القبول والاستسلام وخاصة إذا كان المتلقي خصما أو من النوع الجاحد أو الشاك الّذي لا تجدي معه البدايات بالحجج الضّعيفة . ومثال ذلك :

(ن) محمّد كريم

ق1 محمّد يكرم أعداءه
ق2 محمّد يكرم جيرانه
ق3 – محمّد يكرم إخوته

«والحجاج طبقا لهذا القانون يمثّل استراتجية خطابيّة، فالمتلقّي إذا أذعن للحجّة الأقوى أصبح من اليسير أن يسلّم للحجّة الأقلّ قوّة، ثمّ التّسليم للحجّة الأقل.»[2]

[1]– عبد العالي قادا ، الحجاج في الخطاب السّياسي، دار كنوز المعرفة – عمّان الأردن، ط1 – 2015م، ص 373

[2]– نفسه : ص 373

ج- سلّم الحجج التّراكميّة :

يُعرّف هذا النّمط من الحجاج أنّه الخطاب :«الّذي تعدّد فيه الحجج وتتراكم دون مراعاة التّفاوت الحاصل في القوّة التّدليليّة لتلك الحجج، فكلّ حجّة تكون أقوى وأكثر فعاليّة في اللّحظة الّتي تستعمل فيها ، وهو أكثر عفوية، وتلقائيّة من النّوعين السّابقين .»[1] ؛أي أنّ الحجج المنتمية لهذا النّوع من السّلالم تزدحم متخّذة نوعا من الاستقلال لكلّ حجّة واردة في الخطاب والدّليل على ذلك أنّ نقض أي حجّة من الحجج الواردة في الخطاب لا يستلزم نقض الحجّة الّتي تقع في مرتبة أعلى، أو أسفل منها [2] .

سابعا- وسائل السّلم الحجاجي :

أ-الوسائل اللغويّة : وتتمثل في الرّوابط الحجاجيّة والعوامل الحجاجيّة :

أ-1 - الرّوابط الحجاجية :

لقد اهتمّ "ديكروDucrotOswald" و"انسكومبرAnscomber" ببعض المؤشّرات اللّغوية الّتي تقوم بترتيب الحجج وتنظيمها والرّبط بينها، ومن ثمّ ترسيخها في ذهن المتلقّي وقيادته إلى الوجهة الّتي يرومها المتكلّم هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهي تحقق الانسجام والتماسك النّصي .

وتعرّف الرّوابط الحجاجية بـ: «مكوّنات لغوية تداولية تربط بين قولَيْن (أو أكثر) داخلَيْن في استراتيجية حجاجية واحدة ، بحيث تسمح بالرّبط بين المتغيّرات الحجاجيّة. »[3] أي أنها تربط بين حجّة ونتيجة أو بين مجموعة من الحجج، في إطار سياق كلامي واحد .وتكمن القيمة الحجاجيّة لهذه الرّوابط في أنّها تضطلع بدورين : «الرّبط الحجاجي بين

[1]- عبد العالي قادا ، الحجاج في الخطاب السّياسي، ص 374

[2]- ينظر : عايد جدوع حنون، صلاح جباري شناوة العبودي، السلالم الحجاجية في شعر أحمد الوائلي، ، ص 86

[3]-عبد اللّطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة ، ص 100

قضيّتين، وترتيب درجتها بوصف هذه القضايا حججا في الخطاب .»[1]و من هذه الرّوابط بحسب تقسيم أبو بكر العزاوي ما يلي :[2]

- الروابط المدرجة للحجج (حتى، بل، لكن، مع ذلك، لأنّ ...) .
- الرّوابط المدرجة للنتائج (إذن ، لهذا، وبالتّالي ...).
- الرّوابط التي تدرج حججا قويّة (حتى، بل، لكن، لا سيما...).
- روابط التّعارض الحجاجي (بل، لكن، مع ذلك ...).
- روابط التّساوق الحجاجي (حتى، لاسيما ...) .

أ-2-العوامل الحجاجيّة :

« إنّ العوامل الحجاجيّة لا تربط بين متغيّرات حجاجيّة (أي بين حجّة ونتيجة أو بين مجموعة حجج)، ولكنّها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما . وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل : ربما، تقريبا ، كاد ، قليلا ، كثيرا، ما ... إلّا، وجل أدوات القصر .»[3]

ويعرّف "ديكرو DucrotOswald" و "انسكومبر Anscomber " العامل الحجاجي بقولهما : «إنّ وجود بعض الصّرافم في بعض الجمل يعطيها توجيها حجاجيّا ...، للوصول إلى نتيجة محدّدة دون غيرها »[4]

والعوامل الحجاجيّة في طبيعتها عبارة عن : «عناصر لغوية إسنادية نحوية أو معجميّة تربط بين مكوّنات القول الواحد كالحصر، والنّفي، والشّرط ... »[5]. إذن فالعامل الحجاجي له وظيفتان فرعيّتان هما الحصر والتّحويل و اللّتان تتكاملان مع بعضهما لتحقيق الوظيفة الأسمى وهي (الوظيفة الحجاجية).

---

[1]- عبد الهادي بن ظار الشّهري، استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداوليّة، ص 508

[2]_ أبو بكر العزاوي اللغة، والحجاج، ص30

[3]- نفسه : ص 27

[4]- عز الدّين النّاجح، العوامل الحجاجية في اللّغة العربيّة، ص 32

[5] - عبد اللّطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة ، ص 100

ممّا سبق ذكره نستنتج أنّ أهم العوامل الحجاجيّة الّتي توجّه الحجّة نحو النّتيجة المراد الوصول إليها في : عامليّة النّفي (لن، لم، لا، ما، لمّا ..) ، عاملية الادوات القصر والاستثناء(إنّما، ما...إلاّ..، ليس ...إلّا) وعامليّة الشّرط بأدواته المعروفة مثل: (إذا، إنْ..)

ب-الوسائل المنطقية والشّبه منطقيّة :

ونذكر منها : [1]

1-التّعدية :

هي ترتيب الأشياء في سلّم، بعقد العلاقة بينها، رغم عدم وجود هذه العلاقة قبل التلفّظ بالخطاب . وتتمثّل التّعدية في :

أفعل التفضيل ، القياس الضمني ، صيغ المبالغة ، فحوى الخطاب وحجّة الدّليل .

وخلاصة القول إنّ مفهوم السّلم الحجاجي في الخطاب من حيث تركيزه على مبدإ التّدرج في توجيه الحجج يبين أن المحاجة اللغوية لا ترتبط بالمحتوى وإحالة هذا المحتوى على مرجع محدد بل هي رهينة القوة والضعف الذي ينفي عنها الخضوع لمنطق الصدق والكذب ، ومما تجدر الإشارة إليه أن المتكلمين يختلفون في بناء منظومة السلالم إذ أنها متسمة بالخصوصية والذّاتية، فالبعض يبنيها تصاعديا والبعض الآخر يبنيها تنازليا، أو تراكميا حسب السياق وموقف المحاجج، وتخضع نظرية السّلم الحجاجي عند ديكرو إلى قانوني النفي والقلب، فالأول يعني أن نفي حجة الرأي الأول هي حجة الرّأي المخالف، وأما الثّاني فيعني كون السّلم الحجاجي للأقوال المثبتة هو عكس السّلم الحجاجي للأقوال المنفية وفي السّلّم الحجاجي تتزاحم الكلمات وتتدافع الحجج في ترتيبها، وتتباين الفروق اللّغوية فيما بينها في مستويات مختلفة كـ:المعجمية، الصّرفية و البلاغية والتّركيبية. وترتبط الحجج في السّلم الحجاجي بروابط وعوامل حجاجيّة .

[1]-عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب ، ص526 -538 .

الفصل الثّالث :

سلالم الموضوعات المطلقة (العامّة) في السّور المسبحات

توطئة

أولا : التسبيح والسور المسبحات

ثانيا : تراتبيّة المعاني العامّة وتطبيقاتها في السّور المسبحات

1 : تراتبيّة السّور المسبحات في المصحف الشّريف وفق الترتيب الاشتقاقي لصيغة " التّسبيح "

2 : تراتبية مواطن التّسبيح في السّور المسبحات .

3 : تراتبيّة سلالم الموضوعات في السّور المسبحات .

4 : تراتبيّة الحوار الحجاجي في السّور المسبحات .

5 : تراتبيّة أسماء الله الحسنى في السّور المسبحات

توطئة

القرآن الكريم أحسن الحديث، وأجود الكلام، ذو نظم بديع وأسلوب فريد ومقاله يسبق مقامه، كما يزخر خطابُه باللّغة الحجاجيّة بفضل تعدّد موضوعاته وتنوّع المخاطبين فيه . حيث تتفاعل معه العقول والمشاعر الّتي تتجدّد باستجابة المتلقّي عبر الأزمنة والأمكنة المختلفة . و أهمّ ما يميّز الخطاب القرآني خصّيصة التّجدّد مع الزّمن ؛ حيث إنّ آياته مازالت غضّة طريّة كأنّها وليدة الحاضر، ما يستدعي إلى التدبّر والتحرّي في إعجازه، وعليه فقد كان ومازال هذا الخطاب مصدرا خصبا للدّراسة والبحث .

فقد وصف القرآن بأنّ فيه « ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضاً وخانات فالميمات ميادين القرآن والرّاءات بساتين القرآن والحاءات مقاصيره والمسبّحات عرائس القرآن والحاميمات ديابيج القرآن والمفصّل رياضه والخانات ما سوى ذلك فإذا دخل القارىء الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيج وتنزه في الرّياض وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفرّق فكره»[1] .

و قد اقتصرت دراستنا هذه على عرائس القرآن ؛ وهي سور تُستهل بالتّسبيح بصيغ مختلفة : (سبحان، سبّحَ، يسبِّحُ، سبِّحْ) والّتي تسمّى **بالمسبّحات** . واختلف العلماء في عددها، حيث انقسموا إلى ثلاثة أقسام : قسم يرى أنّها سبع سور، وآخر يرى أنّها ستٌّ سور، وقسم يرى أنّها خمسُ سور، فالّذي جعلها سبع سور أدخل كلّ صيغ التّسبيح (المصدر، الماضي ، المضارع، الأمر) و هذه السّور هي : (الإسراء، الحديد، الحشر الصفّ، الجمعة ، التّغابن، الأعلى) وهو ما يوافق رأي الزّركشي(794هـ)[2]، والّذي جعلها ست سور استثنى منها الإسراء، وهذا ما ورد في كتاب ضعيف التّرغيب والتّرهيب في ذكر حديث المسبحات «قال معاوية – يعني ابن صالح– : إن بعض أهل العلم كانوا يجعلون المسبحات

[1]-أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطّوسي، إحياء علوم الدّين، دار المعرفة – بيروت، دط –1431هـ ، (282/1)

[2]– ينظر: الزركشي، بدر الدّين، محمد بن عبد اللّه، البرهان في علوم القرآن، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث – القاهرة، دط – دت، (1/ 165)

ستاً: سورة الحديد، الحشر، الحواريين [الصف]، سورة الجمعة، التغابن و سبح اسم ربك الأعلى . »[1]

أمّا الّذي جعلها خمس سور فقد أخرج الإسراء والأعلى منها، وهو ما يوافق رأي القرطبي، ذلك في قوله :«يَعْنِي بِالْمُسَبِّحَاتِ (الْحَدِيدَ) وَ (الْحَشْرَ) وَ (الصَّفَّ) وَ (الْجُمُعَةَ) وَ (التغابن) »[2]

وفي خضم هذا المدّ والجزر، مال أغلب العلماء إلى أنّ المسبّحات سبع سور، وذلك في روايتهم لحديث فضل المسبّحات ؛ فالتّسبيح في سورة الإسراء " سبحان " على صيغة المصدر يدل على فعل غير محدد الزمن ، ثم تأكد تحديد الزّمن بالماضي " سبّحَ " في كل من سورة الحديد والحشر والصّف، و " يسبّح " بالمضارع في سورتي الجمعة والتغابن وبالأمر " سبّح " في سورة الأعلى، فهذا تسبيح متواصل في جميع الأوقات، وكلّ شيء في هذا الكون يسبح لله ﷻ لقوله تعالى :﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾[الإسراء 44]

فَلِمَ لا تكون سور المسبّحات سبعا ؟ فكلّ واحدة منها افتُتحت بما يحثّ على التسبيح: المصدر والفعل بدلالاته الزمنية الثلاث، وهذا دليل على أهميّة تّسبيح الخالق وتمجيد عظمته، وتنزيهه عن كلّ سوء في كلّ حين .فمعنى التّسبيح إذن ؟

أولا : التّسبيح والسّور المسبحات :

1- تعريف التسبيح:

أ- **في اللّغة** : «السّبح : المر السّريع في الماء أو في الهواء ، يقال : سبحَ سبْحا وسباحةً واستعير لمر النّجوم في الفلك نحو قوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأنبياء 33] ولجري الفرس نحو قوله تعالى :﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ ﴾[النازعات: 3] .

---

[1]-محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف التّرغيب والتّرهيب، مكتبة المعارف للنشر والتّوزيع – الرياض، ط1- 2000م (178/1)

[2]-أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح : أحمد البردوني و إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2 -1964، (235/17)

ولسرعة الذّهاب في العمل نحو قوله تعالى:﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ ﴾[المزمل: 7] . و**التّسبيح** : تنزيه الله تعالى وأصله المَرُّ السّريع في عبادة الله تعالى، وجعل ذلك في فعل الخير كما جعل الإبعاد في الشّر فقيل : أبعده الله وجعل التّسبيح عاما في العبادات قولا كان أو فعلا أو نيّة، قال تعالى :﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ ﴾[الصافات: 143]، قيل من المصلين والأولى أنْ يُحمل على ثلاثتها، قال: ﴿ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ ﴾ [البقرة: 30] ».[1]

كما أنّها تأتي بمعنى التّعجب ؛ فالعرب تقول : سبحان من كذا، إذ تعجبت منه .[2]

ب- اصطلاحا : « هو تنزيه الحقّ عن نقائص الإمكان والحدوث »[3]

2- فضل المسبحات :

لا يخفى على المسلم أنّ فضل المسبحات من فضل القرآن الكريم، كونها من تقسيماته وقد رُوي من الأحاديث ما يبين ذلك فمنه :عن العِرباض بن سارية رضي الله عنه:أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يقرأ المسبَّحات قبل أن يَرْقُدَ، يقول: **«إنَّ فيهن آيةً خيرٌ من أَلفِ آيةٍ»**. رواه أبو داود، والترمذي [4] .

3- استهلال السّور المسبحات بالتّسبيح وعلاقته بالتّسمية والمضمون:

كل سورة من سور المسبحات استهلت بالتّسبيح، فما علاقة ذلك باسم السّورة ومضمونها؟

فلننظر أولاً إلى سورة الإسراء حيث يقول تعالى ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ ﴾[الإسراء: 1]، فمن أسرى بعبده ؟ إنّه الله أسرى به في رحلة تُعدُّ آية من آياته، ومعجزة من معجزاته ، فهي غير ما أَلِفَه العرب في رحلاتهم ؛حيث كانت في لحظة من الزّمن، رأى

---

[1]- الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تح : عدنان صفوان داوودي ، دار القلم – دمشق، الدّار الشّلمية – بيروت ، ط 4 –2009م، ص 392، مادة (سبح)

[2]- ابن منظور، لسان العرب، (470/2، 471)

[3]- الشّريف الجرجاني علي بن محمد، معجم التّعريفات، تح : محمد الصّديق المنشاوي، دار الفضيلة – القاهرة، د ط – د ت، ص 52، باب التّاء مع السين

[4]- محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف التّرغيب والتّرهيب، (178/1)

فيها الرّسول ﷺ ما رأى، واصفا الأقصى بدقة متناهية، ألا يستحق – سبحانه وتعالى– هذا التّسبيح والتّمجيد والتّعظيم ؟ بلى، « فأن تبدأ السّورة بالتّسبيح أليق حركة نفسية تتسق مع جو الإسراء اللطيف، وأليق صلة بين العبد وربّه »[1] وسورة الحديد التي قال الله فيها :﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: 25] هذا هو الحديد جعله الله رادعا لمن أبى الحقّ، ففيه السّيوف والحراب ونحوها، ومن جهة أخرى جعل الله فيه منافع من آلات يستعين بها النّاس في معاشهم [2]، فمن أوجد الحديد على هذه الصّورة وعلّم الإنسان الانتفاع الدّائم منه بصناعة الآلات والأسلحة الحديثة المتجددة، ألا يستحقُّ تسبيحا دائمًا على هذه النّعمة من القوة والشّدة ؟

وفي سورة الحشر يقول سبحانه وتعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ ﴾[الحشر: 2]، إنّ إخراج اليهود من ديارهم وإعطاءها للمسلمين المسبحين لم يكن متوقعًا من المسلمين، ومن اليهود الذين ظنوا حصونهم مانعتهم كما جاء في الآية[3] ، « وهذا الحشر الذي يعني أول حشرهم إلى الشّام ، وقيل آخر حشرهم حشر يوم القيامة ؛لأنّ المحشر يكون في الشّام »[4]. فهذا حشر لليهود وإخراجهم من أرض الإسلام جزاء فسادهم ونصر للمسلمين أثناء قيام دولتهم ،ألا يستحق تسبيح اللّه وتعظيمه سبحانه وتعالى ؟.

وفي سورة الصّف يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصف: 4]، فهذا « إخبار من الله تعالى بمحبة عباده المؤمنين، إذا صفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى يقاتلون من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه الظّاهر على سائر الأديان »[5]، فهذه المحبة من الله وهذا الاصطفاف

---

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشّروق – القاهرة، بيروت، ط32 – 2003 م، مج 4 (2211/15)

[2]- ينظر :ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، تح :حكمت بن بشير ياسين، دار ابن الجوزي – السعودية، ط1 –1431 هـ (188/7)

[3]- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، (216/7)

[4]-أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، دار المعرفة –بيروت ، لبنان، ط3–2009م (1092/28)

[5]- السّابق، (264/7)

كبنيان يشدّ بعضه بعضًا، والذي يعلي كلمة الله ، ويوحد كلمة المسلمين، ويرفع من شأنهم ألا يستحق كلّ ذلك تسبيحًا وتمجيدًا وتعظيمًا لله على هذه المحبة والنّعمة ؟ .

وهناك نوع آخر من الاصطفاف في صلاة الجمعة، فيقول الله تعالى في سورة الجمعة:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ ﴾[الجمعة: 9] ، فهذا سعي إلى ذكر الله، وترك للبيع فيه فرصة لاتصال المسلم بربه وراحة للنّفس من عناء العمل ، فهذه الدعوة فيها « التّوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي » [1].

فهذا اليوم العظيم الذي ميّز الله به المسلمين عن سائر الأمم في أداء صلاتهم مجتمعين مصطفين ، وكذلك هذا التّوازن يستحقّ تسبيح الله وتعظيمه. وفي سورة التّغابن يقول الله تعالى :﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ ﴾ [التغابن: 9]

فهذا يوم الجمع « وهو يوم القيامة سمي بذلك، لأنّه يُجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الدّاعي، وينفذهم البصر » [2]وهو يوم التّغابن وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنّعيم، وحرمان الكافرين من كلّ شيء منه ثُمّ صيرورتهم إلى الجحيم... وكأنّما كان هناك سباق ففاز فيه المؤمنون، وهُزم الكافرون [3]، فأمام هذا المشهد العظيم في يوم الجمع والتّغابن لا يملك الإنسان إلّا أن يسبّح لله ممجّدًا قدرة الله وعظمته .

وفي سورة "الأعلى " يقول الله تعالى :﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ ﴾[الأعلى: 1-2] فهذا خلق فيه بديع الصّنعة ودقتها ؛ فهو خلق الله الأعلى ، « والأعلى صفة تطلق التّطلع إلى الآفاق التي تتناهى ، وتطلق الرّوح لتسبح وتسبح إلى غير مدى وتتناسق مع التّمجيد والتّنزيه، وهو في صميم الشّعور بصفة الأعلى »[4].

فكلّ هذه السّور تناسقت أسماؤها مع مضمونها واستهلالها بالتّسبيح وانسجمت موضوعاتُها مع دلالة التّسبيح، فكل اسم منها يستحق تسبيحًا وتنزيهًا وتمجيدًا يتردد في الفضاء الرّحب ، ينبعث من صميم الشّعور بجلال الله، وعظيم قدرته، فسبحانه جلّ شأنه .

---

[1]-سيد قطب، في ظلال القرآن مج 6 (3570/28)

[2]- نفسه :(291/7)

[3]-ينظر:سيد قطب، في ظلال القرآن مج 6 (3588/28)

[4]-نفسه: مج 6 (3883/30)

4- بين يدي السّور المسبحات :

4-1-التّعريف بسورة الإسراء :

سورة مكيّة كلّها، وقيل مكيّة إلا خمس آيات ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾[الإسراء: 26] والآية﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾[الإسراء: 32] والآية﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ﴾[الإسراء: 33]. والآية ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾[الإسراء: 57] ، والآية ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[الإسراء: 78] وقيل مكيّة إلّا ثماني آياتٍ : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ [الإسراء: 73] إلى قوله :﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾[الإسراء: 80] .[1]

أمّاعدد آيها : مائة وإحدى عشرة آية. و **سميت** السّورة بـ "الإسراء " لذكر معجزة الإسراء التي خصّ الله بها نبيه الكريم[2].

سبب النزول :

ولقد ارتبط سبب النّزول بمعجزة الإسراء ؛ وهي إسراء النّبيﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثمّ عروجه إلى السّماء، «وكان ذلك بمكة، صلّى المغرب في المسجد الحرام ثمّ أُسري به في ليلته ثمّ رجع وصلّى الصّبح في المسجد الحرام »[3]. ولقد ورد هذا الأمر صريحا في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾[الإسراء: 1] .

موضوعاتها :

تهتم سورة الإسراء بشؤون العقيدة، شأنها كشأن سائر السور المكيّة، من العناية بأصول الدّين (الوحدانية، والرّسالة، والبعث) ولكنّ العنصر البارز في هذه السّورة الكريمة هو شخصيّة الرّسول ﷺ، وما أيّده الله به من المعجزات الباهرة، والحجج القاطعة الدّالة على صدقه عليه الصّلاة والسّلام، وتعرضت السّورة أيضا إلى بعض الآداب الاجتماعيّة وتحدثت عن ضلالات المشركين .[4]

---

[1]-ينظر : أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المرتضى – بيروت ، لبنان، ط1- 2006م ، (6/ 162)

[2]-محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، دار الفكر – بيروت لبنان، دط -2001م، (139/2)

[3]-أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ، (6/ 163)

[4]- ينظر : السابق، (2/ 138)

4-2- التعريف بسورة الحديد :

لقد أجمع جمهور المفسرين على أنّ سورة الحديد من السّور المدينة، ولكن نجد ابن عاشور ذكر أنّ في ذلك اختلافا قويّا، ورجّح أنّ صدرها مكي وهذا ما يوافق رأي ابن عطيّة وأنّ ذلك ينتهي إلى قوله :﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٩ ﴾[الحديد: 9] وأنّ ما بعد ذلك بعضه نزل بالمدينة كما تقتضيه معانيه مثل حكاية أقوال المنافقين، وبعضه نزل بمكة مثل آية ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾[الحديد: 16].[1]

أمّا عدد آيها : تسع وعشرون آية **وسميت** السّورة " سورة الحديد " لذكر الحديد فيها، وهو قوة الإنسان في السّلم والحرب، وعدّتّه في البنيان والعمران، فمن الحديد تبنى الجسور الضخمة وتشاد العمائر وتصنع الدّروع والسّيوف والرّماح، وتكون الدّبابات والغوّاصات ...إلى غير ما هنالك من منافع .[2]

سبب النّزول :

ورد في سبب نزول قوله تبارك وتعالى:﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾[الحديد: 16] .ما رواه سعد بن أبي وقّاص – رضي الله عنه – قال: « أُنزل القرآنُ على رسولِ اللهِ، فتلا عليهم زمانًا، فقالوا : يا رسولَ اللهِ لو قصصتَ علينا، فأنزل اللهُ تبارك وتعالى :﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾إلى قولِه:﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ﴾[يوسف : 1-3] فتلا عليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم زمانًا، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ! لو حدَّثْتَنا، فأنزل اللهُ : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا ﴾[الزمر : 23]، كلُّ ذلك يُؤمَرُونَ بالقرآنِ . قال خلادٌ : وزاد [ني] فيه آخرُ قالوا : يا رسولَ اللهِ ! ذكِّرْنا، فأنزل اللهُ ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: 16] [صحيح الموارد ا خلاصة حكم المحدث: صحيح][3].

---

[1]- ينظر : محمد الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، الدّار التونسيّة للنشر– تونس، دط –1984م ، (353/27 ، 354)

[2]- محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، دار القرآن الكريم – بيروت، ط 4– 1981، مج 3، (319/27)

[3]-سورة–الحديد–وسبب–نزولها–وفضلها–مع–التفسير، –https://read.opensooq.com 4مارس 2023م، 18:04

موضوعاتها : [1]

تتناول كل سور القرآن الكريم موضوعا واحدا أو عدّة مواضيع ، و سورة الحديد تناولت تلاثة مواضيع مفادها :

- أنّ الكون كلّه لله جلّ وعلا، وهو خالقه ومبدعه، والمتصرّف فيه بما يشاء
- وجوب التّضحية بالنّفس والنّفيس لإعزاز دين الله، ورفع منارة الإسلام .
- تصوير حقيقة الدّنيا بما فيها من بهرج ومتاعٍ خادع حتى لا يغترّ بها الإنسان .

4-3-التّعريف بسورة الحشر :

وهي سورة مدنيّة **عدد آياتها** أربع وعشرون آية بالاتفاق على رأي ابن عاشور. واشتهرت **تسميتها** بسورة الحشر، وبهذا الاسم دعاها النبي ﷺ، وكان ابن عباس يسميها بـ "سورة بني نضير "، فأمّا وجه تسميتها بـ " الحشر " فلوقوع لفظ " الحشر" فيها ولكونها ذكر فيها حشر بني نظير من ديارهم .أمّا وجه تسميتها " سورة بني نضير " فلأنّ قصة بني النّضير ذُكرت فيها .[2]

سبب النّزول :

لما نقض اليهود " بنو نضير " العهد مع رسول الله ﷺ حاصرهم ﷺ وأمر بقطع نخيلهم وإحراقه إهانة لهم وإرعابًا لقلوبهم، فقالوا يا محمد : ألست تزعم أنّك نبي؟ وأنّك تنهى عن الفساد؟ فما بالك تأمر بقطع الأشجار وتحريقها ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾[الحشر : 5] [3]

موضوعها :

المحور الرئيس الذي تدور حوله السّورة الكريمة هو الحديث عن غزوة "بني النضير" كما ذكرت السّورة بعض آثار قدرته ومظاهر عزّته بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم وتناولت أيضا موضوع الفيء والغنيمة، فبينت شروطه وأحكامه، كما نوهت بفضائل المهاجرين ومآثر الأنصار .[4]

---

[1]- محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير ، مج3(27/ 318)

[2]- ينظر : محمد الطّاهر بن عاشور، التحرير والتّنوير ، (63/28)

[3]-السّابق، مج3(347/28)

[4]-ينظر : محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير ، مج3 (346/28)

4-4-التّعريف بسورة الصّف :

«وتسمى سورة الحواريين، وسورة عيسى عليه السلام، وهي سورة مدنية، **عدد آياتها** أربع عشرة آية .»[1] ووجه **التسمية** لورود لفظ« " صفًّا " فيها وهو صف القتال ».[2]

سبب النّزول :

لقد ورد في كتاب أسباب النّزول سبب نزولٍ لسورة الصّفّ بأكملها، وهو ذاته سبب نزول الآية الأولى منها وإلى الآخر حسب قول المفسرين.

حيث جاء في الحديثِ الشّريف عن عبد الله بن سلامٍ –رضي الله عنه– أنّ مجموعةً من أصحاب رسول الله –رضوان الله عليهم– كانوا جالسينَ عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فسألوه عن أحبِّ الأعمالِ إلى الله تعالى، فنزَلَ قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ ﴾[الصف: 1] . فتلاها النّبيّ ﷺ إلى آخر السورة .[3]

أمّا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ ﴾[الصف: 2] . فقد جاء في الحديثِ عن عبد الله بن عبّاسٍ رضي الله عنه، أنّ جماعةً من الصّحابةِ –رضوان الله عليهم– كانوا يقولون: "لوددنا أن اللَّه –عَزَّ وَجَلَّ– دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به" ولم يكن الجهادُ فُرِضَ وقتها، ففرضَ الله –جلّ وعلا– عليهم الجهاد، فلمّا علموا بذلكَ شقَّ على بعضِهم فكرهوه؛ فحينها أنزلها الله –جلّ وعلا .[4]

موضوعها :

تُعنى سورة الصّف بالأحكام التّشريعيّة، وهذه السّورة تتحدث عن موضوع "القتال" وجهاد أعداء اللّه، والتّضحية في سبيل الله لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وعن التّجارة الرّابحة

---

[1]-أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ، (352/9)

[2]-محمد الطّاهر بن عاشور، التحرير والتّنوير ، (171/28)

[3]-ينظر : أبو الحسن علي بن محمد بن علي الواحدي النّيسابوري الشّافعي، أسباب نزول القرآن، تح: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدّمام، ط2– 1992م، ص426

[4]-ينظر : خالد بن سليمان المزيني، المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التّسعة، دار ابن الجوزي – الدّمام المملكة العربية السعودية، ط1–2006م، (1005/2)

التي بها سعادة المؤمن في الدّنيا والآخرة، ولكنّ المحور الذي تدور عليه السّورة هو "القتال ".[1] فقد أنزلها الله لحكمة عظيمة وهي وحدة الصّف .

4-5-التّعريف بسورة الجمعة :

وهي سورة مدنية بالاتفاق، **وعدد آيتها** إحدى عشرة آية . و**سميت** عند الصّحابة وكتب التّفاسير " سورة الجمعة " ولا يعرف لها اسم غير ذلك، ووجه تسميتها وقوع لفظ "الجمعة " فيها، كما يحتمل أن يُعنى بهذا اللفظ صلاة الجمعة، لورود أحكامها في السورة.[2]

سبب النّزول :

حيث جاء في الحديث الشّريف :«عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ :كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذْ أَقْبَلَتْ عِيرٌ قَدْ قَدِمَتْ مِنَ الشَّامِ، فَخَرَجُوا إِلَيْهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا»رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[3]

موضوعها :

تناولت السّورة الكريمة جانب التّشريع، وافتتحت بالحديث عن بعثة خاتم الرّسل محمد ﷺ الرّحمة المهداة، ثم تكلمت عن انحراف اليهود عن شريعة الله، ثم بيان أحكام صلاة الجمعة التي فرضها الله على المؤمنين، والدّعوة إلى المسارعة لأدائها، وهو المحور الذي تدور عليه السّورة .[4]

4-6-التّعريف بسورة التّغابن :

وهي من السّور المدنية التي تعنى بالتّشريع، ولكن جوَّها جو السّور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلاميّة . [5]، فاشتملت هذه السّورة على تقرير العقيدة والرّد على منكري البعث.[6] **وعدد آيها** ثمان عشر ، و**سميت** بسورة " التّغابن" ولا تعرف بغير هذا الاسم، ووجه

---

[1]-محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج3(369/28)

[2]-ينظر: محمد الطّاهر بن عاشور، التحرير والتّنوير ، (28/ 204 ، 205)

[3]-أبو الحسن علي بن محمد بن علي الواحدي النّيسابوري الشّافعي، أسباب نزول القرآن، ص : 428

[4]-ينظر : محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج3(377/28)

[5]- نفسه : مج3(390/28).

[6]- ينظر :وسف الشبيلي، تفسير سورة التغابن، من موقع www.shubily.com، من حاضرات ألقيت في معهد العلوم الإسلامية بأمريكا ، ص1

التّسمية وقوع لفظ "التغابن " فيها ولم يقع في غيرها من القرآن .[1]«فسمّى الله يوم القيامة يوم التّغابن أي الذي يكون فيه الغبن (الخسارة) الواضح والظاهر» .[2]

سبب النّزول :

«روي أنّ رجالا من أهل مكّة أسلموا، وأرادوا أنّ يهاجروا إلى النّبي ﷺ فمنعهم أزواجهم وأولادهم، وقالوا : صبرنا على إسلامكم ولا صبر لنا على فراقكم !؟ فأنزل الله قوله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ ﴾[التغابن: 14] ».[3]

موضوعاتها :

تشتمل سورة التّغابن على عدّة موضوعات وهي[4]:

1- بيان قدرة الله تعالى وكمال علمه وإنكار البعث والحشر

2- الحديث عن يوم القيامة وما يكون فيه من جمع الأولين والآخرين .

3- بيان أنّ كلّ ما في الكون هو من خلق الله تعالى وتقديره وأنّ ما يحدث فيه من الأحداث فهو بعلم الله وقدرته .

4- التّحذير من الافتتان بالأموال والأولاد والأزواج وأنّ ما عند الله خير من ذلك كلّه .

4-7-التّعريف بسورة الأعلى :

«وهي سورة مكّية في قول الجمهور . وعدد آيها تسع عشرة آية باتفاق أهل العدد .ووردت **تسميتها** في السّنة سورة "سبّح اسم ربك الأعلى "، وسمتها عائشة "سبّح "، وسمّاها أكثر المفسرين وكتّاب المصاحف "سورة الأعلى " لوقوع صفة الأعلى فيها دون غيرها ».[5]

---

[1]- ينظر : محمد الطّاهر بن عاشور، التحرير والتّنوير ، (8/28 25)

[2]- وسف الشبيلي، تفسير سورة التغابن، من موقع www.shubily.com، من حاضرات ألقيت في معهد العلوم الإسلامية بأمريكا : ص1

[3]-محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج3(391/28)

[4]-يوسف الشبيلي، تفسير سورة التغابن، ص1

[5]- ينظر : محمد الطّاهر بن عاشور، التحرير والتّنوير ، (271/30 ، 272)

سبب النّزول :

لم يرد لسورة الأعلى كسورة مجملة سبب نزول، وإنّما ورد في آية منها سبب نزول وذلك في قوله تعالى : ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ ﴾[الأعلى: 6] . فورد في رواية الصّحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . أنّ الرّسول ﷺ كان حين يوحى إليه يعترضه علامات شديدة من جرّاء الوحي ومنها أنّه كان يزمّل بسبب ثقل الوحي، وما إن ينتهي جبريل عليه السلام من إلقاء الوحي حتى يعيد من وراءه رسول الله ﷺ، فسأله جبريل عليه السلام عن السبب ، فأجابه أنّه يفعلها مخافة النسيان فنزلت الآية الكريمة، فكان ذلك بمثابة طمأنة لرسول اللهﷺ ليعلم أنّه معصوم من نسيان ما يوحى إليه بإذن الله .[1]

موضوعاتها :

تعالج سورة الأعلى المواضيع الآتية :[2]

1- الذات العلية وبعض صفات الله جلّ وعلا، والدّلائل على القدرة والوحدانية

2- الوحي والقرآن المنزّل على خاتم الرّسل ﷺ وتيسير حفظه عليهﷺ .

3- الموعظة الحسنة التي ينتفع بها أهل القلوب الحيّة، ويستفيد منها أهل السّعادة والإيمان .

ثانيا : تراتبيّة المعاني العامة وتطبيقاتها في السّور المسبحات :

تنقسم السّلالم الحجاجيّة إلى نوعين : سلالم مطلقة(عامة) وسلالم مقيّدة (مخصّصّة) وسنطبق في هذا الفصل على السّلالم المطلقة؛ ويعرّف هذا الأخير بـ « هو السّلم الحجاجي غير المتدرّج معجميا، وغير المقولب بقوالب الصّيغة الصّرفيّة التي يتميّز بها السّلم الصرفي وغير المتّصف بالتّشكيل البلاغي الذي يتميّز به السّلم البلاغي ؛ أي أنّه يضمّ عموم السّلالم غير المعجميّة والصّرفيّة والبلاغيّة، وغيرها .»[3]

---

[1]-ينظر :سليم الهلالي، كتاب الاستيعاب في بيان الأسباب، ص509

[2]-محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج3(547/30)

[3] -لزهر كرشو، تقانة التّحليل الحجاجي للخطاب، ص109

1-تراتبيّة السّور المسبحات في المصحف الشّريف وفق التّرتيب الاشتقاقي لصيغة "التّسبيح":

اللافت للنظر أنّ هذه السّور مرتبة في المصحف وفق الترتيب الاشتقاقي للكلمة العربية والذي يكون كما يلي : المصدر، ثم الفعل الماضي ، ثم المضارع ، ثم الأمر، ثم باقي الاشتقاقات والتصريفات ... حسب ما ورد في ملاح الألواح في شرح مراح الأرواح أنّه: «يؤخذ الأمر من المضارع، والمضارع من الماضي، والماضي من المصدر .فالمصدر أصل صدر عنه كلّ المشتقات، من الأفعال والصّفات التي تشبهها وأسماء الزمان والمكان ...»[1]

وترتيب السّور المسبحات جاء على هذا الأساس:

1- المصدر : سبحان ..في السّورة الأولى وهي سورة الإسراء..
2- الفعل الماضي : سبّح، وهذا في السّور: الحديد والحشر والصّف. على التّوالي .
3- الفعل المضارع : يسبح ، وهذا في سورتين بعد تلك السور، وهما : الجمعة والتغابن
4- فعل الأمر : سبّحْ وهو في السّورة الأخيرة : سورة الأعلى.

هذا الترتيب القرآني المميّز للمسبحات السّبعة في القرآن دالٌ على أن ترتيب السّور في القرآن ترتيبا توقيفي من الله ، وهذا السّلم يوضح ذلك :

(ن): ترتيب توقيفي

ق1	المصدر	ق1	الإسراء(سُبْحَانَ)
ق2	الفعل الماضي	ق2	الحديد ، الحشر، الصف(سَبَّحَ)
ق3	الفعل المضارع	ق3	الجمعة والتغابن (يُسبّحُ)
ق4	الفعل الأمر	ق4	الأعلى (سَبِّحْ)

يتّضح من السّلم السّابق أن لفظ التّسبيح ورد في السّور المسبّحات بصيغ مختلفة، وهذا يرمي إلى حكمة بالغة، وسنحاول الكشف عنها، فالبدء بالمصدر" سبحان" قد ورد في سورة الإسراء فقط دون غيرها من السّور، وعلى اعتبار أن التسبيح بالمصدر أصل الاشتقاق فهو

[1]- بدر الدّين محمود بن أحمد العيني، ملاح الألواح في شرح مراح الأرواح في الصرف، لأبي الفضائل حسام الدين أحمد بن علي بن مسعود، تح : محمد السيد عثمان، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، دط – 1971، ص6

:« يدل على التّنزيه البليغ الثّابت المطلق غير المقيد بزمان أو مكان أو أي شيء»[1]، ولعل اختصاص سورة الإسراء بالتّسبيح بالمصدر يتعلق بطبيعة موضوعها العظيم، الذي يستوجب التّنزيه البليغ الثّابت لله و التّعجب من قدرته التي لا تتقيّد بمكان أو زمان والتّأمل فيها فحادثة الإسراء معجزة دالة على القدرة الإلهية التي لا يقدر عليها إلا هو.

وجاء التّسبيح بالفعل الماضي في كل من سورة : الحشر والحديد والصّف بلفظة " سبّح " للدّلالة على أنّ أمر تنزيه الله أمر مقرّر منذ الأزل، والفعل سبّح من الأفعال المتعدّية، نحو قولنا : سبّح العبدُ اللّهَ ، ولكنّه في هذه السّور« عدّي باللاّم ، فاللاّم إمّا أن تكون مثل اللاّم في نصحتُ له ، وإمّا أن يُرادَ يسبّحُ للّه أحدثَ التّسبيح لأجل اللّه وخالصا لوجهه » [2]

أمّا ورود التّسبيح بالفعل المضارع فنجده في كل من سورتيْ : الجمعة والتّغابن بصيغة "يسبّحُ" «للدلالة على التسبيح في زمانيْ الحاضر والمستقبل »[3]أيْ أنّ هذا التّنزيه دائم ومستمرّ. فاللّه خالق ما في السّموات والأرض ومالكها، وكلهم في قبضة قدرته ، يسبّحون له آناء اللّيل و أطراف النّهار بل في سائر الأزمان .

وجاء التسبيح بالأمر في مطلع سورة الأعلى بصيغة " سبّح "، والأمر بالتسبيح فيها مخاطب به الرّسول ﷺ، « أي نزه يا محمد ربك العلي الكبير عن صفات النّقص، وعمّا يقوله الظالمون، ممّا لا يليق به سبحانه » [4]وفي ذلك دلالة على أنّ الأمر بالتّسبيح يجب أن يكون دائما غير منقطع ؛ فكما كان في الماضي فإنّه الآن في الحال والاستقبال والأمر يدلّ على وقوع الفعل في الحال .

وعليه فورود " التّسبيح " بصيغ مختلفة دليل على أنّ التّسبيح غير مختصّة بوقت دون وقت، بل كلّ مسبّحٍ كان يسبح في الماضي، وفي المستقبل.

---

[1]– أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل ، تح : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار العبيكان – الرياض، ط1 – 1998م، (491/3)

[2]- فخر الدّين الرّازي، التّفسير الكبير، دار إحياء التّراث العربي – بيروت ، ط3 –1420 هـ ، (442/29)

[3]-نفسه : (537/30)

[4]– محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج3(548/87)

2- تراتبيّة مواطن التّسبيح في السّور المسبّحات :

وبعد تأكيد هذه السّلمية للسور المسبحات في المصحف الشّريف ، بالإضافة إلى التّرتيب الاشتقاقي لصيغة "التّسبيح"، نجد أيضا اختلاف أصناف المسبحين فيها، وبما أنّ سورة الإسراء افتتحت بصيغة المصدر "سبحان "«الدّال على التّنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضفها إليه أعداء الله»[1] فقد تنوع التّسبيح في ثناياها بتنوع أصناف المسبحين فيها والتي شكلّت سلما في حد ذاتها ؛ ففي مطلعها افتتح بالتسبيح من دون سبق كلام فقال تعالى:﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ ﴾[الإسراء: 1]، وهذا الافتتاح متضمن ما يجب تنزيه الله عنه يؤذن بأنّ خبرا عجيبا يستقبله السّامعون، دالا عن عظيم قدرة الله، والتّعجب يتعلق بحادثة الإسراء العظيمة [2]، فنزه الله نفسه ليثبت وحدانيته وقدرته، وصدق قول نبيهﷺ

وفي قوله :﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤ ﴾[الإسراء: 43-44] هذه الآيات تؤكد عموم التّسبيح ؛حيث نزّه الله نفسه بالصّيغة "سبحانه " «تنزيها عمّا ادّعوه من وجود شركاء له في الإلهيّة وهو مستأنف لأنّه نتيجة لبطلان قولهم : إن مع الله آلهة »[3] وبين عظمته وعلو شأنه، ثم ذكر علّ شأنه خبر تسبيح السّموات السّبع والأرض، ثم تسبيح المخلوقات التي في السّموات والأرض، ثمّ عموم تسبيح كلّ شيء، ونلاحظ هذا التّدرج في المعاني .

وفي قوله :﴿ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣ [الإسراء: 93]، ففي الآية السّابقة

---

[1]-أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل ، دار المعرفة – بيروت، لبنان، ط3 –2009م، (589/14)

[2]-ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، (10/15)

[3]-نفسه :(113/15)

ادّعى الكفار الشّركاء وتعدوا على الله، فنّزه الله نفسه . وفي هذه الآية أراد الكفّار معجزات من الرّسول ﷺ فنزه الله نبيّه ؛ لأنّه ليس إلّا بشرًا فجاء التّنزيه بـ "سبحان " .

ثمّ بين تعالى موقف أهل القرآن الذين يخرون سجدا، ويسبحونه حين يسمعونه

في قوله : ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الإسراء: 107-108] .

فنجد الأمر بتعظيم الله وتنزيهه جاء على وجه التّدرج حيث :

- في الأولى :تنزيه الله نفسه وتعظيمه، وإظهار قدرته للوصول إلى النّتيجة ، وذلك من خلال ورود التّسبيح بالمصدر "سبحان" الذي يشير إلى ما تثيره هذه القصّة العظميّة من عجب ، والتي تثبت نبوة الرّسول ﷺ،
- في الثّانيّة : تنزّيه الله نفسه تنزيها عاما، عن دعوى الكفار في نسبة الشّركاء لله وذلك بالصّيغة نفسها
- في الثّالثة : تمّ تأكيد عموم تسبيح كلّ الموجودات لله سبحانه، وتنزيهه عن صفات النّقص التي ادعاها الكفار، بتغيير صيغة التّسبيح بالفعل المضارع " يسبح، تسبح " . وبالمصدر " تسبيح " .
- في الرّابعة : تنزّيه الله نبيه ﷺ بكونه بشرا بأمره بالتّسبيح " قل سبحان "
- وفي الأخيرة : جاء التّسبيح لله وتنزيهه بلسان عباده الصّالحين .

يرمي هذا التّدرج في التّسبيح إلى نتيجة واحدة وهي إثبات وحدانية الله ووجوب تسبيحه وتنزيهه عن كلّ صفات النقص، ويمكن أن نمثل هذا التّدرج في سلم تنازلي تبكيتي بدأ بأقوى حجّة توصل إلى النّتيجة وهي (تنزيه الله نفسه وإظهار قدرته) ، والتي اندرجت تحتها الحجج المتبقيّة وتضمنتها، ثمّ إلى أضعف حجّة وهي (تنزيه عباد الله الصّالحين) والرّسم الموالي يوضح ذلك :

(ن) إثبات وحدانية الله ووجوب تسبيحه وتنزيهه عن كلّ صفات النقص

ق1 – تنزيه الله نفسه وإظهار قدرته

ق2 – تنزيه الله نفسه عن كلّ ما نسبه إليه الكافرون

ق3 – تأكيد عموم تسبيح كل الموجودات لله

ق4 – تنزيه الله نبيه من الأُلُهيّة

ق5 – تنزيه عباد الله الصّالحين لله

لعلّ التّنوع في أصناف المسبحين وصيغ التسبيح جعل سورة الإسراء تحتل قلب القرآن أي في الجزء الخامس عشر و تتصدر المرتبة الأولى من السّور المسبحات، وتليها السّور التي جاء التسبيح فيها على لسان كلّ الموجودات بصيغتي الماضي والمضارع وهي :" الحديد، الحشر، الصّف، الجمعة، التّغابن " .

وفي ما يلي سنوضح مواطن التّسبيح فيها:

- ففي مطلع سورة الحديد يقول تعالى :﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ ﴾[الحديد: 1].

-وفي سورة الحشر يقول تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ ﴾[الحشر: 1]

-واختتمت السّورة أيضا بالتّسبيح بقوله تعالى :﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤ ﴾ [الحشر: 24]

-وفي سورة الصّف يقول تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ ﴾ [الصف: 1] .

- وفي سورة الجمعة يقول تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ ﴾ [الجمعة: 1] .

- وفي سورة التّغابن يقول تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١ ﴾[التغابن: 1] .

والمتصفح للقرآن يجد أنّ هذه السّور محصورة في آواخر السّابع والعشرين وأول الجزء الثّامن والعشرين، وجميع هذه المواطن تؤكد عموم تسبيح كلّ الموجودات وتنزيههم لله عمّا لا يليق به، وقد اشتملت سورة الحديد على موطن واحد للتسبيح بصيغة الماضي، على غرار سورة الحشر التي اشتملت على موطنين من التسبيح بصيغتي الماضي ثم المضارع .

ولعلّ تقديم سورة الحديد على الحشر يعود إلى طبيعة موضوعها ؛ ففي سورة الحديد بيّن الله تعالى معجزة إنزال الحديد، الذي يكون دعما له في تحقيق العدالة، ثمّ بين في سورة الحشر أنّ هذا الحديد نفسه لم ينفع اليهود وغُلبوا بقوة الإيمان لقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ ﴾[الحشر: 2] . وتليها سورة الصّف التي تضمنت موطنا واحدا للتّسبيح بصيغة الماضي ولعلّ تأخيرها على سورتي الحديد والحشر يعود لطبيعة موضوعها كذلك ؛ لأنّها تجمع بين قوة الحديد وقوة الإيمان ؛لأنّ الجهاد يتطلب كلّ منهما حتّى يتحقّق توحيد الصّفوف، ثم سورتا الجمعة والتغابن اللتان تضمنتا موطنا واحدا للتّسبيح بصيغة المضارع . وفي هذا الشّأن قال بعض أهل العلم: «إنّما عبر بالماضي تارة وبالمضارع أخرى ليبين أنّ ذلك التّسبيح لله هو شأن أهل السّموات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي و المستقبل . ذكر معناه الزّمخشري (538هـ)وأبو حيان (414هـ)»[1]

ثم تلي هذه السّور سورة الأعلى التي تضمنت آخر موطن من مواطن التسبيح في سور المسبحات، ووقعت في آخر جزء من القرآن الكريم، ولذلك تميزت بصيغة منفردة واختلف المُسبِّح فيها، ففي قوله تعالى :﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ﴾[الأعلى: 1] . أمر الله تعالى رسوله بالتسبيح ، والماضي والمضارع يسبق الأمر كما وضحنا سابقا .

[1]-محمد الأمين الشّنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفؤاد – مكة المكرمة، ط1 –1996م، مج 7 ، ص 860

يرمي هذا التّنوع في أصناف المسبّحين وصيغ التّسبيح في سور المسبّحات إلى نتيجة واحدة وهي إثبات وحدانية الله وجوب تسبيحه وتنزيهه وهذا السّلم يوضح ذلك :

(ن) إثبات وحدانية الله وجوب تسبيحه وتنزيهه من كلّ صفات النقص

ق1 ـ تنوّع أصناف المسبّحين في سورة "الإسراء "

ق2 ـ تسبيح كلّ الموجودات لله " الحديد، الحشر، الصفّ ، الجمعة، التّغابن "

ق3 ـ أمر النّبي ﷺ بالتّسبيح . في سورة " الأعلى "

إنّ تنوّع المسبّحين في سورة الإسراء جعلها في قمّة السّلم، ولعل ذلك يعود إلى عظمة المعجزة " حادثة الإسراء " التي احتضنتها هذه السورة الكريمة، ثم تليها السّور الّتي أكّدت تسبيح كل الموجودات من أهل السّموات والأرض ، ومادام أن كل الموجودات سبّحت وتسبّحُ لله فلا بدّ من تخصيص التسبيح بأمر للنبيّ ﷺ ؛ من أجل استمرارية التسبيح فهو الحامل للرسالة ومؤدّيها.

3- تراتبية سلالم الموضوعات في السّور المسبحات :

3-أ-تراتبية سلالم الموضوعات على مستوى كلّ سورة :

3-أ-1 – تراتبية سلالم الموضوعات في سورة الإسراء :

مما سبق ذكره أنّ سورة الإسراء تضم موضوعات شتى، معظمها على العقيدة وبعضها عن قواعد السّلوك الفردي والجماعي وآداب بناء المجتمع ؛إلى شيء من القصص عن بني إسرائيل المتعلقة بالمسجد الأقصى، وطرف من قصّة آدم وإبليس.ولكن العماد الذي أقيمت عليه أغراض هذه السّورة هو إثبات نبوة محمد ﷺ، وتأييد الله له بالمعجزات الباهرة والحجج القاطعة الدّالة على صدقه ﷺ .

وبين سيد قطب أنّ تلك الموضوعات المنوعة حول ذلك المحور الواحد تمضي في أشواط متتابعة كالآتي :[1]

الشّوط الأول :

يبدأ بالإشارة إلى الإسراء لكشف معجزات الله الباهرة وقدراته الخارقة، في قوله تعالى :﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ ﴾ [الإسراء: 1] .وبمناسبة المسجد الأقصى يذكر كتاب موسى، وما قضى فيه لبني إسرائيل من نكبة وهلاك وتشريد مرتين بسبب طغيانهم وإفسادهم مع إنذارهم بثالثة ورابعة في قوله تعالى ﴿ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۘ ﴾[الإسراء: 8] .

ثمّ يقرر أنّ القرآن هو الكتاب الأخير الذي يهدي للتي هي أقوم، بينما الإنسان عجول مندفع لا يملك زمام انفعالاته، ويقرر التّبعية الفردية والجماعية في الهدى والضلال .

الشّوط الثّاني :

إثبات قاعدة التّوحيد، ليقيم عليه البناء الاجتماعي كلّه وآداب العمل والسّلوك التي تستند عليه الحياة .

الشّوط الثّالث :

تحدث فيه عن أوهام الوثنيّة حول نسبة البنات والشّركاء إلى الله، وعن استبعاد يوم البعث ، وعن استقبالهم للقرآن وتقولاتهم عن الرّسولﷺ ويأمر المؤمنين بالمبادرة بالحسنى .

الشّوط الرّابع :

يبين فيه سبب عدم إرسال الله الخوارق لمحمد ﷺ، التي كذب بها الأولون فأهلكوا اتباعا لسنّة الله، كما تناول موقف المشركين من رؤية الرّسول ﷺ المسجد الأقصى وإنذارهم على طغيانهم ، وكشف عوامل الضلال التي تبدو من المشركين من خلال قصة إبليس.

[1]-ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشّروق – القاهرة، بيروت، ط32 – 2003 م، مج 4 (2209/15 ، 2210)

الشّوط الخامس والأخير :

وفيه استعرض الله تعالى كيد المشركين للرّسول ﷺ، ومحاولة فتنته عن بعض ما أُنزل إليه ومحاولة إخراجه من مكّة ، وأمره بالمضي في الدّعوة، ويعقب بأنّ القرآن الكريم فيه شفاء وهدى للمؤمنين، ومعجزة للعالمين، ثمّ ذكر مقترحات المشركين التي يمليها العنت والمكابرة . وقد كان حسبهم أن يستشعروا أنّ الكون وما فيه يسبّح للّه، وأنّ الآيات الخارقة قد جاء بها موسى من قبل فلم تؤدِّ إلى إيمان المتعنتين، فأخذهم الله بالعذاب . وتنتهي السّورة بالحديث عن القرآن الكريم وتلّقيه بالخشوع من قبل أولي العلم وبحمد الله الذي لم يكن له شريك في الملك . ويمكننا تمثيل تراتبية هذه المواضيع في السّلم التّالي :

(ن) إثبات نبوة محمد ﷺ

ق1 – معجزة الإسراء إلى المسجد الأقصى
ق2 – ذكر كتاب موسى وقومه بني إسرائيل
ق3 – معجزة القرآن الكريم وفضله
ق4 – التّمسك بقاعدة التّوحيد وتجنب أوهام الشّرك والوثنية
ق5 – كشف عوامل الضلال من خلال قصّة إبليس وعداوته لآدم وذريته
ق6 – إنذار الله للمشركين وتهديدهم بالعذاب ، وبأنّ النّصر قريب
ق7 – تحميق المشركين وجهلهم بآية القرآن الذي هو شفاء ورحمة

اتخذ السّلم الموضوعي في هذه السّورة مسارا تنازليا من الحجّة الأقوى إلى الأضعف ؛ لأنّ المشركين متلق جاحدٍ لحقيقة نبوة محمد ﷺ لا تجدي معه البدايات بالحجج الضّعيفة فلتبكيتهم بدأ بالحجة الأقوى والأقرب للوصول إلى النّتيجة والتّصديق بها يستلزم التّصديق والإذعان بالحجج التي اندرجت تحتها والأقلّ منها قوة ؛ ولذلك أثبت لهم أنّ حادثة الإسراء حقيقة، وهذه الحجّة تسوقنا إلى ذكر الحجّة الثّانية والتي ذكّرت بكتاب وموسى عليه السلام وقومه تمهيدا للحديث عن بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض .

وعليه فالذي أتى بكتاب موسى قادر على أن يأتي بكتاب آخر وأخير كمعجزة لمحمد ﷺ لما له من فضل في نصرة الإسلام، فلا فرق بين الرّسل في أداء الرّسالة، التي لا تتحقّق

إلّا بالتّمسك بالتّوحيد واجتناب أوهام الوثنيّة والشّرك، الذي سببه نزغ إبليس وعداوته لآدم وذريته ، وهذا ما يجرّ إلى الحجّة التي تليها وهي إنذار من اتبّع الشّيطان وأشرك بالله وتهديده بالعذاب، وكحجّة أخيرة أثبت الله حماقة طلباتهم في اقتراحاتهم لخوارق ماديّة التي كذب بها الأولون من قبل فأهلكوا اتباعا لسنّة الله و بسبب جهلهم بآية القرآن الذي هو شفاء وهدى للنّاس أجمعين . وهكذا نجد أنّ هذه الحجج جاءت على وجه التّدرج لتصل إلى نتيجة مفادها تحقيق نبوة الرّسالة المحمديّة .

3-أ-2 – تراتبيّة سلالم الموضوعات في سورة الحديد :

تضمّنت سورة الحديد موضوعات عدّة كما ذكرنا آنفا، حيث تطرّقت إلى أنّ الكوْن كلّه لله فهو الخالق والمبدع، كما دعت إلى وجوب البذل في سبيل الله بالنّفس والنّفيس، وذلك لإعلاء راية الإسلام وكذلك تضع قيم الدّنيا وقيم الآخرة في ميزان الحقّ وتدعو لاختيار الكفّة الرّاجحة و السّباق إلى القيمة الباقية.[1]

أمّا عن الأغراض الّتي ارتكزت عليها السّورة فهي:« التنكير بجلال الله تعالى وصفاته العظيمة وسعة قدرته وملكوته وعموم تصرّفه ووجوب وجوده وسعة علمه والأمر بالإيمان بوجوده وبما جاء به رسوله ﷺ وما أُنزل عليه من الآيات البيّنات والتنبيه بما في القرآن من هديه وسبيل النّجاة.» [2]

وقد سار سياق السّورة في علاج المواضيع متسلسلا مترابطا نورده كما يلي :

ابتدأت بالحديث عن عظمة الخالق جلّ وعلا الّذي سبّح له كل ما في الكون؛ فالكلّ ناطق بعظمته شاهد بوحدانيته ثمّ ذكرت صفات الله الحسنى وأسمائه العليا، فهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية والظّاهر بآثار مخلوقاته والباطن الذي لا يعرِف عن حقيقته أحد وهو الخالق للإنسان والمدبّر للأكوان.

ثمّ تلتها الآيات التي تدعو المسلمين إلى البذل والسّخاء والإنفاق في سبيل الله بما يحقق عزّة الإسلام ورفعته، فلابدّ للمؤمن من الجهاد بالنّفس والمال لينال سعادة الدّارين ،كما

[1] – ينظر السيّد قطب، في ظلال القرآن ، مج 6 (27 /3475)

[2] – ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، (355/27)

تحدّثت عن أهل الإيمان وأهل الإنفاق، فالمؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيْمانهم، والمنافقون يتخبّطون في الظلمات كما كانوا في الدنيا ويعيشون كالبهائم في ظلمات الجهل .

ثمّ تحدّثت السّورة عن حقيقة الدّنيا والآخرة وصوّرتهما أدقّ تصوير، فالدّنيا دار الفناء وهي زائلة فانية ، بينما الآخرة دار الخلود والبقاء الّتي لانصب فيها ولا تعب ولاهمّ .

وخُتمت «بالغاية من بعثة الرّسل الكرام والأمر بتقوى اللّه عزّ وجل وبهدي رُسُلِه و أنبيائه»[1] . وسنمثّل تراتبية هذه المواضيع في السّلّم التالي :

(ن) نداء المؤمنين وأمرهم بتقوى اللّه واتّباع هدي رسله

ق1 ـ تسبيح الله وتنزيهه بصفات تدلّ على عظمته وقدرته.

ق2 ـ الحثّ على الإيمان والإنفاق

ق3 ـ تصوير حقيقة الدّنيا وحقيقة الآخرة

ق4 ـ فضل الله على الخلق في إرسال الرّسل

فالمتأمل في هذا الترتيب والتدرّج العجيب الّذي مثّله السلّم الموضوعي لسورة الحديد يجد أنّه اتّخذ مسارا تنازُليا، من الحجّة الأقوى إلى الأضعف .فبعد أن بيّن كونه إلهاً لجميع الكائنات بيّن أنّه إله للعرش والسّموات والأرض، ثمّ بيّن معيّته لنا وعلمه بظواهرنا وبواطننا وأنّه القادر العالم. وهذا ما يستوجب تسبيحه وتنزييه وهي الحجّة الأقوى للوصول إلى النتيجة و تسوقنا بدورها إلى الحجج التي اندرجت تحتها ؛ فبعد بيان خضوع كل المخلوقات له، واطّلاعه على أحوالهم الظّاهرة والباطنة جاء الأمر والتّكليف؛ ذلك أنّه لما تمكّن تقديس اللّه في نفس الإنسان بأنّه المتفرّد بالعلم والقدرة، صار قلبه مفتوحا لتلقّي الأوامر بالإيمان والإنفاق . وهو المكسب الحقيقي للإنسان في آخرته لذلك صور بعدها حقيقة الدّنيا والآخرة

وفيهما تتحقّق العدالة الإلهيّة، وهذا فضل الله على الخلق، والفضل الأكبر في إرسال رسالته، وكان ذكر صفات اللّه جل شأنه في مطلع السّورة يستدعي النّفوس ليغرس فيها صفات الخالق الذين يحظون بمعيته ، حتّى انغرس الحبُّ والإجلال والهيبة وأمر بما يشاء لنصل بذلك إلى نتيجة مفادها : تقوى اللّه واتّباع هدْي رسله .

[1] – محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج3(318/27، 319)

3- أ-3 – تراتبيّة سلالم الموضوعات في سورة الحشر :

يعنى موضوع سورة الحشر بجانب التّشريع الإسلامي شأنها شأن سائر السور المدنيّة، ولقد اشتملت السّورة على موضوعات أهمّها :[1]

لقد أُفتتحت سورة الحشر بتنزيه اللّه تعالى عمّا لا يليق به وإظهار عزّته وحكمته في تصريف الأمور ثمّ تناولت السّورة عن غزوة بني النّضير وما يسّر اللّه تعالى من إجلائهم مع ما كانوا عليه من المتعة والحصون والعُدّة، وتحدّثت أيضا عن أحكام الفيء و حكمته تعالى في إرشاد النّبي ﷺ إلى تقسيم أموالهم بني ، وكذا الثّناء على المهاجرين والأنصار.

ثم تحدت عن كشف دخائل المنافقين الذّين تحالفوا مع اليهود ضدّ المؤمنين، وذكرت جانب من وعودهم الخادعة، كما وصفت المنافقين بالجبن وتّفرّق الكلمة، ثمّ تشبيه حال تغرير المنافقين لليهود بتغرير الشّيطان للّذين يكفرون باللّه وتنصّله منهم يوم القيامة.

ثم توجيه الأمر للمؤمنين بتقوى اللّه ونهيهم عن التشبّه بالفاسقين، والتّذكير بتفاوت حال الفريقيْن، وبيان عظمة القرآن الكريم وجلالته، واقتضائه خشوع أهله .وختمت السّورة الكريمة بذكر جانب من أسماء الله تعالى وصفاته العُليا .وبعد التّفصيل في موضوعات السّورة سنوردها مرتّبة وفقا لهذا السلّم الحجاجي الآتي:

[1]- يُنظر محمّد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير . مج 3 (28/347-346)

(ن) : دعوة المؤمنين للتمسّك بالتشريع الإسلامي حتى يكونوا ذوي بأسٍ شديد على اليهود

ق1 ـ تسبيح الله وتنزيهه عمّا لا يليق به وإظهار عزّته وحكمته في تصريف الأمور.
ق2 ـ إجلاء اليهود من ديارهم مع ما كانوا عليه من الحصون والقلاع
ق3 ـ أحكام الفيء والغنيمة.
ق4 ـ الثّناء على المهاجرين والأنصار
ق5 ـ كشف دخائل المنافقين الّذين تحالفوا مع اليهود ضدّ المؤمنين .
ق6 ـ وصف بني النّضير والمنافقين بالجبن .
ق7 ـ خطاب المؤمنين بالأمر والتّقوى والحذر من أحوال أصحاب النّار والتّذكير بالتّفاوت بينهما في دار العدل والجزاء.
ق8 ـ بيان عظمة القرآن وجلالته .وإبراز أسماء الله الحسنى.

نلاحظ من خلال هذا التّرتيب الّذي تدرّج به السّلم تنازليّا ؛ من الحجّة الأقوى و الأقرب للوصول للنتيجة وهي افتتاحها بالتّسبيح تعظيما لله تعالى، والتّعظيم يؤدّي إلى الإيمان بكل صفات المعظّم . ومنه إلى الحجّة التي بينت سبب من أسباب التسبيح وهو إخراج اليهود من ديارهم ومن ثمّ قبول كل ما يشرّعه (أحكام الفيء)، فهؤلاء اليهود لم يقبلوا برسالة محمّد ﷺ ولذلك فهم لم يحقّقوا التسبيح، في حين أنّ كل ما في السّماوات ومافي الأرض يسبّح للّه لأنّ أصل إخراج اليهود من آثار عزّته وحكمته فهذه العلامة تذكّرهم بنعم اللّه .وكمكافأة للأنصار والمهاجرين أثنى عليهم وكشف لهم دخائل المنافقين، ووصف بني النّضير بالجبن ومن ثمّ عزّز خطابه بالأمر بالتّقوى والحذر من النّار، وهذا دليل على كمال صفاته .

3- أ-4 – تراتبيّة سلالم الموضوعات في سورة الصفّ :

ومن أبرز المحاور الّتي تناولتها السّورة المباركة مايلي :

الإقرار بأنّ اله سبحانه منزّه من كلّ عيب، عزيز لا يحتاج لمخلوقاته، حكيم في خلقه وأمره ونهيه، ثمّ حذّرت من إخلاف الوعد والالتزام بواجبات الدّين[1]، كما حذّرت المسلمين بأن لا يكونوا مثل بني إسرائيل الّذين آذوا نبيّهم موسى بالقول والفعل ثمّ عنادهم عيسى حين جاءهم بما سبق أن جاءهم به موسى عليه السّلام، ثمّ تكذيبهم للحقّ حين جاءهم به محمّد

[1]– محمّد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج 3 (28 / 369)

ﷺ وبما سبق أنْ بَشّر به عيسى [1]، والتحريض على الجهاد في سبيل الله والثّبات فيه وصدق الإيمان ، كما تحدّثت السّورة عن سنّة اللّه في نصرة دينه وأنبيائه وأوليائه وهي التّجارة الرّابحة، وضربت المثل للمشركين في عزمهم على محاربة دين الله بمن يريد، وإطفاء نورالله بأفواههم.[2]

وختمت السّورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصرة الرّحمان، وأن يكونوا أنصارا لله ، ودعاة لدينه فينصرهم كما نصر من قبلهم عيسى –عليه السّلام – وأصحابه المخلصين ويظهرهم على عدوّهم.[3]

وعليه سنمثّل موضوعات السّورة الكريمة في السّلّميّة الآتية :

(ن): صدق الولاء لله تعالى من خلال نصرة عقيدته و التمسّك بالجهاد في سبيله

ق1 ـ تسبيح الله وتنزيهه عن كل عيب .

ق2 ـ التّحذير من إخلاف الوعد والالتزام بواجبات الدّين .

ق3 ـ بيان موقف اليهود من دعوة موسى وعيسى عليهما السّلام

ق4 ـ التّحريض على الجهاد في سبيل الله والثّبات في نصرة الدين .

ق5 ـ الاقتداء بالحواريين في نصرتهم لعيسى عليه السلام

نلاحظ من خلال هذا الترتيب التّنازلي الّذي تدرّج به السّلم من الحجّة الأقوى والأقرب للوصول للنّتيجة، والتي تُكسب الخطاب قوّة حجاجيّة، واندرجت تحتها الحجّج التي تضمنتها فالسّورة افتتحت بالتّسبيح تعظيما لله تعالى، والتّعظيم يؤدّي إلى الإيمان بكل صفات المعظّم وقُدِّم تسبيح أهل السموات على أهل الأرض ودُل عليهما بـ"ما " وهي تعود على غير العاقل فكيف لغير العاقل يسبح له والعاقل يعصيّه؛ ولذلك جاءت الحجّة الثّانية تحذر من إخلاف الوعد والالتزام بواجبات الدّين، لكي لا نقع في نفس ما وقع فيه قوم موسى وعيسى جرّاء

[1]-يُنظر : ابن عاشور، التحرير والتّنوير، (28 / 173)

[2]-ينظر : محمّد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج 3 (28 / 369)

[3]-نفسه : مج 3 (28 / 370)

رفضهم لدعوتهما، ومن ثمّ قبول كل ما يشرّعه ، المتمثلة في الدّعوة للجهاد في سبيله ونصرة دينه، واقتداء بالحواريين في نصرتهم لعيسى عليه السلام.

3- أ-5 – تراتبيّة سلالم الموضوعات في سورة الجمعة :

تناولت سورة الجمعة تنزيه الله عن كلّ مالا يليق به من صفات النقص كما بيّنت جانب التّشريع أيضا، و تحدّثت عن كثير من الأمور حيث أنّ المحور الذي تدور عليه السورة بيان أحكام "صّلاة الجمعة" التي فرضها اللّه على المؤمنين [1]وحذّرت من التخلّف عنها والأمر بترك ما ينشغل عنها في وقت أدائها [2]، ونفهم من هذا فضل يوم الجمعة على المسلمين، فهي تجمع بين الجانب الرّوحي والمادّي للإنسان.

تناولت السّورة الكريمة بِعثة خاتم الرّسل محمّد بن عبد اللّه ﷺ، وأثبتت أنّه الرّحمة المهداة التي أنقض اللّه بها العرب من ظلام الشرك والضلال، وأكرم به الإنسانيّة، فكانت رسالته بلْسمًا لأمراض المجتمع البشري، ثمّ تحدّثت السّورة عن اليهود وانحرافهم عن شريعة اللّه، حيث كلّفوا بالعمل بأحكام التّوراة ولكنّهم أعرضوا عنها ونبذوها وراء ظهورهم .

ختمت السّورة بأحكام صلاة الجمعة وذلك بالتّحذير من الانشغال عن الصّلاة بالتّجارة واللّهو، كحال المنافقين الّذين إذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالى متثاقلين[3].

ويمكننا تمثيل موضوعات سورة الجمعة بالسّلّم التّالي :

(ن): بيان منة اللّه على المؤمنين وتعليمهم أحكام صلاة الجمعة وتلبية ندائه.

ق1 إقرار حقيقة التّسبيح المستمرّة لله من قبل كل المخلوقات

ق2 منّة الله الظاهرة في بعثة الرّسول الأمّي العربي .

ق3 ذكر انتهاء دور اليهود في حمل أمانة الله الخاصّة بالقلوب الرّحيمة .

ق4 تعليم أحكام صلاة الجمعة وفضل الذّكر فيه ، وبيان عظمه عند الله .

يتّضح لنا من خلال هذا الترتيب الّذي بُنِيت عليه السورة أنّه ترتيب تنازليّ محكم كونه: افتتح بالحجّة الأقوى وهي:

[1] – ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، (370/28)

[2] –نفسه : (28 / 206)

[3] – محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج 3 (28 / 377)

الإقرار بحقيقة التّسبيح المستمرّة لله تعظيما له سبحانه فهو المنفرد بملكه والعزيز الذي لايغلبه أحد، والحكيم في خلقه وشرعه وقدره ، ثم جاءت الحجّة الموالية ؛ لتبيّن عظيم امتنانه على العرب خاصّة، وعلى الناس كافّة، حيث بعث الرّسول الأمّي من جنسهم، يعلّمهم القرآن والسّنة، ويحذّرهم من اتّباع اليهود الذين أعرضوا عمّا جاء في التوراة .

ثمّ مازالوا على موقفهم في عدم القبول برسالة محمّد ﷺ؛ فقد انتهت مهمّتهم في حمل أمانة الله بعد تحريفهم لليهودية، أمّا العرب فقد بدأت مهمّتهم بحملها ؛ لأنّ هذه الأخير لا يحملها إلا من كان قلبه خاشعا مدركا لعظمة الله ، وبالتالي حق عليه أن يعبده حق عبادته ، وبالتالي يتعلّم ذكر الله في كل الأمور ويتعلّم الأحكام الصّحيحة لصلاة الجمعة، لأنّه يوم عظيم فلا يشغله عنه بيع ولا تجارة .

3- أ-6 – تراتبيّة سلالم الموضوعات في سورة التّغابن :

تشتمل سورة التغابن على مواضيع متعددة كما ذكرنا آنفا .تعالج جلّها أصول العقيدة الإسلامية والمقصد الّذي أُقيمت عليه هو التحذير مما تحصل به النّدامة والغبن يوم القيامة وبيان حقيقة التغابن وأسبابه وعواقبه كما ترشد إلى طريق الفوز والفلاح .[1]

وسوف نعرض موضوعات السّورة وفق التفصيل التّالي:

أكّدت السورة تنزيه الله وتقديسه عما لا يليق به من صفات النّقص من قبل الخلائق وآثار قدرته في خلقه، وضربت الأمثال بالقرون الماضية والأمم الحالية التي كذّبت رسل الله وما حلّ بهم من العذاب والدّمار نتيجة كفرهم و عنادهم وضلالهم، وأقسمت السّورة على أنّ البعث حق لابدّ منه ، أقرّه المشركين أم أنكروه .

كما تحدثت عن يوم التّغابن وما يكون فيه من جمع الأولين و الآخرين وتصفيّة الحساب، وأمرت بطاعة الله وطاعة رسوله وحذّرت من الإعراض عنها، بالإضافة إلى التحذير من عداوة بعض الزّوجات والأولاد، لأنهم ما يمنعون الإنسان من الجهاد والهجرة وختمت السورة بالأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه وحذّرت من الشّحّ والبخل[2].

ويمكننا تمثيل موضوعات السّورة في السلّم التّالي :

[1] – ينظر، السيّد قطب ، في ظلال القرآن ، مج 6(28 / 358)

[2] – يُنظر : محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج 3 (28 / 390)

(ن) : بيان قدرة الله وعظمته والدّعوة إلى الإنفاق في سبيله لإعلاء دينه .

ق1 ـ تنزيه الله وتقديسه و بيان قدرته تعالى وكمال علمه .

ق2 ـ إنكار البعث والحشر والتذكير بمصير المنكرين في الأمم السابقة

ق3 ـ الحديث عن يوم التغابن وما يكون فيه من جمع الأوّلين والآخرين وتصفية الحساب

ق4 ـ بيان أنّ الله خالق كل الكون ، وأنّه المعبود بحقٍّ ، والدّعوة إلى التوكّل عليه .

ق5 ـ التّحذير من الافتتان بالمال والأولاد والأزواج وأنّ ما عند اللّه خير من ذلك كلّه.

ق6 ـ الأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه .

يتّضح لنا أنّ هذا التّرتيب الّذي تدرّج به السّلم هو ترتيب تنازليّ بحيث : افتتحت سّورة التّغابن بالحجّة الأقوى وهي تنزيه الله وتقديسه، وبيان قدرته من خلق وحسن تصوير وكمال علمٍ، وفي المقابل هناك إنكار للبعث والحشر، أمّا الحجّة الموالية ففيها أراد الله التّذكير بمصير المكذبين مثل:قوم نوح وعاد وثمود والاعتبار بما حلّ بهم من عذاب مؤكّدا أنّ البعث ليس بالأمر الصعب عليه، ويسترسل كلامه بالحديث عن يوم التغابن (القيامة) حيث يظهر فيه خسارة المكذّبين وفوز المؤمنين بالله ورسوله و القرآن الكريم، فحقّ عليهم أن يعبدوا الله وحده ، و أن يعتمدوا عليه في قضاء أمورهم، وتحذيرهم من الافتتان بالمال والأولاد والأزواج وأمرهم بالإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه.

3- أ-7 – تراتبيّة سلالم الموضوعات في سورة الأعلى :

عالجت سورة الأعلى مواضيع مهمّة جدّا وهي على التّوالي : تنزيه الذّات العليّة والدّلائل على القدرة والوحدانيّة والوحي المنزّل على محمّد ﷺ والموعظة الحسنة؛ إلّا أنّ المقصد الأسمى في سورة الأعلى هو تذكير النّفوس بمنّة الله الأعلى وتعليقها بالحياة الأخرى وتخليصها من التعلّقات الدّنيا .

لقد ابتدأت السّورة بوجوب تسبيح الله وبتنزيهه عزّ وجل، فهو الّذي خلق فأبدع وصوّر فأحسن، ثمّ تحدّثت عن الوحي والقرآن وآنست السورة الرّسول بالبشارة بتحفيظ هذا الكتاب المجيد، وتيسير حفظه عليه بحيث لا ينساه، كما أمرت بالتذكير بهذا القرآن الّذي يستفيد من نوره المؤمنون ويتّعظ بهديّه المتقين .

وختمت السّورة ببيان فوز من طهّر نفسه من الذّنوب والآثام وزكّاها بصالح الأعمال[1] وذكّرت أيضا بأنّ كل ما ورد ذكره في هذا القرآن قد ورد أيضا في صحف إبراهيم وموسى، وعلى الإنسان عدم التّمسك بملذّات الدّنيا الزائلة ، والاعتصام بالزاد الرّوحي (القرآن الكريم) لأنّه خير في الدّنيا ، وأبقى في الآخرة .

ويمكننا تمثيل موضوعات سورة الأعلى في السّلّم التّالي :

(ن) : التسليم بوجود الله وتسبيحه واختيار ما هو أحسن و أبقى في الدّارين

ق1 – الاستفتاح بوجوب تسبيح اللّه الأعلى وذكره دائما في كل الأمور.

ق2 – إقامة الأدلّة على وحدانيّة الله سبحانه .

ق3 – امتنان الله تعالى على نبيّه ﷺ و تأييده وتثبيته .

ق4 – الحثّ على ذِكر الله ووجوب عبادته.

ق5 – التذكير بقدم هذا الأمر وأنّه جاء في صحف إبراهيم وموسى –عليهما السّلام– .

نلاحظ أنّ هذا الترتيب الّذي تدرّج به سّلم موضوعات سورة الأعلى هو تدرّج و ترتيب تنازليٌّ أيضا حيث أنّ : سّورة الأعلى افتتحت بوجوب تسبيح الله تعالى المقدّر المنعم على عباده، وهي الحجّة الأقوى لتحقيق النتيجة والتي تستوجب الحجّج التي تليها فأمر بالتّسبيح ثمّ بين سبب ذلك في إثبات وحدانيته بالأدلّة الدّامغة و المبكتة للمعرضين مثل : الخلق وحسن التصوير، الهداية لما يصلُح لكل مخلوق، العلم و البعث، ثمّ أعلنت السّورة الدّعوة إلى حمل أمانة القرآن وحفظها، لأنّ هذه الأخيرة لا يحملها إلا من كان قلبه خاشعا مدركا لعظمة الله ، وبالتالي حق عليه أن يعبده حق عبادته من خلال الصلاة .

كما جاءت الحجج مرنة في دعوة الإنسان إلى التّمسّك بالزّاد الرّوحي ؛ لأنّه خير من ملذّات الحياة ، فهذا التنبيه على عبادة الله ، و أنّ الصّلاة فيها نجاة من النّار قد ورد ذكره منذ القدم في صحف إبراهيم وموسى، وعليه فقد كان هذا التّرتيب رائعا ومنطقيّا يتلاءم مع منطق الإنسان وعقله و بالتّالي التسليم بوجود الله واختيار ما هو أحسن و أبقى في الدّارين .

[1] – محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج 3 (3/ 547 – 548)

ب- تراتبية سلالم الموضوعات في السور المسبّحات ككل :

الملاحظ مما سبق ذكره أنّ هناك تناسقا موضوعيا عجيبا بين هذه السور، رغم انفراد كل سورة بفكرة ميّزتها عن غيرها ، نحو تميّز سورة الإسراء بطائفة من الآداب الخلُقية والاجتماعية التي تميّز بها أفراد المجتمع الإسلامي عن أفراد المجتمعات الأخرى ، كما تميّزت سورة الحديد أيضا بالدّعوة للتّمسّك بالتّشريع الإسلامي حتّى يكون المسلم ذا بأسٍ شديد عن الكافر، والغرض من بعث الرّسل في سورة الصّف، وأحكام صلاة الجمعة في سورة الجمعة، التّحذير من فتنة الأولاد في سورة التّغابن .وسورة الأعلى التي دعت إلى وجوب التّسليم بوجود الله وتسبيحه في كل الأمور.

وفي مقابل هذ ا الانفراد تترابط الأفكار بين السّور، ممّا يدلّ على ترابط وتسلسل محاور موضوعات القرآن واتّصالها ببعضها، وإن كانت من سور مختلفة . وعليه فقد اشتركت سور المسبّحات في موضوعات محددة – مع تفاوت بسيط – أهمّها :

-وجوب تسبيح الله والقتال، والإنفاق في سبيل الله، التّعريض بأهل الكتاب، وحقيقة الحياة الدّنيا وخطورة الانغماس في ملذّاتها وحقيقة البعث والحساب. ويمكننا تفصيل ذلك كما يلي:

الاستهلال بالتسبيح رغم اختلاف الصيغ، أدّى إلى ترتيبها ترتيبا لغويّا منطقيا مع الدّعوة إلى توحيد الله والإيمان بـه ونُصرة رسوله .

- تقرير البعث والحساب في خمس سور : الإسراء، الحديد، الحشر ، الصّف، والجمعة .

- الحديث عن بني إسرائيل (اليهود) و باطلهم في ستّة سور : فالإسراء تحدّثت عن تاريخهم، والحديد تحدّثت عن رهبانيتهم، أمّا الحشر فتحدّثت عن إخراجهم، والصّف تحدّثت عن خروجهم على نبيّهم موسى – عليه السّلام –، والجمعة زعمهم أنهم شعب اللّه أمّا التغابن فحكت عن اليهود السابقين وتهكّمهم بأنبيائهم.

- الحثّ على الإنفاق والتّرغيب فيه في خمس سور : الإسراء، الحديد، الحشر، الصفّ والتّغابن .

-التّشريع والفرائض في أربع سور : الإسراء، الحديد، الصّف ، والحشر .

والعجيب في الأمر أنّ هذه السّور لم تأت متتالية ومتابعة إذ بين كل واحدة وأخرى سورة أو سور، باستثناء الصفّ والجمعة، ولكن هناك ترتيب و تسلسل نستشفّه من نتائج تراتبية موضوعات كلّ سورة ويمكننا تمثيلها في السّلّم الآتي :

(ن) : وجوب تسبيح الله وتوحيده والإيمان برسوله ونصرة دينه

ق1 ـ التسليم بوجود الله واختيار ما هو أحسن و أبقى في الدّارين. (الأعلى).

ق2 ـ بيان قدرة الله وعظمته والدّعوة إلى الإنفاق في سبيله لإعلاء دينه . (التغابن).

ق3 ـ بيان منة اللّه على المؤمنين وتعليمهم أحكام صلاة الجمعة وتلبية ندائه.(الجمعة).

ق4 ـ صدق الولاء لله تعالى من خلال نصرة عقيدته و التمسّك بالجهاد سبيله.(الصّف)

ق5 ـ دعوة المؤمنين للتمسّك بالتشريع الإسلامي .(الحشر)

ق6 ـ نداء المؤمنين وأمرهم بتقوى اللّه واتّباع هدي رسوله. (الحديد) .

ق7 ـ إثبات نبوّة محمّد ﷺ (الإسراء).

يتبيّن من خلال هذا السلّم أن موضوعات سور المسبّحات مرتبة ترتيبا تصاعديا فسورة الإسراء تدعو إلى إثبات نبوّة محمّد ﷺ من خلال حادثة الإسراء والعظيمة، ومن ثمّ نادت سورة الحديد المؤمنين بتقوى الله واتّباع هدي رسوله ، من خلال إنزال الحديد كقوّة للإنسان في السّلم والحرب، لتحقيق العدالة، ومع ذلك أثبتت سورة الحشر أنّ قوّة الإيمان أكثر قوّة من الحديد ؛ ففيها بيّن الله نصرته للمؤمنين الذين هم أقلّ عدد وعُدّة من اليهود.

ومنه وجب على المؤمنين التّمسّك بالتشريع الإسلامي؛ حتّى يكونوا ذوي بأسٍ شديد على اليهود، وهذا لا يتأتّى إلاّ بصدق الولاء لله تعالى ومن ثمّ نصرة دينه من خلال الجانب المادّي ألا وهو: الجهاد في سبيل الله وهذا ما دعت له سورة الصّف. ثم ركّزت سورة الجمعة عن الجانب الرّوحي الإيماني في صلاة الجمعة وتعليم أحكامها، فجاءت سورة التغابن تعالج أصول العقيدة الإسلامية بالمزاوجة بين الجانب الروحي والمادّي، محذّرة مما تحصل به النّدامة والغبن يوم القيامة ، داعية للإنفاق في سبيل الله لأنّه طريق الفلاح المنشود الذي به نصل إلى التسليم بوجود الله واختيار ما هو أحسن و أبقى في الدّارين، وهذا ما أكّدت عليه سورة الأعلى .

4-تراتبيّة الحوار الحجاجي في السّور المسبحات :

الحجاج هو جوهر الحوار والحوار قالبه ومظهره، وهذا الأخير يعطي القوة للمضمون الذي نسعى لإيصاله، وجاء القرآن الكريم ليعلم الإنسان كيف يكون الحوار طريقا للفكر والعقيدة والعمل ، ويصل إلى قناعته بالأسلوب الرّاقي والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن، وذلك من خلال محاورته على أساس الحجّة والبرهان والدّليل .وعليه قد اتّخذ الحوار في هذه السّور أشكالا متنوعة، فمنها ما قام على الجدل، ومنها ما قام على تقديم الأدلّة والبراهين، ومنها ما قام على الاحتجاج في إقناع المخاطب بالفكرة المطروحة بتقديم الحجج القويّة التي بدورها تجعل المخاطب قليل الحجّة أو لا حجّة له .

وسنحاول الوقوف عند أهم مواطن الحوار التي وردت في السّور المسبحات متتبعين استراتجية الحجاج وآلياته التي استخدمها المتحاورون في حواراتهم ومدى تراتبيتها .

4-1-خطاب الله عزّ وجل مع الرّسول ﷺ:

قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣ ﴾[الإسراء: 42-43]

فكرة الحوار : رفض الشّرك من خلال التّفكير العقلي .**وغرضه** :إثبات وحدانيّة الله .

أعرض الله سبحانه وتعالى عن المشركين ووجه لهم خطاب غير مباشر « فالمخاطب بالأمر بالقول هو النّبيﷺ لدمغهم بالحجّة المقنعة بفساد عقولهم » [1] ؛ أي قل للمشركين الذين يعتقدون أنّ هنالك آلهة أخرى مع الله أن يحكّموا عقولهم ويتدبروا في خلق هذا الكون لأنّ أكثر من إله يعني تعدد في مجال الخلق ، إذن هناك حرّية تصرّف فيه، وهذا يؤدي إلى وجود صراع وتنافس بين الآلهة . فالنّتيجة الحتميّة التي يقود لها العقل هي نفي وجود آلهة غير الله .

[1] – ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، (110/15)

وقد استُخدمت روابط حجاجيّة متنوعة في هذا الحوار وهي (لو، إذا) التي قوّت الحجّة في الحوار بل ألقت الحجّة الكافية على المشركين حتى لا سبيل للشرك، فحجتهم باطلة فكما يقول النّحاة « (لو) حرف امتناع لامتناع، فالقضيّة كلّها ممتنعة وليس هنالك آلهة مع الله »[1].ويقول ابن عاشور :« "إذن" دالة على الجواب والجزاء، فهي مؤكدة لمعنى الجواب الذي تدل عليه اللام المقترنة بجواب "لو" الامتناعيّة » [2]

2-4 - حوار الكافرين مع الرّسول ﷺ حول يوم البعث :

قال تعالى :﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ ﴾[الإسراء: 49-52] .

فكرة الحوار : استبعاد الكافرين ليوم البعث .و**غرضه** :إثبات وجود يوم البعث وتأكيد قدرة الله التي لا شيء يصعب عليها .

يحاور الكفّار الرّسول ﷺ باستبعادهم حقيقة بعثهم بعد موتهم، وبعد أن يصبحوا ترابا وعظاما، وعلى رأي ابن عاشور يجوز أن تكون جملة " وقالوا " معطوفة على﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾« لقصد استئصال ضلالة أخرى من ضلالاتهم بالحجّة الدّامغة بعد استئصال التي قبلها بالحجّة القاطعة »[3] والاستفهام في بداية الآية هو «استفهام تعجب وإنكار واستبعاد »[4]؛أي غير حقيقي، لا يراد به الاستعلام عن شيء مجهول، بل هو إنكار

[1] – سيد قطب، في ظلال القرآن، (2230/15)

[2] – ابن عاشور، التّحرير والتّنوير : (110/15 /111)

[3] – نفسه : (123/ 15)

[4]– أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تح : عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط1 –1993م ، (41/6)

واستبعاد أن يُبعث الإنسان بعد أن يصبح عظاما و رفاتا، وجوابا عن إنكارهم أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيبهم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

استخدم في هذا الحوار موجودات طبيعية كونيّة يلتمسها الكافرون وهي الحجارة والحديد التي في نظرهم من أقوى الأشياء والأجسام البعيدة عن الحياة لأنّ « العظام والرّفات فيها رائحة البشرية وفيها ذكرى الحياة، والحديد والحجارة أبعد عن الحياة»[1]، والمعنى في ذلك «أنّكم مبعوثون سواء أكنتم عظاما ورفاتا أم كنتم حجارة أم حديدا، تنبيها أن قدرة الله لا يتعاصى عليها شيء »[2]

وقوله تعالى :﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾[الإسراء: 51 أي كونوا ممّا يُستبعد إحياؤه ويكبر في نظركم أن تعود الحياة إليه، فهذا الحوار من قبيل تعجيز الكافرين وإثبات قدرة الله تعالى الذي لا يعجزه شيء .، ثمّ انتقلوا إلى الحوار الجدلي الذي يتضمن السّؤال عن المعيد ، أي إذا أسلمنا أن العظام بعد أن تتلاشى تعود إليها الحياة فمن يستطيع إعادة الرّوح إليها ؟ فـ (من يعيدنا) «استفهام تهكمي »[3] .

يراد به التّشكيك من قدرة الله، فيأتي الجواب حول شكّهم ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وهذا يعني أنّ اللّه ألقى الحجّة على الكافرين بأنّهم كانوا من قبل ترابا، والذي خلقكم من التّراب مرّة يستطيع أن يخلقكم منه مرة أخرى . ثمّ ينتقل الحوار إلى شك آخر بسؤالهم عن زمن هذا اليوم في قوله﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾أي يحركونها علوا أو سفلا استبعادا لهذا الحادث واستنكارا [4]، فجاء الجواب في قوله: ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ أي أنّ يوم البعث قد يكون قريبا .« فالرّسول لا يعلم موعده تحديدا، لكن لعله أقرب مما يظنون، وما أجدر أن يخشوا وقوعه وهم في غفلتهم يكذبون ويستهزئون »[5]

---

[1]-سيد قطب، في ظلال القرآن، (2233/15)

[2]-ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، (125/15)

[3]-نفسه، (128/15)

[4]-ينظر : سيد قطب، في ظلال القرآن، (2233/15)

[5]- نفسه، (2233/15)

4-3- خطاب الله عزّ وجل الحواري مع إبليس :

قال الله تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾[الإسراء: 61-65]

فكرة الحوار : هي عدم سجود إبليس لآدم وعصيانه لأمر الله عزّ وجل وتوعده لإضلال النّاس وجرّهم إلى الغواية .و**غرضه** :كشف أسباب الغواية الأصلية التي تقود النّاس إلى الكفر والطّغيان

طلب الله من الملائكة أن يسجدوا لآدم تكريما له، وكان إبليس من بينهم، لكنّه رفض واستكبر وحجّته في ذلك هو جوابه إلى الله ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾« وهو استفهام بمعنى الإنكار، أي كيف أسجد له وأنا أفضل منه، وأصلي أشرف من أصله ؟ وفي هذا دلالة على أن إبليس فهم من ذلك تفضيل آدم على الملائكة »[1] وحجّته في ذلك خلق آدم من طين فهو يظن أنّ النّار أشرف من الطّين . وبعد هذا الرّفض والتكبر، طلب من الله يجعله من المُنظرين وكأنّه أراد القول :« أرأيت يارب هذا الذي فضلته علي، يعني آدم، لئن أخرت أجل موتي لأغوين ذريته وأقودنهم معي إلى المعاصي، كما تقاد الدّابة بحنكها ... إلا الذين تعصمهم وهم المخلصون.» [2]وهنا موضع الحقد الذي أصابه من جرّاء طرده من الجنة، وقد تمت الموافقة على طلبه بأن يبقى ويعطي إمكانية تحقيق الوسوسة لاختبار المؤمنين المخلصين .

[1] – أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ، (6/ 204)

[2] – نفسه ، (6/ 204)

وقد ذكرت الآيات السّابقة روابط حجاجيّة كثيرة منها (إذ، إلا، إن، واو العطف الاستفهام الإنكاري) وكلّ هذه الرّوابط استخدمت في توسيع الحوار وتقويته وإعطائه صفة السّهولة في إيصال المعنى للمخاطب .

4-4- حوار الكافرين مع الرّسولﷺ:

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ ﴾[الإسراء: 90-93]

فكرة الحوار: مطالبة المشركين في قريش من الرّسول ﷺ تحقيق خوارق ومعجزات مقابل إيمانهم .و**غرضه** : بيان موقف المشركين من الدّعوة إلى التوحيد والمتمثل في تعنتهم وعنادهم ومطالبتهم من الرّسول ما ليس من خصائص البشر، وعليه نزّه الله نفسه ونبيّه من أن يكون شريك له .

يجسد الحوار مشهد اجتماع صناديد قريش مع الرّسول ﷺ، في ترك دينهم وتوحيد الله وعبادته ؛ فأرغبوه بالمال والرئاسة والملك، فأبى فاقترحوا عليه الآيات السّت التي ذكرها الله هنا .[1] لقد بدأ المشركون الحوار مع الرّسول الكريم ﷺ بنفي الإيمان نفيا لا رجعة فيه إلّا بعد تنفيذ مطالبهم التعجيزية التي طلبوها، وكان الهدف من ذلك هو الاستمرار في دينهم وعدم ترك عبادة الأوثان .

والحوار فيه « انتقال من تحديه بخوارق فيها منافع لهم إلى تحديه بخوارق فيها مضرتهم» [2] ؛ فالنّافع فيه مثل :الينبوع والجنة والنخيل والعنب ... والضار مثل :سقوط السّماء عليهم قطعا .«وتبدو طفولة الإدراك والتّصور، كما يبدو التّعنت في هذه المقترحات السّاذجة، وهم يسوون بين البيت المزخرف والعروج إلى السّماء ...فإذا جاءهم بها نظروا في

[1]– ينظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط ، (88/6)

[2] –ابن عاشور، التّحرير والتّنوير (209/15)

الإيمان له والتّصديق به»[1] .ومن الواضح في كلامهم أنّهم كانوا يعتبرون المعجزة من فعله ﷺ، لذا نسبوا إليه جميع الأعمال مثل قولهم ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا﴾، ﴿ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا ﴾لذا جاء الجواب ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ لتنزيه الله أولا، ثم إزالة كل هذه المعتقدات والأوهام من عقولهم، ويثبت لهم الرّسول ﷺ بأنه ليس هو الله ولا هو شريكه، والمعجزة من الله دون سواه، وأنه بشر مثلهم .[2]

وقد استخدم الحوار أساليب وروابط حجاجيّة متنوعة منها، استخدام المشركين بعض الألفاظ التي تدل على الموجودات والمحسوسات الكونيّة بغرض تقريب المعاني للمخاطب فذكرت الآيات الأرض والسّماء والينبوع والجنة والنّخيل والعنب والأنهار والملائكة والبيت والزخرف، كما استخدم التوكيد بالمفعول المطلق " تفجيرا"، أسلوب الحصر في قوله : ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ الذي يؤكد بشرية الرّسول ﷺ، والاستفهام المسبوق بالتعجب في كلمة " سبحان" استفهام إنكاري توبيخي أنكر على المشركين طلباتهم .بالإضافة إلى الرّبط "حتى " التي أسهمت في قوة الحوار الحجاجي .

4-5 - الحوار بين فرعون وموسى عليّه السّلام :

قال تعالى :﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾[الإسراء: 101-102]

فكرة الحوار :عرض التّخاصم بين موسى عليه السلام وفرعون في دعوته .و**غرضه** :بيان وتذكير بأنّ قوم موسى عليه السلام جاءتهم البينات والمعجزات ولم يؤمنوا ؛ وهذا ينطبق على قوم محمد ﷺ لذلك لم يستجب الله لطلباتهم .

[1] – سيد قطب، في ظلال القرآن (2250/15)

[2] – ينظر :ناصر مكارم الشّيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المُنزل، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت ، لبنان ، ط1 -2013م ، مج7، (369/13)

الخطاب موجه إلى الرّسول ﷺ، أمره الله أن يسأل المؤمنين من بني إسرائيل عن المعجزات التسع التي جاء بها النّبي موسىعليه السلام والغرض من ذلك أن تكون الحجّة عليهم أبلغ [1]وهذه المعجزات هي « بياض يده كلما أدخلها في جيبيه وأخرجها ، وانقلاب العصا حيّة، والطوفان ، والجراد ، والقمل، والضفادع، والدّم، والرجز وهو الدمل، والقحط وهو السّنون ونقص الثمرات »[2].

وهذه الآيات جاءت كردّ للحوار السّابق الذي طلب فيه المشركون الخوارق التّعجيزيّة من الرّسول ﷺ، والمقصود بها أنّ الله أتى موسى عليه السلام آيات بينات للدّلالة على صدقه فلم يهتد فرعون وقومه، وزعموا ذلك سحرا، ففي ذلك مَثَلٌ للمكابرين كلّهم وما قريش إلّا منهم وحجّة عليهم .[3] واتهام موسى بالسّحر هو أسلوب تحريضي استخدمه فرعون وقومه « عنادا ومكابرة وكبرياء »[4].

وبعد ذلك جاء الرّد من نبي الله موسىعليه السلام على اتهامه بجملة مؤكدة بتوكيدين هما لام القسم، وحرف التّحقيق، في قوله :﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ وهذه دلالة واضحة على علم ومعرفة فرعون بالأمر الذي جاء به موسى عليه السلام، لكنّ كبرياءه حال دون إيمانه، وهي ليس جملة إخباريّة بل هي جملة حجاجيّة لإنكار فرعون لذلك، وقد جاء ردّ موسىعليه السلام مشابها لقول فرعون مقارعة له وإظهارا لعدم خوفه منه، وأنّه يعامله معاملة المثل حيث قال :﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ والمثبور الذي أصابه الثبور وهو الهلاك .[5]

يتبين من خلال هذا الحوار مدى حجاج فرعون المغالط ؛لأنّه على يقين بأنّ موسى عليه السلام مرسل من الله وما جاء به من آيات مبصرات إنّما هي معجزات أيده الله بها، ولهذا

[1]– ينظر : أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ، (228/6)

[2] – ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، (225/15)

[3] – ينظر : نفسه، (224/15، 225)

[4] – نفسه : (226/15)

[5] – ينظر، نفسه : (228/15)

اضطر لمغالطة النّاس في هذه الحقيقة وهي شكل من أشكال الحجاج .وهي دليل على هزيمة فرعون أمام حجج سيدنا موسى عليه السلام .

واعتمد الحوار على بعض العوامل الحجاجيّة التي عملت على تقوية الحجج وهي (اللام ، قد، إنّ) .

4-6-حوار المنافقين مع المؤمنين يوم القيامة :

قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾[الحديد: 13-14]

فكرة الحوار : تصوير مشهد من مشاهد يوم القيامة بين المنافقين الذين يعشون في حيرة وضلال متعلقين بأذيال المؤمنين يطلبون الاستضاءة ، والمؤمنين الذين يتمتعون بنور الجنة المحرم على المنافقين .و**غرضه** :استخلاص ما أعده الله للمؤمنين من نور ورحمة يوم القيامة، وخسارة المنافقين بما أعده الله لهم من عذاب وضلال .

يبدأ الحوار بطلب المنافقين والمنافقات من المؤمنين السّماح لهم بالاستضاءة من نورهم ليتخلصوا من الظلام الذي أحلّ بهم، لكن الجواب جاء بالرّفض، فلا نور لكم أيّها المنافقون فهذا نور المؤمنين جزاء إيمانهم، لذلك قيل لهم ارجعوا إلى الوراء عسى أن تجدوا النّور الذي تطلبونه، وهذا القول من باب التّهكم والسّخرية بالمنافقين « وإنّما أرادوا إطماعهم ثمّ تخييبهم بضرب السّور بينهم وبين المؤمنين، لأن الخيبة بعد الطّمع أشد حسرة وهذا استهزاء كان جزاء على استهزائهم بالمؤمنين واستسخارهم بهم .»[1]

أمّا الاستفهام الوارد في الآية فهو استفهام تقريري استعمله المنافقون لاستعطاف المؤمنين حتّى يكونوا معهم كما كانوا في الدّنيا سويّة، وقد اعترف المؤمنون بهذا التّواجد

[1]-ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، (383/27)

بجواب الاستفهام بكلمة " بلى " لكنّهم ذكروا أربعة أسباب أدت إلى خسرانهم، وهي « فتنة أنفسهم والتّربص بالمؤمنين، والارتياب في صدق الرّسولﷺ، والغرور بالأماني »[1] .

4-7-حوار الشّيطان مع الإنسان :

قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧ ﴾ [الحشر: 16-17]

فكرة الحوار: تشبيه المنافقين بالشّيطان وانخداع الإنسان بمكر وحيل الشّيطان .

و**غرضه**: التحذير من التعامل مع المنافقين ومن إغراء الشيطان

ذكرت السّورة المنافقين الأشرار، الذين تحالفوا مع اليهود ضدّ الإسلام وضربت لهم أسوأ الأمثال، فمثلتهم بالشّيطان ؛ومفاد ذلك « مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال كمثل الشّيطان الذي أغرى الإنسان بالكفر ثمّ تخلى عنه وخذله ...لما كفر تبرأ منه الشّيطان »[2] وهي الصفة التي تشارك فيها المنافقون مع الشّيطان(التبرؤ من أنصارهم عند الحاجة) وقد بينت الآية سرعة استجابة الإنسان لوساوس الشّيطان باستعماله الفاء الدّالة على الترتيب والتعقيب في قوله "فلمّا كفر"، ثمّ يأتي العقاب لكليهما ؛ أي للشيطان وللإنسان الذي كفر بالله .

ويعدّ التّوكيد من الأساليب الحجاجيّة التي استعملت في هذه الآية حيث جعل المعنى أكثر تثبيتا في نفوس السّامعين ، ومن أدواته المستعملة "إنّي"، فقد استخدمها الشّيطان في موضعيْن: كان الأول ليؤكد به براءته من الكافرين والثّاني لتوكيد مخافته من الله .

---

[1]- ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، (385/27)

[2]-محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج3(354/28)

4-8-حوار عيسى بن مريم مع بني إسرائيل :

قال الله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الصف: 6]

فكرة الحوار :التّبشيربنبوة الرّسول ﷺ .**وغرضه** : إثبات أنّ عيسى بن مريم رسول إلى بني إسرائيل والإخبار والتّبشير بمجيء خاتم الأنبياء والرّسل .

الحوار في الآية المباركة يبين أنّ عيسى عليه السلام قد جاء مرسلا لبني إسرائيل، وهذا يعني محدوديّة رسالته ، ثمّ يبشر برسول يأتي بعده يذكر اسمه وهو أحمد .وفي هذه الحقائق دعوة من القرآن الكريم إلى أهل الكتاب ليؤمنوا بهذا النّبي المرسل خصوصا بعد ذكر اسمه .أي « واذكر يا محمد لقومك هذه القصّة حين قال عيسى لبني إسرائيل إنّي رسول الله أرسلت إليكم بالوصف المذكور في التّوراة ...وجئت لأبشركم ببعثة رسولٍ يأتي بعدي يسمى " أحمد "»[1] . وقد استخدم الحوار النّداء للتّنبيه، و "إنّ" لتأكيد الرّسالة ونفي كلّ الأقاويل التي قيلت فيه من إدعائه الأُلُوهيّة أو أنّه ابن الله .وبالرّغم من كلّ هذه الحقائق التي كانت مطابقة للصفات الموعود بها قالوا هذا سحر مبين [2] .

4-9-حوار عيسى بنمريم عليه السلام مع الحواريين :

قال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[الصف: 14]

فكرة الحوار :إعانة الرّسولﷺ ونصرة مبادئه وعقيدته .و**غرضه** : توجيه الخطاب للمؤمنين وأمرهم بنصرة الدّين .

---

[1]- محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج3(371/28 ، 372)

[2]-ينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير ، (187/28)

الخطاب في البداية موجه للذين آمنوا، وفي هذا الخطاب أمر لهم بنصرة الدّين بل هو أمر بالدّوام على هذه النّصرة والثّبات عليه، ثمّ يأتي التّشبيه « والتّشبيه بدعوة عيسى بن مريم للحواريين وجواب الحواريين تشبيه تمثيل، أي كونوا عند ما يدعوكم محمد ﷺ إلى نصر الله كحالة قول عيسى ابن مريم للحواريين واستجابتهم له »[1] ؛ أي يجب عليكم أيّها المؤمنون أن تنصروا محمدا ﷺ ،كما فعل الحواريون عندما نصروا عيسىعليه السلام، والاستفهام في الآية المباركة ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ وهو استفهام حقيقي يراد به معرفة أنصار الله واختبارهم.

وبعد هذا السّؤال يأتي الجواب مباشرة وبدون تأخير من الحواريين﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ فخصّصوا نصرة الدّين لأنفسهم ، وكأنّه لا ناصر للديّن غيرهم[2]. ثمّ ينتهي الأمر بعد ذلك إلى انقسام النّاس طائفتين ؛ طائفة مؤمنة بسيدنا عيسى عليه السلام ' وأخرى تكفر به والله أيّد الذين آمنوا ونصرهم على عدّوهم بعد أن كانوا مضطهدين، « والتّأييد النّصر والتّقوية ... والمقصود من هذا الخبر وعد المسلمين الذين أمروا أن يكونوا أنصارا لله بأنّ الله مؤيدهم على عدوهم »[3]، و ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ « أي حتى صاروا غالبين عليهم بالحجّة والبرهان »[4] وفسر ابن عاشور معنى ظاهرين أنّهم « منصورون لأنّ عاقبة النّصر كانت لهم فتمكنوا من الحكم في اليهود الكافرين بعيسى ومزقوهم كلّ ممزّق »[5] .

ومن العوامل الحجاجيّة التي استخدمت في هذا الحوار التّشبيه لتقريب المعنى وإيضاح الفكرة، كما استخدم التّقابل في قوله تعالى : ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ ﴾ و﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ ويتضح التّقابل بين لفظتي الإيمان والكفر .

فالمتأملُ في هذه الحوارات يلمس تسلسلها وتراتبيتها وكأنّها واردة في سورة واحدة ، رغم تفرقها بين السّور ؛ فبدأ في الحوار الأول والثّاني باستئصال الضلالات بالحجج الدّامغة على التوالي، لإثبات وحدانيّة الله أولا ثمّ إثبات يوم البعث، أمّا الحوار الثّالث كشف أسباب الغواية

---

[1]- ابن عاشور، التّحرير والتّنوير ، (199/28)

[2]-نفسه : (202/28)

[3] – نفسه :(203/28)

[4] – محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، مج3(375/28)

[5] – السّابق : (203/28)

الأصلية والوقوع في مثل هذه الضلالات التي تقود النّاس إلى الكفر والطّغيان ألا وهو الشّيطان، والحوار الرّابع حقق ما توعده إبليس لبني آدم الذين استجابوا له، فبين الحوار موقف المشركين وإنكارهم للتوحيد و تعنتهم وعنادهم ومطالبتهم من الرّسول ما ليس من خصائص البشر، وعليه نزّه الله نفسه ونبيّه من أن يكون شريك له .

أمّا الحوار الخامس جاء لبيان سبب عدم استجابة الله لطلبات المشركين السّابقة قياسا على ما حدث مع قوم موسى عليه السلام الذين لم يؤمنوا رغم استجابة الله لطلباتهم، وهذا ينطبق على قوم محمد ﷺ لذلك لم يستجب لهم .و الحوار السّادس: نزل إلى منزلة المنافقين والنّفاق من أهداف الشّيطان أيضا، فصور لنا مشهدا من مشاهد يوم القيامة بين المنافقين والمؤمنين نستخلص من خلاله الجزاء والعقاب أي ؛ما أعده الله للمؤمنين من نور ورحمة يوم القيامة، وخسارة المنافقين بما أعده الله لهم من عذاب وضلال .

و الحوار السّابع يجمع بين المنافقين والشّيطان، حيث يشبه الله المنافقين بالشّيطان لأنّ كليهما يتبرّأ من أنصاره وقت الحاجة . فجاءت الآية لتحذر من النّفاق والمنافقين وإغراء الشّياطين .وتلاه الحوار الثّامن كحجّة على الكفار والمنافقين ليثبت لهم صدق الدين الجديد " الإسلام " انطلاقا من الدّين السّابق " ما جاء به عيسى عليه السلام " ويصححه . حيث أثبتت الآية أنّ عيسى بن مريم رسول إلى بني إسرائيل ونفت عنه الأُلُوهيّة أو أنّه ابن الله وبشرت بمجيء خاتم الأنبياء والرّسل . والاحتجاج بما ورد في التّوراة من أقوى الحجج التي تبكت الكفار . وبعد إثبات نبوة محمد ﷺ جاء الحوار التّاسع ليحث على دوام نصرته ؛ ففي الآية توجيه صريح للمؤمنين بإعانة الرّسول ﷺ ونصرة مبادئه وعقيدته كما نصر الحواريون عيسى عليه السلام .

وترمي هذه الحوارات إلى نتيجة واحدة وهي الإيمان بالله ورسوله ونصرة الدّين . ويمكن أنّ نمثل هذه الحوارات في سلّمين ؛ سلّم لحوارات سورة الإسراء ؛لأنّها تضمنت أغلب الحوارات على غرار السّور الأخر وسلّم للحوارات ككل :

1- تراتبيّة الحوار في سورة الإسراء

(ن) الإيمان بالله ورسوله

ق1 إثبات وحدانية الله
ق2 – إثبات وجود يوم البعث
ق3 – كشف أنّ الشّيطان هو سبب الوقوع في الكفر والطّغيان
ق4 – استجابة المشركين لأهداف الشّيطان فتعنتوا وعاندوا وطلبوا من الرّسولﷺ المعجزات
ق5 – بيان عدم الاستجابة لمطالب المشركين قياسا على ما حدث لقوممموسىعليه السلام

ويلاحظ أنّ موضوع الحوارات غير مكتمل فجاءت السّور المتبقيّة لتكمله، وهو ما يدّل تعالق السّور المسبحات، وأنّ هذا القرآن معجز بألفاظه ومعانيه، وهو ما يستدعي تسبيح الله تعالى .

3- تراتبيّة الحوار في السّور المسبحات

(ن) الإيمان بالله ورسوله ونصرة الدّين

ق1 – إثبات وحدانية الله
ق2 – إثبات وجود يوم البعث
ق3 – كشف أنّ الشّيطان هو سبب الوقوع في الكفر والطّغيان
ق4 – استجابة المشركين لأهداف الشّيطان فتعنتوا وعاندوا وطلبوا من الرّسولﷺ المعجزات
ق5 – بيان عدم الاستجابة لمطالب المشركين قياسا على ما حدث لقوم موسىعليه السلام
ق6 – تحقيق المنافقين لغايات إبليس يؤدي إلى خسارتهم وعذابهم
ق7 – تشبيه المنافقين بالشياطين في التّخلي عن أنصارهم والتّحذير من النّفاق .
ق8 – إثبات نبوة الرسولﷺ انطلاقا لما بشّر به عيسى عليه السّلام
ق9 – نصرة الدّين

5-تراتبية أسماء الله الحسنى في السّور المسبّحات :

كلّ ما في القرآن الكريم من تمجيد الله عزّ وجل لنفسه العليّة، وبيان قدرته وعظمته والحديث عن آياته وآلائه وقوته وجبروته سبحانه وتعالى، وذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلى كلّ ذلك يدخل في تسبيح الله عزّ وجل لنفسه وهذا ما ورد في السّور المسبحات، وبما أنّ أسماء الله الحسنى وصفاته العلى تعرّف بالله عز وجل فإنّه الموضوع المحوري لسور القرآن وحضوره واضحا فيه، فيا ترى ما مدى حضورها في السّور المسبحات ؟وهي أليق بها لأنّها تنزه الله عن كلّ صفات النّقص . ولمعرفة ذلك قمنا بالإحصاء المدون في الجدول الموالي :

السور / أسماء الله الحسنى	الإسراء	الحديد	الحشر	الصفّ	الجمعة	التغابن	الأعلى	العدد الكلّي
الرّحمان	1		1					2
الرّحيم	1	2	2			1		6
الملك			1		1			2
القدّوس			1		1			2
السّلام			1					1
المؤمن			1					1
المهيمن			1					1
العزيز		2	3	1	2	1		9
الجبّار			1					1
المتكبّر			1					1
الخالق			1					1

البارئ			1					1
المصوّر			1					1
العليم		2			1	2		5
السّميع	1							1
البصير	4	1				1		6
الخبير	3	1				1		5
الحليم	1					1		2
الغفور	2	1				1		4
الشّكور						1		1
الحكيم		1	2	1	2	1		7
الشّهيد	1							1
الوكيل	3							3
القويّ		1						1
الحميد		1				1		2
القادر		1	1			1		3
الأوّل		1						1
الآخر		1						1
الظّاهر		1						1
الباطن		1						1
الرّؤوف		1	1					2
الرزاق					1			1
الغنيّ		1				1		2

الأعلى						1	1
العدد الكلّي	17	19	20	2	8	13	1	80
النسبة المئويّة	21.25 %	%23.75	%25	%2.5	%10	16.25 %	1.25 %	

بعد تأمل الجدول نجد تفاوتا في عدد تواجد أسماء الله الحسنى في السّور المسبحات كما نجد تفاوتا في نوع الأسماء في حدّ ذاتها، ولعل ذلك يعود إلى أغراض وطبيعة مواضيع تلك السّور ؛ فنجد سورة الحشر احتلت المرتبة الأولى حيث جمعت عددا كبيرا من أسماء الله الحسنى يقدر بعشرين اسما، وكيف لا وكلّ ما فيها يدل على الجمع، فأول عمل قام به الرّسولﷺ هو جمع تلك القلوب المختلفة من يهود ونصارى ووثنيين على هدف واحد وهو العيش في حدود الوطن بأمن وسلام واحترام للاختلافات الموجودة بينهم .

ولكنّ يهود بني النضير نقضوا المعاهدة، فآتاهم الجمع الثاني وهو جمعهم وحشرهم وإخراجهم من المدينة بتأييد من الله ونصره في حرب سلاحه الإيمان القوي الثّابت . كما أنّ السورة افتتحت بإعلان على أنّ جميع ما في الكون سبح لله ونزهه عن كلّ صفات النّقص واختتمت بالتّسبيح، فكان لابد من أنّ يتوسط التسبيحين صفات الكمال والجلال والجمال لله وحده، ليؤكدّ لهذا الإنسان المخلوق أنّ عبادة التسبيح عبادة عظيمة لا ينبغي أنّ يتوقف عليها فيسبح بأقواله وأعماله الصّالحة معلنا أنّ لا خالق يستحقّ التّسبيح والتّنزيه والتّعظيم إلّا هو سبحانه.

ثمّ تليها سورة الحديد التي احتوت على تسعة عشر اسما . تحدثت السورة عن «إنزال الكتاب ووضع الميزان ليقوم النّاس بالقسط، وهذه العدالة تحتاج قوة الحديد وبأسه الشّديد فالمفسد يحارَب بسبب إفساده والمصلح يُعَانُ بسبب إصلاحه»[1].كما بيّنت عظمة الخالق المتفرّد بالجلال والكمال، المتفضل بالنّعم، له الأمر والنّهي، تدين له المخلوقات جميعا

[1]– عدلي الخطيب، تسهيل فهم وتدبر سور القرآن ، دائرة المكتبة الوطنيّة – المملكة الأردنيّة الهاشميّة، دط– 2018، ص 1362

وتسبح بحمده، وفيها أمر للناس بالإيمان بالله سبحانه واتباع رسله، و الإنفاق في سبيله ومناصرة الحقّ، ومجاهدة الباطل بالمال والنّفس، وهذه المعاني نستشرفها من خلال التّأمل في عدد تكرارات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى في السّورة . فمعرفة أسماءه وصفاته تعين العبد على التّعرف على الله وحسن التّوكل عليه .

ثمّ تليها في المرتبة الثّالثة سورة الإسراء، والتي رغم طولها لكنّا اشتملت على سبعة عشر اسما و من المحاور الأساسية لها هو تنزيه الله عن كلّ ما لا يليق بكماله وجلاله وعظيم سلطانه، وهذا جليّ من خلال عدّة أمور منها : ذِكْر حادثة الإسراء العظيمة التي أيد الله بها رسوله وجعلها حجّة لصناديد قريش الذين طلبوا وقوع المعجزات . وهذه الحادثة دالة على قدرته سبحانه و تعالى. بالإضافة إلى أنّها من أكثر السّور التي ورد فيها التسبيح بصيغه المختلفة ، كما ابتدأت بالتسبيح واختتمت بتنزيه الله عن الولد والشّريك في الملك وهذا السّياق يفرض وجوب التّنزيه من خلال ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العلى .

ثمّ تأتي في المرتبة الرّابعة سورة التّغابن، والتي اشتملت على ثلاثة عشر اسما بدأت السّورة بتسبيح كلّ المخلوقات لله المستحق للتّسبيح وحمده ؛ فهو الخالق بالحقّ والمصور وإليه المصير، أمّا النّاس فهم تجاه رسالة ربّهم مخيرون بعبادته، ولذلك انقسموا إلى فريقين ؛ فريق مؤمن وفريق كافر، وفي ذلك دعوة للنّاس بصفة عامة للإيمان، لأنّه خاطب بعدها الذين لا يؤمنون وبين لهم أنّ الأمم السّابقة أهلكت بسبب رفضهم للإيمان وذلك في قوله تعالى :﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [التغابن: 4-5] وحذرهم من اليوم الذي سيجمعون فيه وأكد لهم بأنّه حقيقة، تمّ خاطب الذين آمنوا بأن يطيعوا الله ورسوله وحذرهم من أن يكون أولادهم وأزواجهم فتنة لهم وحثهم على الإنفاق .

وفي المرتبة الخامسة نجد سورة الجمعة التي اشتملت على ثمانية أسماء؛ فافتتحت بإعلام بأنّ معرفة أسماء الله والانشغال بتسبيحه من أعظم نعمة على مخلوقاته، وتوسطها تقبيح حال المكذبين، وختمت بأمر المؤمنين بتلبية النّداء لصلاة الجمعة وما فيها ذكر وترك البيع لأنّ في ذلك خيرهم وفلاحهم .

وتليها سورة الصّف في المرتبة السّادسة التي اشتملت على اسمين فقط، والتي تتحدث عن موضوع الجهاد الذي لم يفرض على الأمّة المؤمنة إلا في المدينة المنورة ، ثمّ سورة الأعلى في المرتبة الأخيرة حيث اشتملت على اسم واحد فقط من أسماء الله الحسنى والتي أمر فيها الله تعالى نبيّه بالتّسبيح .

المتأمل لهذه المواضيع يجد أن ذكر أسماء الله الحسنى له علاقة بالمخاطب في السورة ومدى احتياجه للتعريف بالله، فالمتحدث عنهم في سورة الحشر هم يهود بني النّضير الذين دخلوا في حرب مع الله ورسوله فكان لابد أنّ يأيتهم التعريف بالله على هذا الحال ، ليبين الله قدرته على هزيمتهم ونصرة المؤمنين .ولهذا لابد أن تسبحه كلّ المخلوقات .

أمّا في سورة الحديد فالمخاطب عامة النّاس وحثهم عن الإيمان وعلى السّباق في العمل الصّالح ودعمهم بقوة الحديد لتحقيق العدل ، ولتحقيق ذلك لابد من التّعريف بالله من خلال أسماءه الحسنى وصفاته العلى . أمّا سورة الإسراء ففيها تخصيص من عامة النّاس إلى كفار قريش الذين كانوا يكفرون برسالة محمد ﷺ ويطلبون منه المعجزات، فجاءت الحادثة لتأييد النّبي ﷺ لبيان قدرته تعالى وتنزييه عن صفات النقص ؛ وذلك من خلال ذكر أسماءه الحسنى .ثمّ تليه سورة التّغابن والمخاطب فيها عامّة النّاس مثل الحديد، ولعل تفسير احتواء سورة الحديد عن أسماء أكثر في أنّها تبين إنزال الكتاب ووضع الميزان ليقوم النّاس بالقسط فمعرفة الله من خلال كتابه وتحقيق عدالته بقوة الحديد أسبق من يوم التغابن .

ثم تأتي سورة الجمعة التي تخاطب المؤمنين الذين يعرفون الله حقّ معرفته وتحثهم على تلبية النّداء لصلاة الجمعة، ثم تأتي سورة الصّف وهي كذلك تخاطب المؤمنين وتحثهم على الجهاد وهذا دليل على أنّهم أكثر إخلاصا من المؤمنين الذين حثهم عن تلبية أداء صلاة الجمعة، ثمّ تأتي آخر سورة لتخاطب الرّسول ﷺ والذي لا نستطيع مقارنته في معرفته بالله أحد من البشر .

وعليه يمكن رسم السّلم الآتي :

(ن) معرفة الله حقّ المعرفة من خلال أسماءه الحسنى

ق1 ـ الحشر
ق2 ـ الحديد
ق3 ـ الإسراء
ق4 ـ التّغابن
ق5 ـ الجمعة
ق6 ـ الصّف
ق7 ـ الأعلى

أمّا بالنّسبة **لأنواع الأسماء** فنجد اسم الله " العزيز " يتصدرهم، فقد ذكر تسع مرات ويليه اسم " الحكيم " الذي ذكر سبع مرات، ثم "البصير و الرّحيم " (ست مرات)، ثمّ " الخبير ، العليم" (خمس مرات)، ثم " الغفور" (أربع مرات)، ثمّ "القادر" و"الوكيل " (ثلاث مرات)، ثمّ " الرحمان، الملك، القدوس، الحليم، الحميد، الرّؤوف، الغني " مرتين، أمّا باقي الأسماء ذكرت مرّة واحدة . ويمكن تمثيل هذا التّفاوت في السّلم الآتي:

(ن) ثبات صفات الكمال لله تعالى وتسبيحه

ق1 — العزيز (9)
ق2 — الحكيم (7)
ق3 — البصير والرّحيم (6)
ق4 — الخبير والعليم (5)
ق5 — الغفور (4)
ق6 — القادر والوكيل (3)
ق7 — باقي الأسماء بين (2 و1)

ولعلّ هذا التّفاوت يعود لمقام سور المسبحات كما يلاحظ أنّ العزيز ذكرت مقترنة بالحكيم في سبع مواضع .وذلك أنّ اسم " العزيز " يعني أنّ الله له العزّة كلّها « عزّة القوة وعزّة الغلبة، وعزّة الامتناع »[1] وأنّه سبحانه « يقهرُ ولا يُقهر»[2]وهذا الوصف كما يقول ابن عاشور ينفي وجود الشريك في الألهيّة .

والحكيم : «الموصوف بالحكمة وهي وضع الأفعال حيثُ يليق بها، وهي أيضا العلم الذي لا يخطئ ولا يتخلف ولا يحول دون تعلقه بالمعلومات » [3]، وبما أنّ العزة وصف يتحقق من اجتماع جملة من الأوصاف : القوة، والغنى، والعظمة، إلى غير ذلك من أوصاف الكمالات التي تحصل بها فإنّها لا تكفي وحدها ولكنّها تكون كمالا إذا وجدت معها الحكمة ؛ لأنّ العزة قد تحمل كلّ شيء من العسف والقهر والتّسلط بغير حقّ نحو ذلك والله منزه عن ذلك كلّه . فهو مع عزّته إلّا أنّه حكيم .وتكرار فاصلة "العزيز الحكيم " تدّل على حكمة الله في تصريف شؤون خلقه، وهو العزيز في ملكه، فالآيات التي احتوت على هذه الفاصلة جاءت في سياق تسبيح الموجودات كلّها لله سبحانه وتعالى .

وهذا ما جعلها تأخذ العدد الأكبر، ومع هذه العزة التي استوجبت الحكمة تستلزم رحمة الله على المؤمنين يوم القيامة ؛ لأنّه بصير وعليم وخبير بهم ؛ فبصره أحاط بجميع المُبصرات ؛فلا يغيب عنه ما فوق السّماوات العلى وما تحت الثرى وعلمه سبحانه وتعالى بالغ شامل لجميع المعلومات محيط بها، لا تخفى عليه خافية ، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وخبير بالأشياء عالم بكنهها مطلع على حقيقتها، ولفظ الخبير يفيد معنى لفظ العليم المتصل علمه بكنه الأشياء وخفاياها الباطنة .[4]

---

[1] –فخر الدّين محمد ين عمر الرّازي (606ه)، لوامع البينات شرح أسماء الله والصّفات، المطبعة الشّرقيّة – مصر ، دط –1323ه، ص204

[2] – الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح : صفوان عدنان الدّوادي، دار القلم، الدّار الشّاميّة – ديمشق ط1– 1412ه، ص 563

[3] – ابن عاشور، التّحرير والتنوير ، (538/27)

[4]–ينظر :زين محمد شحاته، المنهاج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، دار بلنسية – الرّياض، ط10–1422ه (489–474/2)

وبما أنّه بصير وخبير وعليم بأحوالهم فإنّه غفور لزلاتهم قادر على هدايتهم وبعثهم ... أمّا اسم الوكيل ذكر في سورة الإسراء فقط وهو ما يناسب موضوعها فالظروف التي مرّ بها الرّسول ﷺ في طريقه للدّعوة تستوجب التّوكل عليه . ومن ثمّ معرفته حقّ المعرفة بوصفه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى التي تستوجب تسبيحه وتنزيهه عن كلّ صفات النّقص . فسبحان الله عزّ فحكم وسبحانه بَصُر فرحم، وسبحانه علم وخبر فغفر، وسبحانه القادر فحلم .

الفصل الرّابع :

سلالم الموضوعات المقيّدة في السّور المسبحات

أولا : سلميّة المعجم في السّور المسبحات .

ثانيا : سلميّة الصرف في السّور المسبحات .

ثالثا : سلميّة التّقسيم البلاغي في السّور المسبحات .

رابعا : سلميّة التركيب النّحوي في السّور المسبحات .

سلالم الموضوعات المقيّدة (المخصّصة) في السّور المسبّحات :

بعدما قمنا بدراسة سلالم الموضوعات المطلقة ، ننتقل الآن إلى دراسة سلالم الموضوعات المقيّدة، « فالسّلم المقيّد هو السّلّم الحجاجي المتدرّج لمستوى معيّن أوبحقل معيّن أو باختصار معيّن كالسّلّم المعجمي، أو المقولب بقوالب الصّيغة الصّرفيّة الّتي يتميّز بها السّلّم الصّرفي، أو المتّصف بالتّشكيل البلاغي الّذي يتميّز به السّلم البلاغي ؛أي أنّه يضمّ خواص السّلالم المعجميّة والصّرفية والبلاغية وغيرها..»[1]

وبما أنّ الحجاج لا ينفكّ عن اللغة، فالسلّم الحجاجي أحد هذه الآليات اللّغويّة للحجاج فله من المستويات ما للّغة من مستويات ومن أبرزها : سلّميّة المعجم .سلّميّة الصّرف، سلميّة التراكيب النّحويّة، و سلّميّة التّقسيم البلاغي، وسنحاول من خلال هذه الدّراسة الوقوف على كلّ منها على حدة .

أوّلا: سلّمية المعجم في السّور المسبّحات :

بما أنّ الكلمة قد تكون في رتبة معينة من سلّم ما، وباعتبار أنّ الصّفات هي أكثر أقسام الكلام تعبيرا عن السّلميّة كما وضحنا سالفا، وأنّ المعجم بأقسامه ومقوّماته تحكمه سلميّة تؤكّدها الوظيفة المرجعيّة للّغة، مثلما ورد في المعاجم، وكتاب (الفروق اللّغوية)"لأبي هلال العسكري"، و(معجم التّعريفات)" للجرجاني"، فقد نجد سلالم مختلفة أيضا في سور المسبحات منها : سلم المواقيت الزّمانيّة وذلك في قوله تعالى :﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾[الإسراء: 78-79]

[1]– لزهر كرشو، تقانة التّحليل الحجاجي للخطاب، ص 117

فمن خلال هاتين الآيتين نستطيع رسم السّلم الآتي :

(ن)إقامة الصّلاة الدالة على صدق الإيمان

ق 1 | ـ تهجّد الليل (صلاة النّافلة)

ق 2 | ـ قرآن الفجر (صلاة الصّبح)

ق3 | ـ غسق اللّيل

ق 4 | ـلدلوك الشّمس (غروبها)

المتأمل للآيتين يجد أنّ الله ابتدأ بصلاة الفريضة : صلاة المغرب (لدلوك الشمس) ثمّ صلاة العشاء (غسق الليل) ثمّ (صلاة الفجر)، ثمّ بعد ذلك صلاة النّافلة (تهجد الليل) والدّالة على قوة الإيمان، فصلاة النّافلة هي أقوى حجّة لتحقيق النتيجة في الوصول إلى صدق الإيمان، وهي تشتمل على الحجج التي اندرجت تحتها، فمن يصلّى النافلة فتحصيل حاصل أنّه يصلّي جميع الفرائض .

وقوله تعالى :﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾[الحديد: 20] .

ففي هذه الآية حقّر الله تعالى الحياة الدّنيا وحصرها بأداة الحصر " أنّما " في خمسة أشياء " اللعب، اللهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر في الأموال والأولاد " وهي :« أصول أطوار آحاد النّاس في تطور كلّ واحد منهم ؛ فإنّ اللعب طور سن الطفولة والصّبا، واللهو طور الشّباب، والزينة طور الفتوة، والتفاخر طور الكهولة، والتّكاثر طور الشّيخوخة »[1] وعليه يمكننا رسم السّلم الآتي :

[1] –ابن عاشور، التحرير والتّنوير ، (401/27)

(ن) حقيقة الدّنيا (متاع الغرور)

ق 1 – الحياة الدّنيا : تكاثر في الأموال والأولاد في طور الشيخوخة
ق 2 – الحياة الدّنيا : تفاخر بين النّاس في طور الكهولة
ق 3 – الحياة الدّنيا : زينة في طور الفتوة
ق 4 – الحياة الدّنيا : لهو في طور الشّباب
ق 5 – الحياة الدّنيا : لعب في طور الطفولة

فالصّفة التي تقع في أسفل السّلم هي أقل صفات السّلم الحجاجي، وأقلّها قياما بعملية التّوجيه الحجاجي، في حين أن الصّفة التي تقع في أعلى السّلم هي الصّفة التي تحتوي السّمات المشتركة وغير المشتركة لمكوّنات السّلم، وبالتّالي هي أكثر مفردات السّلم حجاجيا وفي قوله تعالى :﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[الحشر: 7]

بين الله حكم الإفياء في الآية والفيء هو :« ما يظفر به الجيش من متاع عدّوهم وهو أعم من الغنيمة، فالفيء يكون بالقتال وبدون قتال، أمّا الغنيمة ما أخذ بقتال »[1] وخصّصت الآية الفئة المستحقة له بترتيب بديع حسب شدّة الحاجة إليه ؛حيث قدّمت ذي القرى أي قربى النّسب الذين يكونون في حاجة للمال ثمّ اليتامى ثم المساكين ثم ابن السّبيل .ويمكن تصنيف هذه الأصناف في سلم حجاجي كالآتي :

(ن) توزيع الفيء على المستحقين له من الأشد إلى الأقل حاجة

ق1 – ذي القربى
ق2 – اليتامى
ق3 –المساكين
ق4 –ابن السّبيل

[1] –ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، (78/28)

يلاحظ من خلال هذا السلم أنّ الحجج التي أوصلتنا إلى النتيجة اتخذت مسارا تنازليّا فابتدأ من الحجة الأقوى إلى الأقلّ منها قوّة .

وعلى هذا الأساس ارتأينا أن نضع سلما معجميا للكلمات المشتركة والأكثر تكرارا في أغلب السّور المسبحات، فوقع اختيارنا على الكلمات ومشتقاتها والصّفات والحقول المعجميّة التي يمكن أن تشكّل سلما، والجدول الآتي يمثل إحصاء لها :

السورة / الكلمة ومشتقاتها وحقلها المفهومي	سورة الإسراء	سورة الحديد	سورة الحشر	سورة الصّف	سورة الجمعة	سورة التّغابن	سورة الأعلى	العدد الكلي
سبّح، يسبح ...	7	1	3	1	1	1	1	15
علم، عالم، عليم خبير، بصير، تعقلون، يفقهون	13	9	3	2	3	5	1	35
آمن، اهتدى، أطاع، خشى ،صادق، اتّقى، الصادقين ،خاف..	20	17	9	8	4	10	2	70
فاسق، منافق، ظالم ، كافر، مشرك ، ضال، شقي، تولى (الأشقى)، كذب افترى	17	8	10	8	4	7	1	56
أنفق، مال، تزكّى، بخل، الشّحّ	2	7	2	1	1	4	1	18
العفو، الرّحمة، المغفرة، الحلم، الفضل الصّفح، الرّأفة النّفع، الإنعام ، الإحسان	28	21	6	4	3	11	1	66
النّصر، الفوز، الفلاح، النّجاة	3	2	7	6	1	2	1	22

وعليه يمكننا أنّ نجسّد كلاّ منها في سلّم معجمي حجاجي:

1-سلّم فرادة الله سبحانه في صفاته :

التّسبيح هو الموضوع المحوري للسور المسبحات والذي ورد بصيغه المختلفة فيها وتتدرج تحت لفظة التّسبيح عدّة معان يمكننا تمثيلها في السّلّم المعجمي كالتّالي :

(ن)فرادة الله سبحانه وتعالى في صفاته

ق1 — التسبيح
ق2 — التّنزيه
ق3 — التّمجيد
ق4 — التّعظيم

تجدر الإشارة من خلال السّلم إلى أنّ المعنى المعجمي الموظّف في الخطاب القرآني قد شكّل سلّما حجاجيّا ، فصفة التّسبيح الّتي تقع أعلى السّلّم هي أقوى صفات السّلّم حجاجيّة ، وهذا ما أثبته ابن عاشور في قوله : « والتّسبيح قول أو مجموع قولٍ مع عمل يدلّ على تعظيم اللّه وتنزيهه لذلك سمّي ذكر اللّه تسبيحا.» [1]

يطلق التسبيح في القرآن الكريم على التّنزيه مع التّعظيم ، وهو أكثر ما ورد في القرآن الكريم؛ وهو المراد عند الإطلاق ، ومنه قوله تعالى:﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ ﴾[الصافات: 180] ، فالمسلم يسبّح لله حتّى ينزّهه عن النّقص، ويتمّ التسبيح من خلال انبهاره من رؤية مظاهر القدرة والعظمة، وعليه يلي صفة التسبيح صفتيْ التنزيه والتّعظيم ويقدّم أحد المعنييْن عن الآخر بحسب السّياق، ومن أدلة كون التسبيح تعظيمًا تفسيره في مواطن بالصلاة، والصلاة فيها جانب التعظيم للمعبود كما هو ظاهر[2] .

ولو تأمّلت قول الملائكة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ ﴾[البقرة: 30] فإنك ستجد أنّه لم يقع سوء يُنزَّه الله عنه كما في

[1]– ابن عاشور، التحرير والتّنوير، (405/1)

[2] – ينظر: نفسه، (405/1)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ ﴾[البقرة: 116]

والفرق بين الموضعين ظاهر..ومن ثَمَّ فجانب التعظيم في هذا السياق أظهر من جانب التّنزيه ، إلّا أنّ التمجيد أعمّ من التعظيم ؛ لأنّه :« حرى على وجهيْن: عظم الشّخص، وعظم الشّأن ... ومجّدتُ الله تمجيدا: عظّمتهُ »[1]فتمجيد الله يشمل عظمة الشّخص وعظمة الشّأن.

فافتتاح السور المسبّحات بالتسبيح وتضمّنها مختلف صيغ التسبيح و هي الصيغة الأقوى في السّلّم ، و تتضمّن معاني الصفات التي تندرج تحتها، مما جعلها مناسبة للسياق القرآني للسور المسبّحات، والأقرب للتوجيه الحجاجي في تنزيه الله و تمجيده . ومضامين السوّر المسبّحات تدور في فلك تنزيه الله وتعظيمه عموما ، وأَصْرحها وأَشْملها هو التّسبيح الّذي يتسّم أعلى درجات التّعظيم والتّنزيه .

2-سلّم مدارج الإدراك :

اشتملت السّور المسبّحات على مرادفات العلم ومشتقّاته وحقوله الدّلاليّة و التي تميّزت بفوارق لغوية متفاوتة الدلالة ويمكن تمثيلها في السّلّم المعجمي التّالي :

(ن) مدارج الإدراك

ق1 البصيرة

ق2 الخبرة

ق3 العلم

ق4 العقل

ق5 الفقه

ق6 الفهم

جاء ت مدارج الإدراك ومعانيها في السّياق العام للآيات القرآنية بكثرة، وبمعان متلوّنة، تتراوح بين الفقه والعلم والخبرة والبصيرة ..وهذا ما يتناسب مع السّياق العام للسّور

[1] – أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تح: محمّد إبراهيم سليم ، دار العلم والثّقافة –القاهرة، دط – دت، ص185

المسبّحات، فالمسبّحُ وَجب عليه معرفة الله حقّ المعرفة، والملاحظ أنّ صفة البصيرة أدرِجَت أعلى السّلّم باعتبارها أقوى صفات السلّم حجاجيّة تحقيقا للنّتيجة.

والبصيرة هي:« قوّة للقلب المنوّر بنور القدس، يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنّفس يرى به صور الأشياء وظواهرها .»[1]، ولولا البصيرة لما كانت هناك خبرة ولا علم ولا عقل فهو الذي يفقه ويفهم ولكن هناك تفاوت بينها، فقد فاقت الخبرة على العلم درجة ذلك لأنّ : «الله الذي أحاط علمه بالواجبات والممنوعات وبالأشياء الممكنة الحدوث.»[2]

أمّا الخبير العالم بالأشياء وكنهها مطّلعا على حقيقتها فلا يحدث شيء إلاّ ويكون عنده خبرة به ؛فالخبير إذن يفيد معنى العليم المتّصل علمه بكنه الأشياء وخفاياها الباطنة .[3]، بينما نجد أنّ العلم مصطلح عام يشمل العقل والفقه والفهم، « فالعقل هو العلم الأوّل الّذي يزجر عن القبائح، وكل من كان زاجره أقوى كان أعقل » [4] ومنه فالعقل يوجّه مسار العلم. ويفوق الفقه على الفهم درجة ؛ لأنّ الفهم هو العلم بمعاني الكلام عند سماعه، والفقه هو كذلك العلم بمقتضى الكلام على تأمّله .[5]

3- سلّم مدارج اليقين :

ورد في السور المسبّحات مدارج اليقين بصيغ مختلفة ومتفاوتة المعاني بين : الإيمان، الهداية، التّقوى، الطّاعة، الخشية والتّصديق .

---

[1] – علي بن محمّد السّيّد الشّريف الجرجاني، معجم التّعريفات، تح : محمّد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة –القاهرة، ص42

[2] – إبراهيم الزّجاج، تفسير أسماء الله الحسنى ، ص 54

[3] – ينظر :نفسه، ص488-489

[4] –أبو هلال العسكري، الفروق اللّغوية، ص832

[5] – نفسه :ص 87

وسنمثّلها في السّلّم التّالي :

(ن) مدارج اليقين .

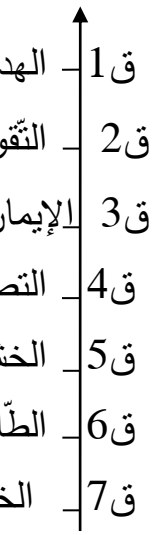

يتضّح من السّلّم المذكور أعلاه أنّ صفة الهداية وقعت أعلى السّلم فهي أقوى صفات السّلم حجاجية لتحقيق النّتيجة، وهي الّتي اندرجت تحتها جميع الصّفات الأخرى فلولا الهداية ، لما اتقى الإنسان ولا آمن ولا صدّق ولا خشي ولا أطاع ربّه فالهداية هي :« الدّلالة على ما يوصّل إلى المطلوب، وقد يقال هو سلوك طريق يوصّل إلى المطلوب »[1]

إذن فالهداية مصطلح عام يندرج تحته كل المعاني التي بعده في السّلم وبينها وبين التقوى علاقة تلازمية، ويقول ابن القيّم في تفسيره : « فكلّما اتّقى العبد ربّه ارتقى إلى هداية أخرى، فكلّما اتّقى زاد هداه، وكلّما اهتدى زادت تقواه .»[2]، والتّقوى أعلى درجة من الإيمان وعليه ، «فالمتقي أمدح من المؤمن، لأنّ المؤمن يطلق بظاهر الحال والمتّقي لا يطلق إلاّ بعد الخبرة »[3] والإيمان أعلى درجة من التصديق لأنّه يأتي عن قناعة ولابدّ أن والغيبيات بينما التّصديق يعني عدم الرّفض أو عدم الشكّ في موضوع التّصديق بدون تفكير أو يرتبط بالعمل وهو متعلق بأمور العقيدة مناقشة [4].

---

[1] – علي بن محمّد السّيّد الشّريف الجرجاني، معجم التّعريفات، ص215

[2]– ابن قيّم الجوزية، بدائع التّفسير، دار ابن الجوزي – الدّمام، ط1 – 1426، مج (1/ 92)

[3] – أبو هلال العسكري، الفروق اللّغوية، ص222 .

[4] –محمد منير مرسي ، كتاب التربية الإسلاميّة أصولها وتطوّرها في البلاد العربية ، عالم الكتب– القاهرة، طبعة مزيدة ومنقّحة –2005م، ص 104

أمّا الخشية والطاعة فهي نتيجة لما سبقها من الهداية والتقوى والإيمان والتصديق . لكن الخشية أعلى مرتبة من الطاعة ، فالخشية هي :« تألّم القلب بسبب توقّع مكروه في المستقبل يكون تارة بكثرة الجناية من العبد وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته، وخشية الأنبياء من هذا القبيل »[1]، ويبين الشيخ محمّد بن العثيمين الفرق بينهما في قوله :«أنّ الخشية فيها تعظيم، والطاعة لا تكون إلاّ عن محبّة لأنّ من لم يحبّ شخصا فلا يطيعه إلاّ خوفا منه فحينها تكون خشية فالطّاعة ».[2] وعليه فإنّ الخوف يقع أسفل السّلم ؛لأن طاعة الخوف أقل درجة من طاعة الحبّ . ويتضح من خلال الجدول أنّ مدراج اليقين وردت بكثرة في السياق العام للآيات وهذا ما يتناسب مع موضوعاتها فالمسبح لا يسبح إلا إذا كان مهتديا مؤمنا مصدقا طائعا يخشى رحمة الله ويخاف عذابه .

4- سلم مدارج الإنكار والجحود :

تلونت ألفاظ الإنكار والجحود في السّياق العام للسور المسبحات في معان مختلفة ومتفاوتة بين الفسق ، النفاق ، الشرك ، الكفر ، الظلم ، الضلالة ، الشقاء ، التكذيب ، التّولي والافتراء . ويمكن تمثيلها في السّلم الآتي من الأسفل إلى الأعلى كما يلي :

(ن) مدارج الإنكار والجحود

ق1 ← الشّقاء

ق2 ← التّولي

ق3 ← الشّرك

ق4 ← الكفر

ق5 ← الظلم

ق6 ← الافتراء

ق7 ← التكذيب

ق8 ← النّفاق

ق9 ← الفسق

ق10 ← الضلالة

[1] – علي بن محمّد السّيّد الشّريف الجرجاني، معجم التّعريفات، ص86

[2] – الشيخ محمد بن صالح العثيمين، تفسير سورة النّور، أهل الحديث والأثر، alathar.net، 13-08-2007.

من الواضح أنّ صفة الشّقاء احتلت رأس السّلم وهي الأقوى حجاجية في تحقيق النّتيجة فكلُّ شقيّ جاحد وناكر، وهي صفة اشتملت معاني الصّفات التي اندرجت تحتها، فلو لم يكن الإنسان شقيّا لما تولى وكفر وظلم وافترى وكذّب ونافق وفاسق وضلّ؛ «فعن أبي هريرة ﷺقال : قال رسول الله ﷺ : "لا يدخل النّار إلّا شقي " . قيل من الشّقي ؟ قال : " الذي لا يعمل بطاعة، ولا يترك لله معصيّة " »[1] . وقوله تعالى:﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾[الليل: 14-16] .

يقول ابن عاشور: «هذه نار خاصّة أعدت للكافرين ...والأشقى صفة للذي كذّب وتولى . أي كذّبوا الرّسول ﷺ وتولوا أي أعرضوا عن القرآن »[2].

والتولّي أقبح من الشّرك والكفر ؛ فالتّولي « يعني الإعراض فلا يتجه للحقّ، ولا يقبل الحقّ ولا يسمع الحقّ، حتّى لو سمعه بأذنه لم يسمعه بقلبه وكفر : استكبر ولم يقبل ما جاء به الرّسول ﷺ»[3] . وقد قدّم الله التّولي على الكفر في قوله : ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ ﴾[الغاشية: 23-24] ويفسرها ابن كثير بـ :« تولى عن العمل بأركانه وكفر بالحقّ بجنانه ولسانه »[4] أي : لم يعمل بالأركان فانتفت عنه حقيقة الإيمان لأنّ الإيمان تصديق بالجنان وقولٌ باللسان وعمل بالأركان[5].

أمّا بالنّسبة للكفر والشّرك :فـ«لا فرق بينهما، فكل كافر مشرك، وكل مشرك كافر؛ لأنه عبد هواه، ومن عبد الهوى والشيطان فهو مشرك، وهو كافر؛ لأنه جحد التوحيد وجحد الحق، لكن إذا كان فعله يتعلق بالجحود فهذا خاص بالكفر، وإذا كان يتعلق بالإشراك في العبادة فهو خاص

[1] – ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، تح :حكمت بن بشير بن ياسين، دار ابن الجوزي –المملكة العربية السّعوديّة، ط1– 1431هـ، (588/7)

[2] –ابن عاشور، التحرير والتّنوير، (390/30)

[3] –محمد صالح بن العثيمين، أهل الحديث والأثر، تفسير سورة الغاشية، alathar.net، 2007/02/04م

[4] – السّابق، (553/7)

[5] – ينظر:فاضل صالح السامرائي، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، دار عمار –عمان الأردن ، ط3 – 2003م، ص225

بالشرك»[1]. ومنه يتبين أنّه من جحد الحقّ وستره كالذي يجحد وجوب الصلاة والصوم وتحريم الزّنا فهو كافر . أمّا من صرف عبادته لغير الله كمن يستغيث بالأموات أو الجن أو الأصنام فهو مشرك .

والكفر يفوق الظلم لأنّه قد يكون هناك مسلم ظالم ، والظلم هو« وضع الشّيء في غير موضعه، وفي الشّريعة عبارة عن التّعدي عن الحقّ إلى الباطل وهو الجور وقيل : هو التّصديق في ملك الغير ومجاوزة الحدّ »[2]

وقد يصل إلى الكفر لقوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤ ﴾[البقرة: 254] وقد لا يصل ، «فالظلم له مراتب أعلها الكفر»[3]، فأعظم الظّلم وأقبحه الشّرك بالله وسائر أنواع الكفر به عز وجل ؛ لأنّ المشرك والكافر ظالم واضع العبادة في غير محلّها .

وكلّ من المعاني (الافتراء والتكذيب والنفاق والفسق والضلالة) تندرج تحته لأنّ فيها مجاوزة للحدّ . والافتراء من أنواع الظلم وأشده الافتراء على الله لقوله تعالى :﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٦٨ ﴾[العنكبوت: 68] وقال ابن كثير :«لا أحد أشدُّ عقوبة ممن كذب على الله، فقال: إنَّ الله أوحى إليه، ولم يوحَ إليه شيء، ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله وهكذا لا أحد أشدُّ عقوبة ممن كذَّب بالحقِّ لما جاءه، فالأول مفترٍ، والثاني مكذِّب ولهذا قال: أليس في جهنم مثوى للكافرين.»[4] ويعرفه السّيوطي بأنّه :« اختراع قضية لا أصل لها» [5]هو « أخصّ من الكذب ؛لأنّه كذب في حقّ

---

[1] – عبد العزيز بن عبد الله الراجي، دروس صوتية، قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net، (26/15)

[2] – علي بن محمّد السّيّد الشّريف الجرجاني، معجم التّعريفات، ص 121 .

[3] – فاضل صالح السامرائي، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل –محاضرات – أعده للشاملة :أبو عبد المعز ، ص1093

[4] –ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، (67/6)

[5] –عبد الرّحمن بن أبوبكر، جلال الدّين السّيوطي، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرّسوم، تح : محمد بن إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب – القاهرة ، ط1–2004م ، ص207

الغير بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب فإنّه قد يكون في حقّ المتكلم نفسه »[1]، والتّكذيب « التّصميم على أنّ الخبر كذب بالقطع عليه »[2] .

والنّفاق مبني على الكذب لقول الحسن : « كان يقال: إن من النفاق اختلاف السر والعلانية، واختلاف القول والعمل، واختلاف المدخل والمخرج، وأن الأصل الذي بني عليه النفاق هو الكذب»[3] والنّفاق يفوق الفسق لأنّه قيل :« من شهد وعمل ولم يعتقد فهو منافق، ومن شهد ولم يعمل واعتقد فهو فاسق، ومن أخلّ بالشّهادة فهو كافر .»[4] فالمنافق يظهر الإيمان ويخفي الكفر والفاسق مؤمن(اعتقد) خارج عن الطّاعة، يقول ابن عاشور : اصطلح أهل الكتاب والسّنة على أنّ الفسق غير الكفر وأنّ المعاصي وإن كثرت لا تزيل الإيمان وهو الحق ... وما من فاسق إلّا وهو ضال فما ثبت الضلال إلّا بثبوت الفسق .[5] فالضلال انحراف عن الطّريق الصحيح ، وهي نتيجة فساد العلم، والضال هو التائه عنه، فالضّالين هم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحقّ ولم يعرفوه . ومنه الضلال قد يكون عن غير قصد وعن غير علم، والفسق يكون بعد العلم تحديدا .[6]

وعليه فإنّ صفة الشّقاء هو الأقرب للتحقيق نتيجة الإنكار والجحود، فالذي اتّصف بها فتحصيل حاصل أنّه فعل كلّ المعاصي من التّولي والكفر والظلم ...

5- سلّم مدارج المعاملات المالية :

لقد تشاركت أغلب مواضيع سور المسبحات في الحث على الإنفاق من خلال ورود ألفاظ المعاملات المالية المختلفة التي تراوحت بين الإنفاق بالمال والزكاة به والبخل والشح فيه ويمكن رسم سلم معجمي تتدرج فيه هذه المعاني كالآتي :

---

[1] -أبو هلال العسكري ، معجم الفروق اللغويّة، ص449

[2] -نفسه، ص45

[3] -سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني ، من أسباب عذاب القبر، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية ، http://www.islamweb.net ، (6/3)

[4] - علي بن محمّد السّيّد الشّريف الجرجاني، معجم التّعريفات، ص 37

[5] -ينظر : التحرير والتّنوير ، (166/1)

[6] - ينظر: فاضل صالح السامرائي ، لمسات بيانيّة في نصوص التّنزيل، ص 58-63

(ن)مدارج المعاملات الماليّة

يتضح من خلا السّلم أنّ الزكاة أعلى مراتب المعاملات الماليّة وذلك أنّ الإنفاق في القرآن هو لفظ يختلف في معناه عن الزكاة، فالإنفاق صرف المال هو الواجب على الإنسان فعله ، بينما الزّكاة هي الشّيء المفروض على الإنسان إخراجه، والفرض هو ما نزل بنصّ القرآن وله شروطه وأحكامه، فالواجب أقل درجة من الفرض .

وهذا ما يوافق رأي الأحناف في قولهم : « الفرض ما ثبت بدليل قطعي أمّا الواجب فهو ما ثبت بدليل ظني . والدّليل القطعي متواتر »[1] ويشير ابن عاشور إلى أنّ الإنفاق يقي صاحبه من الشّح، والفرق بين الشح والبخل أنّ «الشُّح هو شدّة الحرص على الشّيء والإخفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النّفس عليه . والبخل منع إنفاقه بعد حصوله، وحبّه وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله »[2].ومنه فإنّ مانع الإنفاق قبل حصول المال شحيح ومانع الإنفاق بعد حصول المال بخيل، وعليه فإنّ الشّح أسبق من البخل

6-سلم مدارج التّجاوز والامتنان :

ورد في السور المسبحات مدارج التجاوز والامتنان بصيغ مختلفة المعاني تراوحت بين العفو والرأفة والرّحمة والمغفرة والحلم والصّفح والفضل والإنعام و الإحسان والنّفع والسّلم الآتي يمثل تدرج معانيها :

[1] -محمد حسن عبد الغفار، كتاب تيسير أصول الفقه للمبتدئين ، المكتبة الشّاملة، كتاب صوتي مفرغ من طرف موقع الشّبكة الإسلاميّة ، www.islamweb.net (10/1)

[2] -ابن القيم ، كتاب الوابل الصيب ورافع الكلم الطّيب، تح : عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عطاءات العلم، دار ابن حزم – الرياض، بيروت، ط5 -2019م، (75/1)

(ن) مدارج التّجاوز والامتنان

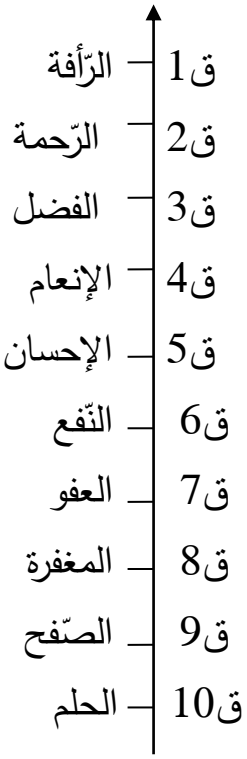

من خلال السّلم المعجمي الموضح أعلاه يتبين أنّ صفات الامتنان والإحسان (الرّأفة، الرّحمة، الفضل والإنعام ، الإحسان والنفع) علت صفات التجاوز(العفو، المغفرة، الصّفح الحلم)؛ وذلك أنّه لو لم يكن المحسن محسنا لما تجاوز عن الزّلات، فكلّ متجاوز محسن

وعليه فإنّ صفات الامتنان والإحسان تشمل صفات التّجاوز . ومن الملاحظ أيضا أنّ صفة الرّأفة تصدرت قمة السّلم وهي الأقوى حجاجية للوصول إلى النتيجة وهي التي تتضمن الصّفات التي تندرج تحتها ؛ لأنّ الرّأفة هي «شدّة الرحمة»[1]، والرّحمة هي «الإنعام على المحتاج إليه» [2]، ورحمة الله تامة وعامة ؛ فالتّامة هي إفاضة الخير على المحتاجين وإرادته لهم عناية بهم، والعامة هي التي تتناول المستحقّ وغير المستحق .[3] ومنه يتبين أنّ الرّأفة أبلغ من الرّحمة وهذا ما أقره أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) واستشهد بقول أبي

[1] – أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني، غريب القرآن ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده –ميدان الأزهر، دط – 1963م، ص97

[2] – أبو هلال العسكري، الفروق اللغويّة، ص195

[3] – ينظر: أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى ، مطبعة الصباح – دمشق ، ط1–1999م، ص46

عبيدة (18هـ) أنّ في قوله تعالى :﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ ﴾[التوبة: 117]، تقديماوتأخيرا، أراد أنّ التّوكيد يكون الأبلغ في المعنى [1].

وعليه فالرّحمة نعمة من الله تعالى عل عباده عامة مؤمنهم وكافرهم وبارهم وفاجرهم، وفضل منه وتكون الرّحمة بمضاعفة الحسنة، والصّفح عن السيئة وهي إكرام منه بالفضل والكرم رغم تقصيرنا .وأقلّ منه درجة الفضل وهو:«ابتداء إحسان بلا علّة»[2] أي ابتداء الإحسان إلى الآخرين دون مقابل .ويأتي بعده الإنعام لأنّه يتطلب المقابل وهو الشّكر، والفرق بينه وبين الإحسان أنّ الإنعام لا يكون إلاّ من المنعم على غيره ؛ لأنّه متضمن بالشّكر الذي يجب وجوب الدّين، ولكن يجوز إحسان الإنسان لنفسه .والفرق بين الإحسان والفضل ؛ الإحسان قد يكون واجبا وغير واجب، والفضل لا يكون واجبا على أحد وإنّما يتفضل به من غير سبب يوجبه .والإحسان مثله النّفع إلّا أنّ النّفع يكون من غير قصد والإحسان لا يكون إلّا مع القصد ، فنقول ينفعني العدو بما فعله ولا نقول أحسن إلينا .[3]

ومعاني الإحسان تشتمل معاني التّجاوز التي تحتها ؛ فإذا عفوت عن شخص أو غفرت له أو...فإنّك تفضلت عليه وأحسنت له. و العفو فاق معاني التّجاوز التي تحته في السّلم لأنّ العفو هو محو الذنب ، حيث يقول" أبوهلال العسكري" : وذلك أنّك تقول : عفوت عنه فيقتضي ذلك أنّك محوت الذم والعقاب عنه ...ويقول في موضع آخر : الغفران يقتضي إسقاط العقاب، وإسقاط العقاب هو إيجاب الثّواب ... والعفو يقتضي إسقاط اللوم والذم ...وتقول غفر له فيقتضي ذلك إثبات شيء له[4] . فيقول أبو حامد الغزالي (505هـ) في هذا الصّدد : «العفو: هو الذي يمحو السّيئات، ويتجاوز عن المعاصي وهو قريب من الغفور،

[1] – ينظر:أبو هلال العسكري، الفروق اللغويّة، ص 196

[2] – علي بن محمّد السّيّد الشّريف الجرجاني، معجم التّعريفات، ص141

[3] –ينظر السابق، ص 193 ، 194

[4] –ينظر: أبو هلال العسكري، الفروق اللغويّة، ص26، 235، 236

ولكنّه أبلغ منه، فإنّ الغفران يُبنئ عن الستر، والعفو يُبنئ عن المحو، والمحو أبلغ من السّتر.»[1] .

وإذا كانت المغفرة هي ستر الذنب فالصّفح هو : « التّجاوز عن الذنب، وترك مؤاخذة المذنب بالذنب، وإن تبدى له صفحة جميلة »[2] . وإذا كانت المعاني السّابقة فيها تجاوز عن الذنب فالحلم إمهال بتأخير العقاب المستحق ولا يصح إلا لمن يكون قادرا على الانتقام .[3] ومن هنا يتضح لنا تراتبية هذه المعاني التي ابتدأت بأعلى مدارج الإحسان وهي الرأفة وانتهت بأقل مدارج التجاوز وهو الحلم .

7- سلّم مدارج الظّفر :

وردت مدارج الظفر في السياق العام للسور المسبحات في معاني متفاوتة بين : الفوز والنجاة و الفلاح و النصر ويمكن تمثيلها في السّلم الآتي :

(ن) مدارج الظّفر

علت صفة " الفلاح" السلّم المعجمي وهي الصفة الأقوى حجاجية في الوصول إلى النّتيجة "الظفر"، وذلك لاشتمالها باقي الصّفات التي اندرجت تحتها ؛ فالفلاح هو :« نيل الخير والنّفع الباقي أثره »[4] ؛ فهو فوز بالبقاء الدّائم، وقد ورد في كتاب فتح القريب أنّ

[1] – أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى ، ص117

[2] –ينظر: أبو هلال العسكري، الفروق اللغويّة :ص236

[3] – ينظر :نفسه ، ص200

[4] –نفسه : ص211

الفلاح هو : «الفوز والنجاة والبقاء الدائم ...الفلاح الظفر بالمطلوب والنّجاة من المرهوب»[1] أمّا الفوز فهو: « الظفر بالخير مع حصول السّلامة»[2] .

ويفرق " أبوهلال العسكري" بينه وبين النّجاة بقوله :« أنّ النجاة هي الخلاص من مكروه، والفوز هو الخلاص من المكروه مع الوصول إلى المحبوب، ولهذا سمى الله تعالى المؤمنين فائزين لنجاتهم من النّار ونيلهم الجنّة »[3] . والنّصر يتوسطهما فهو نوع خاص من الفوز يختص العدو إمّا بالظفر عليه، وإمّا بدفع مضرته والنّجاة منه .فالنصرة خاصة لا تكون إلّا على المنازع المغالب والخصم المناوئ المشاغب [4] .

وعليه فإنّ كلا من الألفاظ الأربعة :" الفلاح والفوز والنصر والنجاة " تشترك لغويا في الظفر وإدراك الغاية، ولكن يختلفون دلاليا ؛ فالفلاح بلوغ الغاية والظفر بالخير والفوز والنّجاة مع بقاء الاستمراريّة . أمّا الفوز هو النّجاة والربح وتجاوز حدّ الخسارة، والنصرة نوعا منها خاص بالعدو ، وأمّا النجاة في الخلاص من المكروه المرهوب .

بعد هذه الدّراسة المعجميّة للألفاظ والحقول المفهوميّة المشتركة في السّور المسبحات. وبيان مدراج كلّ مفهوم، نجد أنّها ترمي للوصول إلى نتيجة حتميّة مفادها وجوب تسبيح الله تعالى . وهي الكلمة المحوريّة التي تكررت خمسة عشر مرّة بصيغها المختلفة (سبحان ، سبَّحَ، يسبح ، سبّح، تسبيحهم). بغض النّظر عن الكلمات التي تنتمي إلى حقّلها المفهومي الموجودة في السّور .

والملاحظة المسجّلة من خلال الجدول الموضّح أعلاه، تبيّن لنا أنّ هذه المدارج وردت بنسب متفاوتة ويمكن تمثيلها في السّلّم الآتي :

[1] –حسن بن علي الفيومي، كتاب فتح القريب المجيب على التّرغيب والتّرهيب، تح :محمد إسحاق محمد آل إبراهيم، دار السّلام – الرياض، ط1 –2018 م، (511/2)

[2] – أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، المفردات في غريب القرآن، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ط1–1416هـ ، ص547 .

[3] – أبو هلال العسكري، الفروق اللغويّة، ص211

[4] –ينظر : نفسه: ص189

(ن) وجوب تسبيح الله تعالى

ق1 ـــ مدارج اليقين. (70)

ق2 ـــ مدارج التّجاوز والامتنان. (66)

ق3 ـــ مدارج الإنكار والجحود. (56)

ق4 ـــ مدارج الإدراك. (35)

ق5 ـــ مدارج الظفر. (22)

ق6 ـــ مدارج المعاملات الماليّة . (18)

وردت مدراج اليقين في السّياق العام للسّور المسبحات 70 مرّة وهي الأقوى حجاجيّة في الوصول إلى النتيجة، فالمسبِّح على يقين بالله وقدرته و معجزاته وعظمته .واليقين موضوع محوري يبنى عليه الدّين الإسلامي . فكلّ سور القرآن تدعو إلى الإيمان بالله ورسله ولا سيما السّور المسبحات . التي دعت إلى التّسبيح وتنزيه الله من خلال معجزاته وقدرته التي تستوجب الإيمان واليقين بالله وطاعته . وعلى رأسها سورة الإسراء التي افتتحت بمعجزة الإسراء ؛ رحلة تعدّ آية من آياته ، رأى فيها الرّسول ﷺما رأى، واصفا الأقصى بدقة متناهية، وهذا ما يستدعي تسبيح الله، ثمّ إنّ هذه المعجزة أيّد الله بها الرّسول ﷺ ليؤمن بها كفار قريش . وفي سورة الحديد التي تحدثت عن معجزة إنزال الحديد وبأسه الشّديد ؛ ليحقق به العدل .

أمّا في الحشر التي نصر الله فيها المسلمين بالرّغم من قلّة العدد والعدّة على يهود بني نضير ، وفي سورة الصّف التي صورت لنا لحمّة المسلمين في القتال الدّالة عن قوة الإيمان . ومن صفّ القتال إلى صفّ الجمعة الدّال على وحدة المسلمين وقوة إيمانهم، ثم إلى سورة التّغابن التي تحدثت عن حقيقة يوم القيامة الذي يستوجب الإيمان، وأخيرا الأعلى التي خاطب فيها الله تعالى نبيه وأمره بتسبيحه ؛ فهو الذي خلق فأبدع . وكلّ هذا يستوجب الإيمان به ومن ثمّ تسبيحه .

ومن اليقين به سبحانه وتعالى وبقدرته إلى اليقين بعفوه وكرمه ؛ فوردت مدارج التّجاوز والامتنان 66 مرّة، وكأنّ هناك رسالة تقول من أيقن بالله وآمن برسله وكتبه و... يتغمده الله

برحمته ويعفو عنه ويتجاوز عن زلاته ، ألا يستحقّ سبحانه وتعالى تبعا لذلك التّسبيح ؟ . والسّور المسبّحات اشتملت على هذه المعاني .وعلى رأسها سورة الإسراء ففيها رحمة بالرّسول ﷺ الذي جاء تأييده من الله سبحانه بهذه المعجزة .

ولعل تقدم مدارج (التجاوز والامتنان) عن مدارج (الجحود والإنكار) تعود إلى أنّ الله دائما يقدّم الحسنة عن السيئة، والترغيب عن التّرهيب، ولهذا وردت هذه الأخيرة 56 مرّة في السّور المسبحات . ووردت هذه الألفاظ في حال الكفّار والمنافقين والضّالين عن الطريق وعلى رأسهم بني إسرائيل في سورة الإسراء التي احتلت المرتبة الأولى في ذكرهم حيث بين الله فيها شرع اليهود وشأنهم، فذكر تاريخهم وما شُرِع لهم في التّوراة وعصيانهم وفسادهم في تخريب المسجد، ثم ذكر استفزازهم للنّبي ﷺوعزمه على إخراجه من المدينة، وذكرت السّورة خطاب موسى عليه السلام مع فرعون ؛ فالسّورة تفرّق بين الموقفين ؛ موقف اليهود من دعوة الرّسولﷺ وموقف فرعون من دعوة موسىعليه السلام . وفي مقابل هذا كلّه فإنّ الله راحمهم فرحمته عامة شاملة كلّ الخلق مؤمنهم وكافرهم ومهتديهم وضالهم . وأنّهم لو عادوا إلى الطريق وآمنوا لعفى عنهم وأصلح بالهم وهذا ما يستدعي تسبيحه وتعظيمه .

ومن مدارج الإنكارو الجحود إلى مدارج الإدراك الذي ورد 35 مرّة في السّور المسبحات، وعلى رأس السّور التي اشتملت على عدد أكبر منها، وهي سورة الإسراء كذلك وكأنّه الرّسالة المنبعثة تقرّ بأنّ على الجاحد المنكر الذي كذّب بالرّسالة معرفة مصيره الذي ينتظره وهو الخسارة والعذاب، أمّا إذا تاب وآمن فمصيره الفوز والفلاح . وهذه هي العدالة الإلاهيّة ، أفلا يستحقّ سبحانه بمقتضى ذلك التسبيح ؟

فمن عِلْمِ وإدراك الجاحد مصيره، إمّا الخسران وإمّا النّجاة والفوز تأتي مدارج هذا الأخير المذكورة 22 مرّة، ومن الملاحظ هنا أنّ السور التي احتوت على عدد أكثر هي سورة الحشر وسورة الصّف والحكمة في ذلك أنّ كليهما يتحدثان على القتال ؛ ففي الأولى إخراج بني النّضير ونصرة المسلمين ، والثّانية توحيد الصّفوف في القتال، واللافت للنّظر أنّ صفة "النّصر" ومشتقاتها أخذت الحظ الأوفر من مدارجها، والمعلوم أنّها نوع خاص من الفوز يختص بالعدو إمّا بالظفر عليه، وإمّا بدفع مضرته والنّجاة منه . وهذا ما يتلاءم مع موضوع السّورة، وهذه من حكمته سبحانه وتعالى .

ومن مدارج الفوز إلى سبب من أسبابه وهو المعاملات المالية، الذي حثت عليه أغلب السّور ولم يُذْكَر في بعض منها، إلّا أنّه ذُكِرت وسيلته وهي "المال "، فوردت مدارج الإنفاق بنسبة أقلّ من باقي المدارج المذكورة في السّور المسبحات (18 مرّة). ونجد سورة الحديد هي التي ركّزت على أهمية الإنفاق وبينت دوره في صلاح حياة الجماعة .وهذا التّدرج العجيب يدلّ على حكمته تعالى وعلى أنّ القرآن معجزة خالدة .

ثانيا- سلميّة الصّرف في السّور المسبحات:

إنّ السّلميّة في اللغة كامنة فيها كجهاز بجميع مستوياته، وهذا ما بيّناه سابقا، ودليلنا في ذلك نظام الزيادة في المعجم التي تنقلنا إلى السّلميّة الصرفيّة وتتحكّم فيه المفردة في حدّ ذاتها من خلال مستوى تكوّنها، إذ أنّ كل زيادة أو نقصان في الكلمة (الصّرافم) يتولّد عليها زيادة معنى جديد .

وقد بين الدّكتور عزّ الدّين النّاجح سلمية **الصّيغ الصرفيّة** في قوله : « فالصّيغ الصّرفية من اسم فاعل وأسماء التّفضيل والصّفة المشبّهة وصيغة المبالغة تؤكّد سلّميّة اللّغة، فاسم الفاعل أقلّ تعبيرا عن المعنى من الصفة المشبّهة الّتي تدلّ على ملازمة الموصوف للصّفة، وصيغة المبالغة أقوى منهما لاحتوائها على مقولة العددو الكثرة لذلك كانت عمليّة إنتاجها تقتضي زيادة خاصّة وذلك من خلال مقولة التضعيف والحركة الطّويلة » [1] . وكمثال على ذلك نضرب الشّواهد التّالية :

أ- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[الجمعة: 7 – 8] .

ففي هذا الشّاهد وصف الله تعالى بصفتين وهما عليم وعالم ؛ عليم بالظّالمين وعالم الغيب وعليم دالّة على كثرة العلم أو المبالغة فيه، وصفة عالم " اسم الفاعل " صفة متصلة بموصوف مقصود في الخطاب . وعليه تتشكل لدينا تراتبيّة سُلّميّة، تكون صيغة المبالغة

[1]-عزالدّين النّاجح، العوامل الحجاجية في اللّغة العربيّة، ص 126

في أعلى السّلم، فيما يكون اسم الفاعل منه في أدنى السّلم الحجاجي، بغية الوصول إلى نتيجة جامعة لذلكم السّلم مفاده تفرّد الله بكثرة العلم والمبالغة فيه . ويمكن رسمه كالآتي :

(ن) مفاده تفرّد الله بكثرة العلم والمبالغة فيه

ق1 ـ عليم بالظّالمين

ق2 ـ عالم الغيب والشّهادة

ب-قَالَ تَعَالَى:﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾[الإسراء: 8] . وقَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾[الإسراء: 27] .

فصيغة المبالغة " كفور" تمثل سلّما حجاجيّا، وتحتلّ فيه هذه الصّيغة الحجّة الأعلى درجة ؛ فهي دالّة على كثرة الجحود والكفران للنّعم، فيما يحتل اسم الفاعل(كافر) منها الحجّة الأدنى في السّلم لأنّه دال على من قام بالفعل على وجه الحدوث والتّجديد لا على سبيل الكثرة ؛ فالكافر قد يكفر في زمن معين وينتهي كفره .وعليه نصل إلى النتيجة الحجاجيّة التي مفادها مدى جحود الشّيطان للنعم وسوء عاقبة الكافرين . ويمكن تمثيل السّلم كالآتي :

(ن) مدى جحود الشّيطان للنعم وسوء عاقبة الكافرين

ق1 ـ الشّيطان **كفور**

ق2 ـ **الكافرون** مأواهم النّار .

ج- قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾[الإسراء: 99]

قَالَ تَعَالَى:﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحديد: 2]

فالصفة المشبهة " قدير" تمثل سلما حجاجيّا، وتحتلّ فيه هذه الصّيغة الحجّة الأعلى درجة ؛ فهي دالّة ثبات وملازمة القدرة لله فقدرته بكلّ شيء تامّة لا يلابسها عجز، فيما

يحتل اسم الفاعل(قادر) منها الحجّة الأدنى في السّلم لأنّه دال على من قام بالفعل على وجه الحدوث والتّجديد لا على سبيل الثبات والملازمة فقدرته على خلق السّموات والأرض يحدث وينقطع ؛أي يحدث في زمن معين وينتهي . وعليه نصل إلى النتيجة الحجاجيّة التي مفادها تفرّد الله بالقدرة الثابتة المستمرّة على كلّ شيء . ويمكن تمثيل السّلم كالآتي :

(ن) تفرّد الله بالقدرة الثّابتة المستمرّة على كلّ شيء

ق1 – الله على كلّ شيء **قدير**

ق2 – الله **قادر** على خلق السّموات والأرض.

وفي صيغة التّفضيل هناك تراتبيّة للفاضل والمفضول ؛ ويحتلّ الفاضل أعلى السّلم فيما يحتلّ المفضول أسفله في الدّلالة على النّتيجة المراد الوصول إليها، ومن أمثلة ذلك :

قوله تعالى :﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ ﴾[الأعلى: 1 – 2] .

فاسم التّفضيل "أعلى" يصفُ سلما حجاجيًّا، أدناه "عليّ وعالٍ" لعموم الأشخاص والأشياء، وأعلاه رتبةً الله تعالى "أعلى". فالوظيفة الحجاجيّة هي التي استدعت استخدام هذه الصّيغة لأنّها شحنة حجاجيّة قويّة، للوصول إلى النّتيجة مفادها فرادة الله تعالى بالتّسبيح كونه الأعلى ولا يعلى عليه. ويمكن تمثيل هذا السّلم في الخطاطة التّالية :

(ن) فرادة الله بالتّسبيح

ق1 – أعلى

ق2 – عليّ

ق3 – عالٍ

وقوله تعالى :﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾الصف:7]

فاسم التّفضيل "أظلم" يصفُ سلما حجاجيًّا، أدناه "الظلم، والظالم" لعموم الأشخاص الذين ظلموا ، وأعلاه رتبة أهل الكتاب بوصفهم أظلم النّاس تشنيعا. فلا أحد أظلم منهم لأنّهم ظلموا الرّسول ﷺ فكذبوا دعوته ونسبوا إليه ما ليس فيه إذ وصفوه بالسّاحر، وظلموا أنفسهم إذ لم يتوخوا لها النّجاة، وظلموا ربّهم إذ سموا الآيات والحجج سحرا، وظلموا النّاس بحملهم على التّكذيب وظلموهم بإخفاء الأخبار التي جاءت في التّوراة والإنجيل مُثبتة صدق رسول الإسلام ﷺ[1] .

فالوظيفة الحجاجيّة هي التي استدعت استخدام هذه الصّيغة" أظلم " ؛ لأنّها شحنة حجاجيّة قويّة، للوصول إلى النّتيجة مفادها جحود أهل الكتاب واستمرار ظلمهم . ويمكن تمثيل هذا السّلم في الخطاطة التّالية :

(ن) جحود أهل الكتاب واستمرار ظلمهم

ق1 – أظلم

ق2 – ظالم

ق3 – ظلم

[1]– ينظر : ابن عاشور، التّحرير والتّنوير ، (188/28)

و السّور المسبحات مدونة تزخر بالصّيغ الصّرفية وفي الجدول الآتي إحصاء لهذه الصيغ :

1-اسم الفاعل :

السورة / اسم الفاعل	الإسراء	الحديد	الحشر	الصّف	الجمعة	التّغابن	الأعلى
ظالم	03		01	01	02		
صالح	02					01	
كافر	01			01		01	
مُؤمِن	03	03	02	01		02	
مُبين	01			01	01	01	
مُبذِر	01						
مُعذِب	02						
مُهلك	01						
كاذب			01				
مانع			01				
قائم			01		01		
فاسق		03	02	01			
مُهاجر			01				
صادق			01		01		
مُفلِح			01			01	
قادر	01						
خالد		01	01			02	
عالم			02		01	01	
مصور			01				
فائز			01				
مُهيمن			01				

مُتكبر			01				
بارئ			01				
خالق			01				
خاشع			01				
آخرين					01		
مُلاق					01		
رازق					01		
مُتصدِّع			01				
مُبشر	01			01			
مُتمّ				01			
مشرك				01			
منافق		02					
قاتل		02					
مُصدِّق		02					
مهتد		01					
المجموع	**16**	**14**	**22**	**08**	**09**	**09**	**00**
المجموع الإجمالي :78 بنسبة ذكر اسم الفاعل 09، 32% بالنسبة لباقي الصّيغ							

2صيغة المبالغة :

السورة / صيغة المبالغة	الإسراء	الحديد	الحشر	الصّف	الجمعة	التّغابن	الأعلى
غفور	02	01				01	
عليم		02			01	02	
رحيم	01	02	02			01	
رحمان			01				

سميع	01						
بصير	04	01				01	
فخور		01					
عجول	01						
شكور	01					01	
رؤوف		01	01				
قدّوس			01		01		
جبّار			01				
زهوق	01						
يئوس	01						
نذير	01						
كفور	04						
غرور	01	02					
صدّيق		01					
قتور	01						
ولي	01				01		
نذير	01						
أوّاب	01						
نصير	02						
خبير	03	01	01			01	
أليم	01		01	01		01	
شهيد	01						
حميد		01				01	
المجموع	**29**	**13**	**08**	**01**	**03**	**09**	**00**
المجموع الإجمالي :63 نسبة ذكر صيغ المبالغة 95، 25 % في السّور بالنسبة لباقي الصّيغ							

3-الصّفة المشبهة :

السورة / الصفة المشبهة	الإسراء	الحديد	الحشر	الصّف	الجمعة	التّغابن	الأعلى
العزيز		02	03	01	02	01	
الحكيم		01	02	01	02	01	
السلام			01				
كثير	01	03			01		
كبير	07	01					
كريم	01	02					
شريك	01						
قدير		01	01			01	
عظيم	01	03		01	01	02	
صغير	01						
أعمى	01						
حليم	01					01	
شديد	02	02	02				
غني		01	01			01	
حسن		02				01	
يسير		01				01	
قوي		01					
بريء			01				
المجموع	**16**	**20**	**11**	**03**	**06**	**09**	**00**
المجموع الإجمالي :65 نسبة ذكر الصّفة المشبّهة74، 26% بالنسبة لباقي الصّيغ							

4-اسم التّفضيل :

السورة / اسم التفضيل	الإسراء	الحديد	الحشر	الصّف	الجمعة	التّغابن	الأعلى
أحسن	03						
أكبر	02						
أعلم	04						
أهدى	01						
أقرب	01						
أضّل	01						
أعمى	01						
خير	01			01	03	01	01
أعظم		01					
حُسنى	01	01	01				
أبقى	01						01
أكثر	02						
أقصى	01						
أقوم	01						
أشد			01				
أظلم				01			
أعلى							01
أشقى							01
أحوى							01
اليُسرى							01
الكبرى							01

المجموع	20	02	02	02	03	01	07
المجموع الإجمالي :37 نسبة ذكر اسم التّفضيل22، 15 % بالنسبة لباقي الصّيغ							

ورد التّسبيح في القرآن الكريم عند ذكر تفرّده تعالى بخلق الخلق دون سواه ، وتنزيهه عن صفات النّقص، ونفي العبث واللهو والعجز ، وإثبات صفات الكمال من حكمة وعلم وكمال عظمته وتمام قدرته، وهذا ما جسدته ونقلته الصّيغ الصّرفيّة من :اسم فاعل، صيغة المبالغة، الصّفة المشبهة و اسم التّفضيل في السّور المسبحات ، وكانت هذه الصّيغ مشحونة بدلالات خصبة وإيحاءات عميقة مؤثرة ولم تكن تخضع للعفوية إطلاقا، فهي ترتكز على الدّوال والمدلولات ، لكنّها وردت بنسب متفاوتة في هذه السّور ولعل ذلك يعود إلى طبيعة مواضيع السّور وأغراضها .

حيث فاق ورود اسم الفاعل في السّور ككل على العموم (78) مرّة و في سورة الحشر على الخصوص اشتملت 22 اسما، وقد بيّن علماء اللغة أنّ الأصل في دلالة اسم الفاعل هو« الحدثُ والحدُوثُ وفاعله »[1] ؛ أي يدل على من قام بالفعل على وجه « التّجدد والحدوث »[2]، وقد وافقت صيغة اسم الفاعل في دلالتها موضوع سورة الحشر ؛ فكل ما في السّورة دال على الفاعليّة ونسبة الفعل له سبحانه وتعالى ؛ فالتّسبيح منسوب إليّه من كلّ الخلائق، وهو الغالب المدبر، مؤيد الرّسول ﷺ وناصره على أعدائه الذين ظنوا أنّ حصونهم وعدّتهم مانعتهم من الخروج من مدينتهم .وهو كاشف دخائل المنافقين ومواعيدهم لبني النّضير، وهو حاكم على أموال بني النّضير بعد الانتصار عليهم .

وتليها سورة الإسراء التي حوت 16 اسما وقد وردت أغلبها بصيغة الجمع، ولهذا التّعبير ما يعلله في التّرهيب ونبذ الصّفات الأخلاقيّة الدنيئة والمنتشرة بكثرة في فترة ما قبل الإسلام، وكذا بالنّسبة للأخلاق الحسنة فالتّعبير عنها بالجمع فيه ترغيب للنّاس بوجوب الاقتداء بها.وهذا ما يستوجب تسبيح الله .وقد ورد بعدد أقل في السور المتبقيّة ؛ الحديد (14) ثمّ الجمعة والتّغابن (09) وانعدم في سورة الأعلى كما هو موضح في الجدول أعلاه .

[1]–خالد بن عبد الله الأزهري، شرح التّصريح على التّوضيح أو التّصريح بمضمون التّوضيح في النّحو، دار الكتب العلميّة – بيروت، لبنان، ط1–2000م ، (11/2)

[2]– عبد الله بن صالح الفوزان، تعجيل الندى بشرح قطر النّدى، المكتبة الشّاملة ، دط–دت ، ص238

وبعد اسم الفاعل نجد الصّفة المشبهة و صيغة المبالغة اللتين وردتا بنسب متقاربة في السور بقدر65 صفة و63 صيغة على التّوالي ؛ ففي الصّفة المشبّهة نجد سورة الحديد تشتمل على أكثر الصفات بقدر 20 صفة ، والصّفة المشبهة تدّل على :«الثبوت والدّوام على خلاف اسم الفاعل يدل على التجدد والحدوث »[1]، والصفة المشبهة أبلغ منه لأنّه يدل على صفة عارضة، فعندما نقول محمد جالس، فهذا الجلوس لا يدوم ولا يفيد الثّبوت، فقد يقف بينما عندما نقول فلان قصير فهي صفة ثابتة، وقد وافقت الصّفة المشبهة في دلالتها سورة الحديد ؛ حيث افتتحت بإثبات أنّ كلّ ما في السّموات والأرض **(سبّحَ)**لله، وإثبات وصفه بالصّفات الجليلة المقتضية تنزيهه، وذلك من خلال الصّفات المشبهة الواردة فيها والدّالة على ثبوت الاتصاف بها .

فالعزيز الحكيم دالتان على الثّبوت والملازمة على القوة والغلبة مع الحكمة، وهما صفتان لا يشترك فيهما مع الله أحد، فجميع من يُوصف بالحكيم والعزيز يكون حكمه وعزّته صفة عارضة ومتنحيّة، أمّا الله عزّ وجل فثابتة وملازمة، فالعزيز الحكيم يتفرد بها الله فقط ثمّ تليها السّور المتبقية الإسراء(16)، الحشر (11)، التّغابن (09)، الجمعة (06)، كما نلاحظ انعدامها في الأعلى .

أمّا بالنسبة لورود صيغة المبالغة ، فقد فاقت سورة الإسراء باقي السّور في اشتمالها على هذه الصيغة حيث تراوح ورودها نحو29 صيغة دالة على الكثرة والمبالغة ، وصيغة المبالغة أقوى من الصّفة المشبهة ؛ لاحتوائها على مقولة العدد و الكثرة، ولهذا فقد وافقت هذه الصّيغة في دلالتها سورة الإسراء، فالمخاطب في الإسراء جاحد كافر بنعم الله مكذب بمعجزاته، فالسّياق مستوجب التعبير بها، لإثبات النبوة، ومدى بيان مدى كفرهم وإتباعهم للباطل بصيغ " كفور، غرور، زهوق"، كما أثبتت السورة فضله تعالى وفضل ما أنزل من الحقّ، وقد عبرت بذلك الصيغ " غفور، رحيم، عليم، رؤوف، بصير ... "، فصفة غفور ورحيم مثلا تدلان على الكثرة والزّيادة، وكثرتها وزيادتها مطمعة في عفوه ورحمته، وليس في ثبوتها، ومنه فإنّ مبالغة الغفور والرحيم تفرد لله .وتلي سورة الإسراء سورة الحديد التي احتوت

[1]– عبد الله بن صالح الفوزان، تعجيل الندى بشرح قطر النّدى، ص238 .

على13 صيغة، ثم التّغابن (09) ثم الحشر(8) ثمّ الجمعة (03)، ثمّ الصّف(01) ، كما نلاحظ انعدامها في سورة الأعلى كذلك .

أمّا اسم التّفضيل فنجد سورة الإسراء كذلك هي التي فاقت باقي السور فاحتوت على 20 اسما، واسم التّفضيل يدل على المفاضلة بين شيئين وأنّ أحدهما فاق على الأخر في صفة، وقد وافقت دلالته سورة الإسراء ؛ حيث أكمل الله الفضائل للرّسول ﷺ، فأيّدّه بمعجزة الإسراء فأحلّه بالمكان المقدس الذي تداولته الرّسل من قبل، فلم يستأثرهم بالحلول بذلك و المكان الذي هو مهبط الشّريعة الموسويّة، ورمز أطوار تاريخ بني إسرائيل وأسلافهم . وبيّنت تفضيل الإسلام على الكفر من خلال : التّذكير بالنّعم التي سخرها للنّاس، وإظهار فضائل شريعة الإسلام والإنذار بالعذاب للكافرين .

وتلي هذه السّورة سورة الأعلى التي لاحظنا غياب الصيغ السّابقة فيها ولعل هذا راجع إلى قصر السّورة، ومحدوديّة موضوعاتها، وطبيعتها التي لا تحتاج لمثل هذه الصيغ، لكن اللافت للنظر أنها تحتلّ المرتبة الثّانية في احتوائها على أسماء التّفضيل، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة موضوعها، فالسّورة تشير إلى كلّ ما هو أفضل ؛ فهي موجهة إلى أفضل الخلق أولا، ثمّ إنّها أمرت بتسبيح الله لإنفراده بالخلق السّوي ، وأنّه هو الذي أعطى رسوله الشّريعة السّمحة وكتاب من أفضل الكتب تذكرة وموعظة، وهذا يستوجب تسبيحه جلّ وعلا، ثمّ باقي السّور على التّوالي: الجمعة (03) ، الحديد ، الحشر ، الصّف (02) ثمّ التّغابن (01) .

وعليه يتبين لنا مدى موافقة دلالة هذه الصّيغ الصّرفية لموضوعات السّور، التي احتلت المراتب الأولى في الاشتمال عليها . وحسب هذا التّحليل يمكننارصد ثلاثة سلالم، فالأول منها سلّم وظيفي للصيغ الصّرفية ، أمّا الثاني فهو سلّم يبيّن ترتيب السّور المسبّحات وفق السّلّم الأوّل، والثّالث يمثّل سلّما كمّيا للصّيغ الصّرفيّة في تلكم السّور، وسنوضّح تراتبية وسلّمية هذه السلالم الثّلاثة فيما يلي :

أ-السلّم الوظيفي للصيغ الصّرفية:

- اسم التّفضيل
- صيغة المبالغة
- الصّفة المشبّهة
- اسم الفاعل

ب- سلّم ترتيب السّور حسب السلّم الوظيفي للصيغ الصّرفية في السّور المسبّحات :

(ن) فرادة الله بالتّسبيح

ق1 ـ الإسراء ثمّ لأعلى ثم الجمعة ثم (الحشر والحديد والصف) ثم التغابن

ق2 ـ الإسراء ثم الحديد ثم التّغابن ثم الحشر ثم الجمعة ثم الصّف

ق3 ـ الحديد ثم الإسراء ثم الحشر ثم التّغابن ثم الجمعة ثم الصّف

ق4 ـ الحشر ثمّ الإسراء ثم الحديد ثم (الجمعة والتّغابن) ثم الصّف

ج-السلّم الكمّي للصيغ الصّرفية في السّور المسبّحات:

(ن) إثبات صفات الكمال والعظمة و فرادة الله بالتّسبيح

- اسم الفاعل (32.09 %)
- الصّفة المشبّهة (26.74 %)
- صيغ المبالغة (95. 25 %)
- اسم التّفضيل (22. 15 %)

من خلال هذا السّلالم يتضح أنّورود الصّيغ الصّرفيّة في السّور المسبحات بنسب متفاوتة شكّل سلّما يرمي لتحقيق نتيجة مفادها : إثبات صفات الكمال والعظمة و فرادة الله بالتّسبيح ، و قد علا قمته اسم الفاعل بنسبة 32.09% بالنّسبة لباقي الصّيغ ليدل على الفاعليّة المنسوبة لله سبحانه وتعالى ، وأنّ كلّ شيء بيده وأنّ التّسبيح منسوب لجلالته، ثمّ تليها الصّفة المشبهة بنسبة 26.74%، لتدّل على ثبات الفاعليّة والتّسبيح، و تعقبها مباشرة

صيغة المبالغة التي وردت بنسبة 25.95% لتؤكد على كثرة اتّصاف الله بالفاعليّة ووجوب الإكثار بالتّسبيح، ثمّ يليها اسم التّفضيل بنسبة22. 15 % ليثبت فضل التّسبيح ويمحّص فضل السّور المسبحات .

بعد إحصاء اسم التّفضيل توصلنا إلى تواجده في سورة الإسراء أكثر من باقي السّور وهي أول السّور المسبحات في المصحف ترتيبا، ثمّ في سورة الأعلى وهي خاتمتهم ، فباقي السّور وقعت بين الأفضلين ولعل هذا يؤكد فضل هذه السّور وفضّل التّسبيح .

ثالثا- سلميّة التّركيب النّحوي في السّور المسبحات:

يتمّفي هذا المستوى رصد مختلف التّراكيب اللّغوية، استنادا إلى القواعد النّحوية المتعدّدة، على غرار بنية التركيب الاسمي ودلالته، وتوظيف الأسماء والأزمنة ...، ولكن أردنا في دراستنا هذه التّركيز على والتّقديم و التأخير، والحذف .

1-التّقديم والتّأخير :

جاءت ألفاظ القرآن الكريم قوالب لمعانيه فهي في غاية الدّقة، فلو أُبدِلت لفظة مكان لفظة، أو أُخِّرت أو قُدِّمت لاختل المعنى، ولذهب رونقه، وانطفأ حسنه، ويقول عبد القاهر الجرجاني عن التّقديم والتّأخير بأنّه :« باب كثير الفوائد جمّ المحاسن واسع التّصرف بعيد الغاية لا يزال يفترّ لك عن بديعه، ويُفضي بك إلى لطيفه .»[1]. والغاية من التقديم والتّأخير توضيح الفكرة للمتلقّي، ويتمّ من خلاله تقديم المسند على المسند إليه كتقديم الخبر على المبتدأ أو الفعل على الفاعل ، وسنحاول رصد مواطن التّقديم والتّأخير في السّور المسبحات، و سنذكر أوّلا بعض الأمثلة الّتي تضمنت تقديمًا للفظة عن الأخرى وهي كالآتي :

ففي قوله تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ ﴾، **[الإسراء 1]**

وكان مقتضى القول (أسرى ليلًا بعبده) لتقدّم المفعول فيه (ليلاً) رتبة عن شبه الجملة، ولكن تقديم (بعبده) جاء لغاية سامية، و الاهتمام بالنّبي الكريم فليس الإخبار عن

[1]- عبد القاهر الجرجاني، من دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي - بيروت، ط1 - دت، ص96.

الرّحلة هو غرض الآية، وإلا لقال (ليلًا بعبده) ولكن الغرض الإخبار عن صاحبها، ولذا تقدّم ذكره فتقديم اللّفظ رسالة لأصحاب الدّيانات بأن ينتهوا عن الشّرك، ويتبعوا ديانة التّوحيد، وتأكيد لمن شكّك في وقوع الرّحلة أو نسبها للخيال ؛ أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم قد أسري به كليّة برعاية الله ، فلا يظن أحد أنّ الإسراء محض خيال.

– يقول تعالى﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ ﴾[الحديد:1]

في هذه الآية قدّم الله سبحانه وتعالى ألفاظًا على أخرى، فقد قدّم لفظ السّماوات على الأرض فبدأ بلفظ السّماء لأنّهم أسبق في التّسبيح قبل خلق أدم ولأنّهم أدوم تسبيحًا، ولأنّ أهل الأرض لم يكونوا موجودين أصلاً، قبل أن يخلق أدم فبدأ بمن هم أسبق منه في الخلق وأسبق في التّسبيح [1]

يقول تعالى : ﴿ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢ ﴾[الحديد:2]

فالتّقديم في لفظة(له)وهو خبر مقدّم والمبتدأ المؤخّر (ملك) وقد أفاد تقديم الجار والمجرور(له) وتأخير وتعريف المبتدأ (ملك السّماوات) القصر فلا ملك لأحد سواه على الحقيقة .

قال ابن عاشور:" أفاد تعريف المُسند إليه(ملك السّماوات) قصر المسند (له) على المُسند إليه، وهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بملك غيره في الأرض، إذ هو ملك ناقص فإنّ الملوك مفترقون بما يدفع عنهم العوادي بالأحلاف، والجند، وإلى ما يدير نظام المملكة من وزراء وقواد، وإلى أخذ الجباية و الجزية ونحو ذلك، أو هو قصر حقيقي، إذا اعتبرت إضافة (ملك) إلى مجموع السّماوات و الأرض، فإنّه لا ملك لمالك على الأرض كلها بل السّماوات معها. "[2]

-قال تعالى :﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤ ﴾في [الحديد:4]، هذه الآية تقديم مايدلّ على جملة جواب الشّرط على جملة الشّرط وأداته في قوله تعالى:﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ ٤ ﴾ كما نرى أن جملة جواب الشّرط قد قُدِّمت على

[1]– ينظر: فاضل السّامرائي، على طريق التّفسير البياني ، (200/1) .

[2]– ابن عاشور، التحرير والتنوير، (358/27).

جملة الشّرط ؛ بهدف الإثارة الذّهنيّة و استفزاز ذهن المتلقي انتظارًا لبقية التّركيب، وقد تكون قدّمت لأنّ المعنى فيه أكثر أهميّة من المعنى الذي تظهر فيه جملة الشّرط والمقصود من التّقديم نقل الخبر بالتّركيز على جزء من أجزائه ولإظهار عنايته واهتمامه به. يقول تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصّف: 4] ،

بدأت هذه الآية بـ (إنّ) المؤكّدة لتشير إلى هذا الحبّ؛ لأن حال بعض المسلمين يقتضي التّأكيد . إذ إنّ الحالة الّتي يدعوكم إليها هي حبيبة الله سبحانه، فقدّم سبحانه (في سبيله) على(صفا) ذلك لتقديم النّية و أهميتها قبل أن يدخلوا في الصّف، ثم أنّ توحيد النّية سبب لتوحيد الصّف، فإن لم يكن القتال في سبيل الله فلا خير فيه، والقتال عند العرب هو جزء من حياتهم يغيرون ويغار عليهم، ولذلك قال الأنصار : يا رسول الله نحن أبناء القتال فالقتال قائم، ولكن لابد من تصحيح هذا الأمر، فإنّكم تقاتلون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ولتكون قلوبهم على نيّة واحدة كأنّهم بنيان مرصوص[1]

وسنحاول في الجدول التّالي أن نحصي الآيات التي ورد فيها التقديم والتّأخير في السّور المسبحات:

السّورة	رقم آيات التّقديم و التّأخير	تواترها	النّسبة المئويّة
الإسراء	1-2-4-5-6-12-13-18-19-22-23-25-26-31-32-33-34-35-36-37-38-39-40-44-46-48-49-50-51-54-57-63-64-65-66-72-75-78-79-80-82-86-88-93-95-96-100-101-102-104-105-106-109	53	% 76.64
الحديد	1-2-3-4-8-10-19-20-22-25-26	11	% 15.49
الحشر	7	1	% 1.40

[1]-ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (358/27).

الصّف	4-11-	2	% 2.81
الجمعة	0	0	0
التّغابن	1-2-14-	3	% 4.22
الأعلى	19	1	% 1.40

الملاحظ من بناء إحصاءات هذا الجدول أنّ أكبر ورود لظاهرة التّقديم والتّأخير في السّور كان في سورة الإسراء، حيث تكرّرت حوالي 53 مرّة بنسبة 76.64%، حيث لا تكاد تخلو آية- إلّا ما قلّ - من تقديم أو تأخير في ألفاظ التّراكيب، فالتّقديم جليّ في سورة الإسراء ؛لأنّه يلتقي بمحور هام من محاور السّورة ؛ وهو التّأكيد على الدّعم الإلهي لهذا الدّين، والتّنديد بكل من يحاول النّيل أو التّشكيك بالمعجزة الإلهية ، الّتي اعتلى من خلالها محمد ﷺ اعتلت بعلوه أمّته جمعاء .وتجلّى ذلك في تقديم مايقتضي تقديمه سياقيّا بدالة الوظائف النّحوية، وجعل المقدّم أعلى سلّم الاهتمام والعناية .

ثمّ يظهر بنسبة متفاوتة في باقي السّور ؛ حيث نجد في المرتبة الثّانية سورة الحديد بقدر 11مرّة بنسبة 15.49 %، ولعل ذلك يعود إلى أنّ الهدف الأسمى من سورة الحديد هو إثبات صفات الله الجليلة التي تقتضي تنزيهه و كذلك الدّعوة إلى الإنفاق لإصلاح حال الجماعة ، فالسّورة ربطت الإيمان بالإنفاق، فهذا الأخير يستلزم الإيمان، وهذا موضوع مهمّ ولكن موضوع إثبات النّبوّة في سور ة الإسراء أكثر أهميّة

ثمّ تليها باقي السّور بنسبة قليلة جدّا حوالي 22، 04 % و 44، 01% ولعلّ هذا يعود إلى ولعل ذلك يعود لتقارب أهميّة موضوعاتها المتمثّلة في : وجوب تعظيم الذات العلية ومحاربة أعداء الدّين لإعزاز دينه ، وإعلاء كلمته، ويمكننا تجسيد هذه التّراتبيّة التّنازلية لعدد ورود التقديم والتّأخير في السّور المسبّحات في السّلّم التّالي :

(ن) بيان أهميّة تسبيح الله تعالى وتعظيمه ونصرة دينه ونبيّه

ق1 ـ سورة الإسراء (76.64%)

ق2 ـ سورة الحديد (15.49%)

ق3 ـ سورة التغابن (4.22%)

ق4 ـ سورة الصّف (2.81%)

ق5 ـ سورة الحشر والأعلى(1.40%)

ق6 ـ سورة الجمعة (0%)

وبعد هذه الدّراسة في ظاهرة التقديم والتّأخير في السّور المسبّحات لاحظنا تعدّد أشكال التّقديم والتّأخير، فنجد تقديم المفعول به على فعله، والخبر على المبتدأ، وتقديم شبه الجملة على الفاعل والمفعول ...الخ، وهذا ما استدعى تنوّع الدلالات والأغراض البلاغية كالّتقديم للاهتمام والتّخصيص، ومن ثمّ التّدرّج في ذكر الأقلّ إلى الأكثر، والأدنى إلى الأبعد، وغيره.

كما لاحظنا ورود التّقديم والتّأخير في السّور المسبّحات بنسب متفاوتة، مما أتاح لنا تشكيل سلّم تصاعدي، قمّته الإسراء وقاعدته سورتيْ الحشر والأعلى، وسجّلنا انعدام ورود التقديم والتّأخير في سورة الجمعة، وكانت نتيجة هذا السّلّم ترمي إلى: بيان أهميّة تسبيح الله تعالى وتعظيمه ونصرة دينه ونبيّه . و كانت سورة الإسراء بنسبة 76.64% فيه كحجّة أقوى لتبيّن أهميّة العناية الإلهيّة لإثبات النّبوة ولتندد بكل من يحاول التّشكيك فيها، ثمّ تليها سورة الحديد بنسبة 15.49% كحجّة وسطى لتبيين أهميّة إثبات صفات الكمال لله و الدّعوة إلى الإنفاق، ثم تلتها باقي السّور كحجّة أدنى، وهذا ما شكّل دعامة للتدرّج في طريقة التّأثير في الدّعوة لجلب اهتمام المخاطب قصد تسليمه وإذعانه. وعليه نستنتج أنّ المقدّم محظيّ بأعلى درجات سلّم الاهتمام والعناية بسلطان السّياق ، وبدلالة تقديم الوظائف النّحوية التي حققها التأخير كصناعة نحوية.

2-الحذف :

يعد الحذف من عوارض التركيب في الكلام، وهو في الوقت نفسه أحد العوامل التي تساعد في تماسك النص ، فالحذف يقع في الصوت والحرف والكلمة والجملة، وهذا الحذف يحدث وفقاً لمقتضيات المقام، وقد وصف عبد القاهر الجرجاني الحذف بأنّه «

لطيف المأخذ عجيب الأمر، شبيه بالسحر »1. والحذف أبلغ من التّصريح ، وله أهميّة بالغة في إيصال المعنى بدقّة، ففي هذا الأمر يقول الجرجاني:« هو باب دقيق المسلك ... أفصح من الذكر والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذ لم تنطق وأتمّ ما تكون بيانًا إذا لم تبيّن.»[2]

ومن تجليات الحذف في السور المسبحات :

قوله تعالى :﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ ﴾[التغابن: 18].

ففي هذه الآية المباركة حُذف المبتدأ ، والتقدير (هو عالم الغيب والشهادة)، وفي هذا الحذف استغناء عنذكر المسند إليه والمقدر بالضمير المنفصل (هو) الذي تعود دلالته على الله سبحانه وتعالى، ومع كون المبتدأ من الأركان الرئيسية في الجملة، لكنه يمكن الاستغناء عنه كما في النص القرآني: وذلك لوجود قرينة تدل عليه وهي قرينة السياق « ويحذف المبتدأ عندما يكون ذكر الخبرالمتصف بصفة، كأنه يشير إلى هذا المبتد أ، وكأنما بلغ من الشهرة بهذا الوصف مبلغاً يغني عن ذكره »3، وما علم الغيب والشهادة إلا من الصفات التي اختص بها سبحانه وتعالى، ولا يمكن وصف أحد غيره بهذه الصفات.

ونستطيع تمثيل ذلك في السّلّم التالي:

(ن) ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ ﴾

ق1 — Ø عالم الغيب والشّهادة .

ق2 — هو عالم الغيب والشّهادة .

يتبيّن من هذا السّلّم أن الجملة التي على المحذوف (عالم الغيب والشهادة)احتلّت أعلى السلّم، بوصفها اختيارا اجتبائيا من قبل المولى عزّ وجل، والمقدّر أدنى السّلم بصفته متروك الذّكر حاضر الذّهن .

وقد يحذف الخبر من النصوص القرآنية في السور المسبحات، وذلك لأغراض يقتضيها سياق الآية، ففي قوله تعالى:﴿ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَانَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣ ﴾[الصف 13]، فقد حذف الخبر في هذه الآية المباركة، فـ: « (أخرى) مبتدأ خبره محذوف دلّ عليه

---

[1]–الجرجاني، دلائل الإعجازفي علم المعاني، تح :ياسين أيوب، المكتبة العصرية ، (د ط–د ت) ص146

[2]– نفسه ، ص163.

[3]– بدوي، من بلاغة القرآن، ص 96

قوله (لكم) من قوله (يغفر لكم) والتقدير: أخرى لكم»1ولعل سبب الحذف هو معرفته من السياق المذكور، فلا حاجة لذكره «وجيء به وصفاً مؤنثاً بتأويل نعمة، أو فضيلة، أو خصلة 2«

ويمكننا تمثيل هذا الحذف في السّلم التّالي :

(ن)﴿ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣ ﴾

ق1 ← وَأُخۡرَىٰ Ø تُحِبُّونَهَا

ق2 ← وأخرى لكم تحبّونها

يتبيّن من هذا السّلّم أن الجملة التي على المحذوف (وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَا) احتلّت قمّة السلّم، بوصفها اختيارا اجتبائيا من قبل المولى عزّ وجل، والمقدّر(وأخرى لكم تحبّونها) أدنى السّلم بصفته متروك الذّكر حاضر الذّهن .

كما يعد الفعل أيضاً من الأركان الرئيسية للجملة، بل من أهم أركانها و عدّه المخزومي قائلا : «الفعل من أهم أجزاء الجملة، بل هو أهمها، فهو لا يقتصر على الدلالة على الحدث حسب، ولكنه يحدثنا عمّا فعل الشخص، أو الشيء، وعما يفعلان، وعما سيفعلان»3

ومع هذه الأهمية فإنّه يحذف أيضاً لوجود قرينة تدلّ عليه، فمن القرائن التي تدل على الفعل المحذوف وجود فعل في سياق الآية يفسره الفعل المحذوف كقوله تعالى :﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧ ﴾ [الحشر 7]، فـ: « (ما) اسم موصول في محل نصب مفعول به لفعل محذوف دلّ عليه خذوه » 4 وهذا ما يوضّحه السلّم التّالي:

1– ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، (195/28، 196)

2– نفسه، (196/28)

3–المخزومي، مهدي، في النحو العربي، نقد وتوجيه، دار الرائد العربي– بيروت، لبنان، ط2–1986، ص207

4– الدرويش، محيي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، مطبعة سليم انزاده، منشورات، كمال الملك – العراق، النجف، ط1 – 1425هـ، (473/28)

(ن) ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾

ق1 ما أفاء اللّه على رسوله Ø

ق2 ما أفاء اللّه على رسوله فخذوه.

يتبيّن من هذا السّلّم أن الجملة التي على المحذوف (ما أفاء اللّه على رسوله) احتلّت أعلى السلّم، بوصفها اختيارا اجتبائيا من قبل المولى عزّ وجل، والمقدّر أدنى السّلم بصفته متروك الذّكر حاضر الذّهن .

وقد يُحذف الفعل لدلالة المصدر عليه كما في قوله تعالى :﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[الإسراء1] .

فقد حذف الفعل (سبح) لدلالة المصدر (سبحان) عليه و"سبحان" مصدر سماعي يكون منصوباً بفعل محذوف تقديره (سبح) وقد ينوب المصدر عنه، وفي هذا الحذف نجد السّياق قد تضمن دلالة معجمية، وذلك من الاشتقاق الذي يدلنا على الفعل المحذوف، وقد يكون في هذا العدول من الفعل إلى المصدر معنى التوكيد « وكثيراً ما يستعمل للتعجب لكن سياق الآيات إنما يلائم التنزيه لكونه الغرض من البيان »1 ويمكن تمثيله كالآتي:

(ن)﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ ﴾

ق1 Ø سبحان الذي أسرى

ق2 سبح سبحان الذي أسرى

يتبيّن من هذا السّلّم أن الجملة التي على المحذوف (سبحان الذي أسرى) احتلّت أعلى السلّم، بوصفها اختيارا اجتبائيا من قبل المولى عزّ وجل، والمقدّر أدنى السّلم بصفته متروك الذّكر حاضر الذّهن.

[1]– محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت –لبنان، ط1 –1997، (7/13)

ويمثّل الجدول الآتي إحصاء الآيات الّتي وردت فيها ظاهرة الحذف في السّور المُسبّحات

السّورة	آيات الحذف	تواترها	النّسبة المئويّة
الإسراء	-3-7-9-11-15-23-24-29-32-33-39-41-54-71-73-75-80-90-100-102-106-107-110	25	43%، 10
الحديد	7-10-13-14-16-18-24-25-26-28	10	24%، 17
الحشر	3-5-8-9-10-12-19-22-23	9	15%، 51
الصّف	5-8-9-11	4	06 %، 89
الجمعة	-2-5-9	3	5%، 17
التّغابن	5-12-13-14-	4	06 %، 89
الأعلى	1-9-10	3	05%، 15

فالمتأمّل لهذا الجدول يسجّل أنّ هناك تباينا في نسبة ورود الحذف في السور المسبّحات حيث كانت أعلى نسبة وروده في سورة الإسراء فقدّرت بـ : 10، 43%، وهذا ما يناسب موضوعها المتمثل في إثبات النّبوة من خلال معجزة الإسراء كي يصدقها كفار قريش وهم أهل فصاحة وبلاغة ولا تستميلهم التّعابير العادية ؛ فكان توظيف الحذف أبلغ لإقناعهم وإذعانهم . وهذا ما وتوافق الأسلوب مع الغرض الذي أعطى الخطاب قوة حجاجيّة حققت الوصول إلى النتيجة التي مفادها فرادة الله بالتّسبيح .

أمّا في المرتبة الثّانية فنجد سورة الحشر قد ورد فيها الحذف بنسبة 51، 15% ولعلّ هذا ما يناسب محورها الذي يدور حول إظهار ماخفي من خلال الحذف قصد كشف دخائل المنافقين ومواعيدهم لبني النّضير وخذل ظنونهم في أنّ قوّة الحديد (العُدّة والحصون) تغلب قوّة الإيمان .

أمّا في السّور المتبقيّة فورد الحذف بنسب قليلة ومتقاربة، كونها سورا تعلّقت بالتشريع و العقيدة اهتمّت بالجانب المادي والروحي معًا ، وهذا لايتطلّب بلاغة في الأسلوب .

وعليه إنّ التّركيب النّحوي يوفر تراتبيّة حجاجيّة للنّصوص حسب مقام الخطاب فالتّركيب الطّبيعي للجملة قد لا يستفز المتلقي، أمّا حذف هذا التّرتيب فلا يكون اعتباطيّا بل تستوجبه حالة المتلقي من النّص، أو قصديّة المتكلّم بجعل المتلقي يلتف إلى هذا الخرق من أجل الإذعان والإقناع، وعليه نستطيع تمثيل تراتبيّة ورود الحذف في السّور المسبّحات في السّلم التّالي :

(ن) فرادة التسبيح لله

ق1 ـ سورة الإسراء (43، 10%)

ق2 ـ سورة الحديد (17، 24%)

ق3 ـ سورة الحشر (15، 51%)

ق4 ـ سورتيْ الصف والتّغابن (6، 89%)

ق5 ـ سورتيْ الجمعة والأعلى (5، 17%)

نلمس من هذا السّلّم أنّ هناك تقاربا بين ترتيب السور في ورود الحذف وترتيبها في المصحف، وتوظيف الحذف بأنواعه وأغراضه في هذه السّور وافق أغراضها جميعا وهذا ما يدلّ على إعجاز القرآن الكريم، والّذي يستدعي فرادة الله بالتّسبيح .

رابعا- سلّميّة التّقسيم البلاغي في السّور المسبحات:

يستخدم المخاطب في خطابه إمكانات حجاجية تمكّنه من توجيه ذهن المتلقّي نحو الوجهة التي يريد رسمها، فيعمد إلى إضافة قيمة للملفوظات ؛ لتحتلّ درجة أعلى في السّلّم الحجاجي ، ثمّ يزوّد الخطاب بطاقة حجاجيّة تدفع متلّقيه للإذعان والتسليم له .

و الحقيقة أنّ سلّميّة البيان البلاغي ندركها من خلال درجتي الخطاب (الحقيقة / المجاز)، والمجاز في حدّ ذاته قائم على التّراتبية ، وحسبنا دليلا أضرب الاستعارة وصروف الكناية أنواع التشبيه و و عليه ستنحصر دّراستنا في الصّور البيانيّة .

1- الحقيقة والمجاز (الاستعارة وصروف الكناية):

لا يكاد أيّ خطاب قرآني يخلو من الاستعارة الحجاجية، وإنّ الخطاب الحجاجي يبني نفسه وفق آليات عديدة، ومن أهمّها الاستعارة والكناية ؛ فهما اللّتان تعملان على توجيه ذهن المخاطب نحو الوجهة التي يحدّدها له المخاطِب سلفا ؛ للوصول إلى نتيجة معيّنة .

وعليه فالاستعمال المجازي للكلمة لا يحقق في النّفس ما قد يحقق الاستعمال الحقيقي للكلمة، وإن كان مخالفا لما يقتضيه المنطق، فالقول الاستعاري فائدته تزيد قوّة عن فائدة القول الحقيقي الذي يوضّحه ويشرحه ، ومنه قولنا (ضحكت الشّمس) أبلغ فائدة من العبارة التي تفسّرها (أشرقت الشمس)[1]

فالاستعارة مثلا قد تعلو استعمال ألفاظ الحقيقة عندما يفضّل المتكلّم استخدامها ثقة منه بأنّها أبلغ من الحقيقة حجاجيّا، وهذا يرجع ضمن أدوات السلّم الحجاجي ؛ذلك لأنّها تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف ... وهو ما يسعى إليه المتكلّم[2].

أمّا الكناية فتعدّ من مستويات البلاغة الحجاجية ، فبدل أن تصرّح تكنّي وينطبق عليها مافي الاستعارة من قوّة حجاجية .

ومنه يتّضح أنّ اللّغة المجازية المتمثّلة في (الاستعارة، الكناية) آليتان حجاجيتان بامتياز، وعليه يمكننا أن نمثّل تراتبية كل من اللغة الحقيقية والمجازية داخل السلّم الحجاجي على النّحو التّالي :

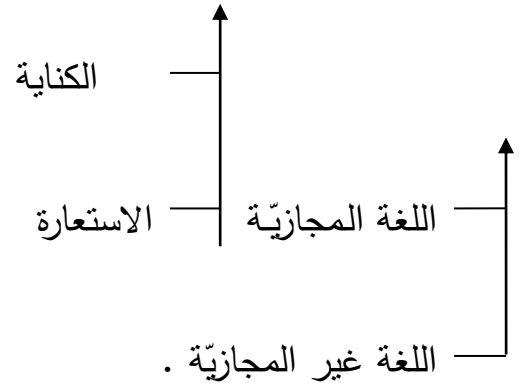

يتّضح من خلال السّلم أنّ اللغة المجازية تقع أعلى السّلّم الحجاجي، في حين تقع اللغة غير المجازيّة أسفله، وهذا يعود إلى كون اللّغة المجازية أقوى من النّاحية الحجاجية، وأثرها في نفس المخاطب أكبر من استعمال اللغة العاديّة . كما نلاحظ أنّ اللغة المجازية تتفاوت درجاتها، فالتشبيه يقع أسفل السّلّم ، لكنّه أعلى درجة من اللّغة العاديّة، وتتوسّط الاستعارة السّلّم، في حين تكون الكناية أعلاه.

[1]– ينظر، طه عبد الرّحمن، الاستعارة بين حساب المنطق ونظريّة الحجاج (بحث)، مجلّة المناظرة، العدد 4–1991، ص 54

[2]– ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشّهري ، استراتجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 459

وتعتبر السّور المسبّحات مدوّنة خصبة جدّا لإبراز أثر اللغة المجازية في الخطاب القرآني ومدى تأثيرها على المتلّقي، وذلك بسبب تراتبيّة استعمال المجاز ، وسنقدّم بعض النّماذج من الاستعارة والكناية باعتبارهما آليتين حجاجيّتين :

الاستعارة :

قال تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإسراء12]

المحو : الطّمس، وأطلق على انعدام النّور ؛ لأنّ النّور يُظهر الأشياء، والظُّلمة لا تظهر فيها الأشياء، «فشبّه اختفاء الأشياء بالمحو »[1]، وذلك بجامع عدم الظّهور على سبيل الاستعارة التّصريحية، فحذف المشبّه وهو اختفاء الأشياء وعدم ظهورها، وذكر المشبّه به: محوْنا المشتقّ من المحو، فاستعير المشبه به (المحو) ليدلّ على المشبّه المحذوف (اختفاء الأشياء وعدم ظهورها) .

الكناية :

قال تعالى:﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾[الإسراء24]، فالكناية في قوله : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ كناية عن التّواضع ولين الجانب فالطّائر يخفض جناحه عندما ينزل إلى الأرض، والنّزول يعني التّواضع وعدم التّرفّع .[2]

فهذه كناية عن صفة التّواضع، وفي ذلك تصوير المعنى المعقول الّذي لا يدرك بالحواس، إلى معنى محسوس يمكن إدراكه بالحواس، فصورة الطّير خافضا جناحه حانيا على فراخه توحي بالذّل والتّواضع .

[1]– ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، (15/ 44)

[2]– عبد القادر حسين محمّد، القرآن والصّورة البيانيّة، عالم الكتاب – بيروت ، ط2 –1405 هـ ، ص225

وللوقوف على الحمولات الحجاجية أردنا تمثيلها على السّلّم الحجاجي التالي:

﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ ﴾

كناية عن صفة التّواضع

اللّغة المجازيّة ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ ﴾

استعارة

اللّغة العاديّة الحقيقية الخاصة :

بالكناية : أي تواضع مع الوالدين بخض الصوت والاحترام

بالاستعارة : في الليل ينعدم النور، فلا نستطيع رؤية الأشياء فيه.

من الواضح أن بنية الملفوظ الحجاجي في هاتين الآيتين اعتمد ت على الإعارة فالاستعمال العادي للغة يجعل من بنية الملفوظ لا تحمل أيّ قوّة حجاجية، في حين تحمل اللغة المجازيّة حمولات حجاجية، و بالتّالي فالتعبير غير المباشر أقوى من التّعبير المباشر، إلّا أنّ اللغة المجازية ليست على درجة واحدة من حيث القيمة الحجاجية، بل هي متفاوتة **مثل هذا اللّغة المجازية**، فكلّا من الاستعارة والكناية، تشتركان في التعبير غير المباشر (المجاز) ، غير أنّ الاستعارة تعبّر عن مشابهة عرضية غير ثابتة وهنا عدم رؤية الأشياء في الليل فقط (ساعات من الزمن) ثمّ سرعان ما يأتي النّهار فتتضح الرؤية .

أمّا الكناية فهي تعبير عن ملازمة ثابتة للموصوف ، وتمثّلت في دوام احترام الوالدين والتواضع لهما ، ومنه فالملازمة والثّبات والدّيمومة أقوى من المشابهة العرضية، وعليه احتلّت الكناية المرتبة الأعلى في السّلّم ذلك لما لها من تأثير على المخاطب؛ إذ جسّدت المعنى المحسوس كأنّه معنى ملموس يراه المتلقي أمامه، ثمّ تأتي الاستعارة في المرتبة الثانية من السلّم كونها قرّبت المعنى من الذّهن بأدقّ صورة وأرقّ تأثير.

وسنحاول في بحثنا هذا رصد أبرز ما ورد في السّور المسبّحات من استعارات وكنايات وإحصائها في هذا الجدول:

السّورة	رقم آيات الاستعارة	عدد ها		رقم آيات الكناية	عددها
الإسراء	12- 13 -24- 36 - 46 -56- 58- 64- 70-71- 72- 81	12		24-29- 46 -51-54 - 76-83- 88- 100 - 103	10
الحديد	9-10- 11-12-13 - 17 -18- 21- 25	9		1-4 -14-15- 29	5
الحشر	7-9- 15-21	4		6-12- 14-18- 20	5
الصّفّ	8 -10	2		2-3- 4	4
الجمعة	8	1		2-3 – 6 - 7	4
التّغابن	4-12- 17	3		4 - 11	2
الأعلى	0	0		11- 13	2
العدد الإجمالي		31		العدد الإجمالي	32

يتبيّن لنا من الجدول أنّ عدد ورود الاستعارات في كلّ السور المسبّحات متقاربة من عدد ورود الكنايات فيها، إلاّ أنّنا لاحظنا أنّ هناك تفاوت كبير على مستوى كل سورة سواء في الاستعارة أو الكناية ويمكننا تجسيده في السّلّمين التّاليين :

(ن) ترسيخ عقيدة التوحيد والإيمان بالله ووجوب تسبيحه وذكره في كل مكان وزمان

مجال الاستعارة

ق1 — الإسراء (12)
ق2 — الحديد (9)
ق3 — الحشر (4)
ق4 — التّغابن (3)
ق5 — الصّفّ (2)
ق6 — الجمعة (1)
ق7 — الأعلى (0)

مجال الكناية

ق1 — الإسراء(10)
ق2 — الحديد، الحشر(5)
ق3 — الصفّ، الجمعة (4)
ق4 — التّغابن، الأعلى(2)

ففي الاستعارة تحصّلت سورة الإسراء على حصّة الأسد حيث بلغت عدد الاستعارات فيها 12 استعارة، وعليه فقد احتلّت أعلى السّلم، ولعلّ هذا راجع إلى توافر المعاني التي

تحتاج إلى ترسيخ التوحيد بالله وتسبيحه والحاجة إلى الإعارة لتقريب المعنى وبالتالي ربطه بمعنى واحد أو بعدة معان نحو ارتباط النور بمعان كثيرة نذكر منها: النور المستعار للإيمان والإسلام والأعمال الصّالحة والقرآن، فغدا النّور صورة لكلّ ماهو مشرق في حياة الإنسان ليلتفت النّاس إليها فتدركها عقولهم ثمّ تأتي بعدها سورة الحديد فالحشر

كما سجّلنا ندرة وقلّة الصور البيانية في سورتيْ التغابن والجمعة ، ولعلّه يعود إلى إقرار الحقائق العقائدية ؛ كأداء صلاة الجمعة و التحريض على الجهاد ، فهي أمور لا تستدعي الكثير من الصور البيانيّة ، أمّا سورة الأعلى فقد سجّلنا غياب الاستعارة فيها ولعلّ هذا راجع لقصرها أو لمحدودية موضوعها وحالة المخاطب فيها الذي لا تخفى عليه دلائل وحدانية الله في صور ظاهرة للعيان .

أمّا الكناية فكان فقد كان لها حضورا واضحا في سورة الإسراء حيث وردت 10 عشر مرّات، ولعلّ هذا يرجع إلى طول السورة مع تنوّع موضوعاتها وكثرتها، حيث كان المجال واسعا للصّور البيانيّة نحو الكناية عن البخل والتّواضع والذّلّ .. والكناية بالتّعريض في الحثّ عن التّسبيح. وهذا ما لمسناه في مستهلّ كل سورة من سور المسبّحات، كما لمسنا أنّ هناك توافقا في عدد الورود في سورتيْ الحديد والحشر والصّفّ والجمعة، ولعلّ ذلك يرجع إلى تداخل مواضيعها أوتشابه معانيها التي تحتاج لتوضيح بترك الصريح واللجوء إلى الكناية

2-التّشبيه :

ورد التشبيه في سور المسبّحات بأضرب متنوعة أيضا حيث تراوحت بين التشبيه التّمثيلي والبليغ والتام (المفرد) نذكر على سبيل المثال :

قوله تعالى:﴿ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ ﴾[الإسراء 28]

جاء في الكشّاف أنّ : المبذّرين أمثال الشّياطين في الشّرارة [1] ؛ لأنّه لا أكثر شرا من الشّيطان ، فيبدو أنّ التّشبيه في هذه الآية تشبيه بليغٌ ، حُذفت منه الأداة ووجه الشّبه فالمشبّه (المبذّرين) والمشبّه به (إخوان الشّياطين)، فالشّر صفة مشتركة بين المبذّرين

[1]- الزّمخشري، الكشّاف، (3/ 512 - 513)

والشّياطين، ومنه فهذه صورة في غاية الذّم للمبذّرين والتّبذير، وللعقل أن يتخيّل بشاعة هذه الصّورة المرتبطة برمز الشّر والفساد .

قوله تعالى :﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾[الحديد:20]

التّشبيه في هذه الآية تشبيه تمثيل ، فالمشبّه (صورة الدّنيا بمسرّاتها من لهو وزينة وتكاثر في الأموال والأولاد، وسرعة انقضائها) والمشبّه به (صورة نبات أنبته الغيْث، فهاج واصفرّ، فأصبح هشيما يابسا) ووجه الشّبه (صورة شي ء يُعجبُ النّاظرين ويسرُّهم في بدايته ثمّ يزول، وفي هذا " تشبيهُ محسوسٍ بمحسوسٍ ؛ أي المُدرَك بإحدى الحواس الظاهرة " [1]، فطرفا التّشبيه يمكن إدراكهما بالحواس ، وفي هذه الصّورة تحقير لشأن الدّنيا الّتي لا تدوم مباهجها ونعمها، فما تلبث أن تزول سريعًا، فكأنّها لم تكن وتتبع هذه الصّورة الّتي تحذر من الاغترار بالدّنيا، صورة تدعو إلى المسابقة والمسارعة إلى الجنّة الّتي لا يزول نعيمها، ولا تنتهي بهجتها .

قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥ ﴾[الحشر: 15]

الآية تصوّر بني النضير الذين ذاقوا سوء عاقبتهم بسبب عداوتهم للرّسول (من قتل في الدّنيا) فلهم عذاب في الآخرة، فكان مثلُهم كمثل أهل بدر.[2] فالمشبّه (اليهود ما لحقهم من ذلّ وخزي وجلاء وسوء العاقبة في الدّنيا جرّاء كفرهم وعاداتهم للرّسول ﷺ.

كما جاء في الآيات الأولى في سورة الحشر قوله تعالى :﴿ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤ ﴾[الحشر: 3 – 4] والمشبّه به (أهل بدر وما لحقهم من قتل وخزي وهزيمة في الدّنيا جرّاء كفرهم ومعاداتهم للرّسول ﷺ، ووجه الشّبه (الذّل والخزي والهوان)،

[1]– الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة ، تح :محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، ط3 ، دت ص168

[2]– ينظر: الزّمخشري، الكشّاف ، ج (6 / 83) .

فهو تشبيه تام(مفرد) غير تمثيل فهي سورة تذكر بصورة مشابهة قريبة العهد بهم تؤكّد عاقبة من عادى الله ورسوله ﷺ، فينجلي المعنى ويتضّح في النّفس .

قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾[الصف: 4] صورة للمقاتلين في سبيل الله المشبَّه فيها (المقاتلون الّذين تراصّت صفوفهم)والمشبّه به (بنيان محكم البناء متقن لا فرجة فيه وخلل، ووجه الشّبه (التراصّ والثّباتُ) تشبيه مفرد ذكرت أداته وحذف وجه الشّبه يدلّ على قوّة التشابه بين طرفيْ التشبيه فاستغنى عن ذكره ، وهذا التشبيه يقرّب المعنى من الذّهن ويجلّيه، ويرغّب فيه، فثبات البنيان يدلّ على ثبات المقاتلين في صفوفهم.

قوله تعالى :﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾[الجمعة : 5]

في هذه صور لليهود الذين حُمّلوا التّوراة فلم يعملوا بها، فالمشبّه (اليهود في أنّهم حملة التّوراة وقرّاؤها وحفّاظ ما فيها، وأنّهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها)، والمشبّه به (حمار يحمل كتبا كبارا لا يعلم ما فيها، ولا ينتفع بها ؛ لجهل حاملها بما فيها من نفع فلا يناله منها إلاّ تعب وكدّ . فهذا تشبيه معقول بمحسوسٍ ، وتشبيه تمثيل ، ووجه الشّبه منتزع من عدّة أمور ، وفي هذه الصّورة ذمّ لليهود، وكشف سوء طباعهم من بلادة و سوء حسّهم

و في هذا الصّدد يبيّن الرّازي (ت 313هـ) أنّ :علّة اختيار الحمار ليضرب مثلا لليهود لعدّة أمور منها :إن معنى الحمل أظهر وأغلب في الحمير بالنّسبة لغيرها من الحيوانات كالبغال والخيول، وفيه من الجهل والبلادة و الذّل والانقياد لما لا يكون في غيره من الحيوانات، وبين الحمار والأسفار مناسبة لفظيّة لما بينهما من سجع محمود [1] .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾[التغابن: 14]

يبدو أنّ في هذه الآية تشبيها بليغا، طرفه الأوّل الأزواج والأولاد، فالمشبّه (بعض الأزواج و الأولاد) ؛ لأن "منْ "تفيد التّبعيض، والمشبّه به هو الطّرف الثاني (الأعداء) ووجه الشّبه (الضّررالواقع من الأولاد والأزواج) تشبيها له بالضّرر الّذي يلحق من الأعداء

[1]– فخر الدّين الرّازي، التّفسير الكبير، دار إحياء التّراث العربي، بيروت ، ط3 ، 1420 هـ ، (30/ 6)

و« يظهر أنّ هذه العداوة إنّما هي للكفر والنّهي عن الإيمان ولا تكون بين المؤمنين فأزواجهم وأولادهم المؤمنون لا يكونون عدوّا لهم»[1]، في هذه صورة لكلّ من انشغل بالزّوج أو الولد عن طاعة اللّه.

إنّ تتبعنا للتشبيه في السور المسبّحات على هذا النحو، يقودنا إلى حصرها في الجدول التالي :

أنواع التّشبيه	السّورة	رقم الآية	عدد تكراره
التّشبيه البليغ	الإسراء	27- 82- 100	3
	التّغابن	14	1
التشبيه التّمثيلي	الحديد	20	1
	الحشر	12	1
	الجمعة	5	1
	التّغابن	9	1
التشبيه التاّم (المفرد)	الحديد	16-21	2
	الحشر	15- 16	2
	الصّفّ	4	1

فالملاحِظ لإحصاءات هذا الجدول يُدرِك ورود التشبيه على مستوى كلّ سورة وبما أنّ التّشبيه البليغ يمثل الضّرب الأقوى تأثيرا حجاجيا، فسورة الإسراء تحتلّ قمة السّلم وذلك لورود التشبيه البليغ فيها ثلاث مرّات، ثمّ سورة التغابن حيث ورود مرّة واحدة، ثمّ تليها السور التي اشتملت على التّشبيه التّمثيلي على اعتباره أقل تأثيرا حجاجيّا من التّشبيه البليغ وهي : (الحديد والحشر) ثمّ سورة الجمعة ؛ لأنّ السورتين ورد فيهما التشبيه التّام أيضا على غرار سورة الجمعة التي ورد فيها التشبيه التّمثيلي فقط . وفي المرتبة قبل الأخيرة سورة الصّف التي احتوت على تشبيه واحد تام ، و أخيرا سورة الأعلى التي لم يرد فيها أي نوع من التشبيه .

[1]– فخر الدّين الرّازي، التّفسير الكبير، (30/ 27)

ولو أُجيز لنا أن نضع أصناف التّشبيه في هذه الآيات من الأضعف إلى الأقوى لتحصّلنا على نتيجة واحدة وعلى هذه التّراتبية التّنازليّة في السّلّم :

(ن) إثبات وحدانيّة الله وتسبيحه ونصرة نبيّه والاعتراف بفضله العظيم

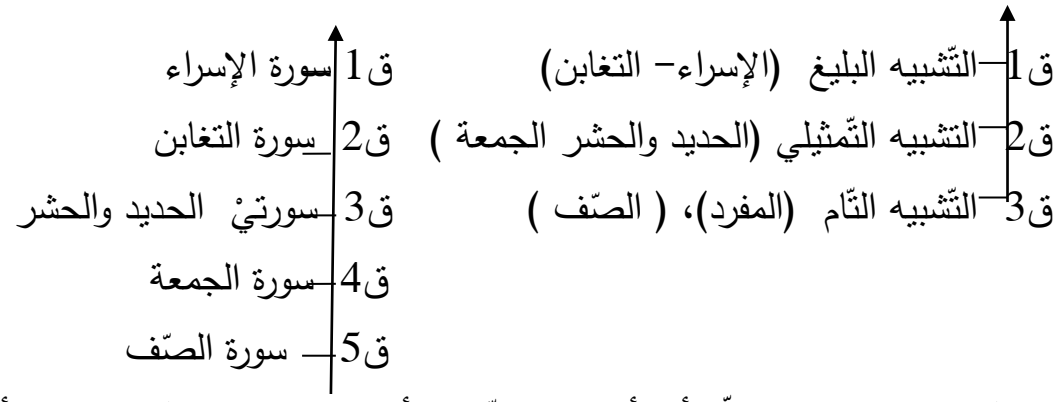

يتبيّن لنا من هذا السّلّم أنّ أصناف التّشبيه أخذت مسارا تنازليّا، ومعلوم أن أنجع الحجاج ما كان المعنى فيه يتراوحُ بين الظّهور والخفاء، وعلى هذا الأساس فربّما أراد الله توظيف التشبيه البليغ عندما يتعلّق الأمر بالمعجزات التي لا طاقة للإنسان بها مثل : حادثة الإسراء والمعراج في سورة الإسراء، والتي ورد فيها ثلاثة تشبيهات بليغة ، استلزمها موقف نصرة النبي، وموقف ذم الشّر والفساد، وهذا ما أكسبها قوّة حجاجيّة تفرض التصديق بحدوثها، أمّا في سورة التّغابن فقد تعلّق الأمر بالعقيدة (الجانب الرّوحي) والغيْبيات ؛مثل يوم التّغابن الّذي لا يستطيع أن يصدّق به المتلقّي إلّا من خلال التشبيه البليغ الذي يجسّده ادّعاء الاتّحاد بين المشبّه والمشبّه به في الدّنيا والآخرة .

ولعلّ توظيف الله سبحانه وتعالى للتشبيه التمثيلي في كلٍّ من سورة الحديد والحشر والجمعة كان في بعض مواقف التحذير والتّحفيز الّتي تستلزم ربط المحسوس بالملموس ، حتّى يدركها المتلقّي بحواسه وهو بيئته، فالتحذير نبع من تمثيل صورة سرعة زوال الدنيا وانقضاء مسرّاتها بصورة اصفرار النبات الذي أصبح كالهشيم اليابس بعد أن كان جميلا وزاهيا ، أمّا التحفيز فتبلور في دعوة المسلمين إلى مجاهدة النّفس والباطل والتمسّك بالتشريع الإسلامي ؛ لأنّ مجاهدة النفس تحتاج إلى قوّة داخلية روحية كما يحتاج القتال والنّصر إلى قوّة خارجية ترهب العدوّ كالحديد والمال.

أمّا استعمال التشبيه التّام في كل من سورة الحديد والحشر والصّف فلعلّه يرجع لموقفيْن اثنيْن أحدهما :هو التّأكيد على عاقبة كلّ من عادى الله ورسوله ﷺ، من خلال

تقصي أسباب هلاك الأمم السابقة، فينجلي المعنى ويتضّح في النّفس . أمّا الموقف الثاني فهو الترغيب في ثبات المؤمن في مختلف مجالات حياته الدّنيوية ليظفر بالثبات في الحياة الآخرة، و شبّه ثباته هذا كالبنيان المرصوص الذي لا يشوبه خلل، فقد أورد الله أمثلة عن حياته الدنيوية، كثبات الصفوف وتسويتها في صلاة الجمعة في سورة الجمعة وثبات الصفوف يوم القتال في صورة الصّفّ فكلها صور مشهودة بالعيان ترسّخ معنى الفلاح في الدّارِيْن.

ونخلص مما سبق كلّه في موضوع تراتبية الحقيقة و المجاز في السور المسبّحات أن البيان بصوره المختلفة من تشبيه واستعارة وكناية بلاغة اتّفق عليها أرباب البلاغة ، ولمسنا غلبة صور الاستعارة والكناية على التّشبيه، ففي المجاز مبالغة في المعنى وإيجاز في العبارة، فهو أبلغ من الحقيقة، ، لأنّ الاستعارة أبلغ من التّشبيه كونها تحذف أحد طرفيْ التشبيه و تدّعي اتّحاد وتطابق المشبّه والمشبّه به، أمّا الكناية فكانت ذات الحظ الوافر منهما، كيف لا وهي تلعب لعبة إخفاء المعنى لإثباته بالدّليل، وهذا إن دّل على شيء فإنّه يدلّ على الإعجاز البلاغي القرآني الذي فاق بلاغة البشر القاصرة، فلهذا أمرنا الله بتسبيحه، فهو المتفرّد بهذا كلّه .

3-أضرب الخبر :

وشأن أصناف الخبر كشأن التشبيه يمكن تقسيمها تراتبيّا أيضا، أي أنّ لكلّ منها درجة في السّلّم الحجاجي، ونريد هنا دراسة الخبر من حيث مخاطبته لحال المخاطبأي كيْف أن صاحب الخبر يأخذ في اعتباره « حالة المخاطب عند إلقاء الخبر، وذلك أن ينقله إليه في صورة من الكلام تلائم هذه الحالة بغير زيادة أو نقصان »[1]، وكما ذكرنا آنفا أنّ البلاغيين القدامى قد قسّموا الخبر إلى ثلاثة مراتب : (الابتدائي ، و الطّلبي ، والإنكاري)، وعليْه فإنّ قراءة القدامى للخبر على هذا النّحو يؤهلنا إلى دراسة هذه الأضرب ضمن سلميّة اللّغة على الشّكل التّالي :

ق1 ← الإنكاري: هو ما قام على أكثر من مؤكّدين
ق2 ← الطّلبي : هو ما خلا من المؤكّدات
ق3 ← الابتدائي: هو ما قام على مؤكّد واحد

[1]-عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النّهضة العربيّة، بيْروت- لبنان، ط1-2009، ص 20

إنّ هذه السلّميّة النّاجمة على اللّغة بجميع أنظمتها هي الّتي سيتمّ الانطلاق منها في تحديد سلّميّة أضرب الخبر في سور المسبّحات .

ولو لاحظنا الآيات الأولى لسورة الإسراء في قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤ ﴾[الإسراء 4، 3، 2]، لوجدناها اشتملت على ثلاثة أضرب متنوّعة للخبر يمكن تمثيلها في السّلّم التالي :

(ن) تحذير بني إسرائيل من إنكارهم نعم الله ودعوتهم إلى التوكّل عليه

ق1 ﴿ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾إنكاري

ق2 ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾طلبي

ق3 ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴾ابتدائي

فالآية الأولى احتوت على خبر ابتدائي خال من المؤكّدات، ذلك لأنّ المخاطب خالي الذهن، فالله يخبر النبي ﷺ ويخبرنا بأنّه منّ على موسى عليه السلام وعلى بني إسرائيل، بإنزال الكتاب وجعله هدًى لهم، وأمَرَهم بأن يؤمنوا به وأن يتوكّلوا على الله وحده، أمّا الآية الثّانية فقد احتاجت إلى توظيف مؤكّد واحد وهو(إنّ) ؛ حتى يبيّن لهم أنّ أجدادهم كانوا من الشاكرين بنعم الله ولم يكفروا بها ؛لأنّهم ركبوا سفينة سيدنا نوح عليه السّلام، فأنجاهم الله ففيها دعاهم تعالى إلى الاقتداء بهم، رغم أنه يعلم بجحودهم، أمّا الآية الثّالثة ففيها أراد أن يؤكّد لهم بأنّهم كانوا قوما طاغين وجبّارين ، فوظّف خمس مؤكّدات من خلال اللاّم المُشْعرة بالقسم مع نون التّوكيد مرّتيْن في الكلمتيْن: لتفسدُنّ، ولتعلنّ، مع استعمال المفعول المطلق في قوله لتعلنّ علوًّا .

سنحاول إحصاء هذه الأضرب في كل سورة في الجدْول التّالِي :

السّورة	رقم الآيات	نوع الخبر	عدد تواتره	نسبة تواتره
الإسراء	-2 - 6 -8-7-5-11-12-13 - -17-18-19 -20- 23- 38- 39-45-46- 52-54-56 -59 -67-71-79-82-83-85-90- -91-92-93-94-97-103- -104-105-108-109	ابتدائي	38	40%، 86
	-3 - 10-16 -25- 27- 32- - 34 -36- 37--40-43- 44 - -57-58-60-63-65- 66 -72- -73-75-76-77-78-81-84- -87-96-98-99-100-106- 107-111	طلبي	34	36%، 85
	-1 4 -9 -15- 28 30-31- -33 41-47- -49-53 -55-62- -70-74-86-89-95-101- -102	إنكاري	21	22%، 58
الحديد	-5-13-14 -15- 21-23-27-	ابتدائي	7	29%، 16
	-1-2-3-6-8-12-19-20-22- -24-28-	طلبي	11	45%، 83
	- 4-9-17 -18-25-26 -	إنكاري	6	25%
	-3-5-6-15-21-	ابتدائي	5	20%، 83

الحشر	1-7-8-9-10-14-17-18-19-20-	طلبي	10	41، 66%
	2- 4 -11-12-13- 16- 22- 23-24	إنكاري	9	37، 55%
الصّف	3-7-8 -11-12-13-	ابتدائي	6	50%
	1-6-9 - 14-	طلبي	4	33، 33%
	4-5-	إنكاري	2	16، 66%
الجمعة	1-4-5 -7- 10-11	ابتدائي	6	60%
	3- 6 -	طلبي	2	20%
	2-8	إنكاري	2	20%
التّغابن	3-4-9 -10-11- 17- 18	ابتدائي	7	38، 88%
	1-2-12-13 -15- 16- -	طلبي	6	33، 33%
	2-8-6 -7- 14-	إنكاري	5	27، 77%
الأعلى	2-4 -5- 7-10- 12- 16-18- 19 -	ابتدائي	9	75%
	6- 8	طلبي	2	16، 66%
	15	إنكاري	1	08، 33%

نجد ضمن هذا الجدول معطيات وإحصاءات أضرب الخبر في سور المسبّحات، يمكننا من خلالها رسم سلّميّة حجاجيّة للسور المسبّحات حسب حالة المخاطب كالآتي :

3-1- تراتبية السور حسب الخبر الإنكاري :

فالمحصي لأضرب الخبر الانكاري في سور المسبّحات يجدّ أنّها شكّلت سلّميّة حجاجيّة – حسب حالة المخاطب – مفادها :

(ن) وجوب التسلّح بالشّدة والقوة مع أعداء الله لنصرة دين (وجوب المزاوجة بين الجانب المادي والروحي)

سورة الحشر (55.37 %)
سورة التغابن (27.77 %)
سورة الحديد (25 %)
سورة الإسراء (22.58 %)
سورة الجمعة (20 %)
سورة الصّفّ (16.66 %)
سورة الأعلى (8.33 %)

تصدّرت سورة الحشر بسبب ورود الخبر الإنكاري بنسبة مئوية عالية تصل إلى 37%، 51، وهي الحجّة الأعلى في السلّم على غرار السّور الأخرى، ولعلّ هذا راجع إلى حالة المخاطبين (بنو النّظير) في هذه السّورة، الّذين جحدوا نعم الله وأنكروا خبر نبوّة رسوله حيث النفوس في خضمّ الشكّ والتردّد فيما ينزل عليهم من الخبر، فكانت الحاجة إلى مخاطبتهم بما يثبت الأخبار لتقبلها العقول، وعلى المؤمنين أن يتسلّحوا بالقوّة الروحيّة والقوّة المادّية حتّى يُرهبوا عدوّ الله و عدوّهم ، وفي هذا الصّدد يقول المَوْلى عزّ وجلّ:﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال60] .

وقد تلت هذه السورة سورة التغابن بنسبة(27.77 %) وسورة الحديد بنسبة مئوية (25 %) فكلاهما تتضويان تحت شعار القوّة أيضا، وتؤكدان أهميتها، فباستمرار القوّة ينخدع الإنسان ببعض مظاهر الدّنيا مثل : المال، الأزواج والأولاد، وهنا ينبغي عليهم أن يسعوْا في الحثّ على الخير والإنفاق ، فيذكّر بعضهم البعض بيوم الحسرة بعد الجزاء، فيركن الجميع

إلى التوكّل على الله حقّ التوكّل، والمزاوجة بين مقوّمات القوّة (الإيمان، الإنفاق) وهذا ما اشتملت عليه سورة الإسراء الواردة بنسبة (22.58 %)، ثمّ تلتها سورة الجمعة بنسبة (20 %)ثمّ سورة الصّفّ (16.66 %)وهما السّورتان اللّتان تكفّلتا ببيّان مقام القتال والجهاد في سبيل الله ؛حتّى يكونوا أنصارًا لله ، فينجيهم من عذابه، ثمّ جاءت سورة الأعلى في أسفل السّلّم بأدنى نسبة مئوية (8.33 %) لتؤكّد على وجوب تسبيح الله الذي منّ على الإنسان حيث ألهمه طريق العلم الذي يعزز إدراكه في كل مرّة بعظمة اللّه .

3-2تراتبية السور حسب الخبر الطّلبي :

ممّا يمكننا رصده من خلال الجدول المذكور أعلاه تراتبيّة سلميّة حجاجية للخبر الطلبي في سور المسبّحات ، المشكَّلة – حسب حالة المخاطب – وقوامها كالآتي:

(ن) القوّة الحقيقية كامنة في التمسّك بالجانبين (الرّوحي والمادي)

- سورة الحديد (45.83 %)
- سورة الحشر(41.66 %)
- سورة الإسراء (36.55 %)
- سورة الصّفّ+التّغابن (33، 33 %)
- سورة الجمعة (20 %)
- سورة الأعلى (16.66 %)

فالواضح من هذا السّلم أنّ سورة الحديد تشكّل الحجّة الأقوى بنسبة (45.83 %) لاشتمالها على مؤكد واحد في كل موقف، قصد إزالة شكّ وظنّ كل من يظنّ أنّ القوّة مجرّد قوّة روحانية فقط، كما فعلت أقوام ببدعة الرّهبنة، أو ما يفعله بعض المسلمين من عزلة روحية ظنّا منهم أنّ هذا هو الزّهد، فيترتّب عليه مالا يُحمد عقباه، فالسورة بمؤكداتها حجّة نتيجتها حتمية التمسّك بالجانب الروحي دون إقصاء الجانب المادّي في الحياة، فإقصاؤه هو عيْن الضعف؛ وفي هذا العالم لا مكان فيه للضّعيف، وتليها في السلّم سورة الحشر بنسبة تقدّر بـ(41.66 %)، حيث بيّنت أنّ الجانب الإيماني هو الجانب الروحي الأوّل الذي يجب على الإنسان التمسّك به ويتمثّل في عقيدته أو دينه، فهي التي تغذّي روحه، ومن ثمّ تنعكس على الجانب المادي نحو إنفاق المال وتسخيره في سبيل رفعة هذا الدين .

ثم تلتها سورة الإسراء الواردة بنسبة (36.55 %) التي أرادت توضيح العلاقة التّلازمية بين الجانبين، فالرّقي الروحي عند الإنسان يتبعه دائما الرّقي المادي ، وهو ما يولّد القوّة والرفعة في الدّارين، والملاحظ لسلّم الخبر الطلبي أن سورتيْ الصفّ والتّغابن وردتا بنسبة مئوية واحدة تقدّر بـ(33، 33 %) لتؤكّدا ألّا يخالف الإنسان قوله فعله، فالجهاد والقتال والإنفاق هم أفعال و يجب أن تكون مرآة صادقة للقول، فلا يجيب أن نركن إلى القول وندع الفعل، وهذا ما جاءت به سورة الجمعة ، والتي وردت بنسبة (20 %) كما بينت هذه الأخيرة أيضا أنّ وحدة الديّن تنعكس في وحدة الصّفوف، وبالتالي الفلاحُ في الدّارين

أمّا سورة الأعلى فتقدّر نسبة ورودها بـ(16.66 %) فكانت الحجة الأدنى في السّلّم ؛ لأنّها هي الّتي تبدأ منها كلّ تلك الحجج ، وهو صدق الولاء لله وذلك بتسبيحه وتعظيمه .

3- 3تراتبية السور حسب الخبر الابتدائي :

لقد شكّل ورود الخبر الابتدائي في السّور المسبّحات سلّما حجاجيّا – حسب حالة المخاطب – و نستطيع تمثيله أيضا كالآتي :

(ن) وجوب تسبيح الله والتمسّك بالدّين هو أولى خطوات الفلاح .

- سورة الأعلى (75 %)
- سورة الجمعة(60 %)
- سورة الصّفّ (50 %)
- سورة الإسراء (40.86 %)
- سورة التّغابن (38.88%)
- سورة الحديد (29.16 %)
- سورة الحشر (20.83 %)

احتلت سورة الأعلى قمّة السّلّم، حيث وردت بنسبة (75 %) وهذا ما ناسب موضوعها القائم على أمر النبي ﷺ بوجوب تسبيح المولى عزّ وجلّ، ولا يحتاج الخبر لمؤكّدات بالنسبة إلى نبيّ ومقرّب لله، فالخبر يتمكّن في نفسه لمصادفته خالي الذّهن، فأراد أن يُخبر حبيبه أنه هو الخالق المقدّر والمنعم على عباده، ثمّ حثّه على طلب العلم والدّعوة إلى عدم الاغترار بالدّنيا التي تعتبر دار الشّقاء ولا يكون الفلاح فيها إلّا بالتّمسّك بالزّاد الرّوحي .

وتليها سورة الجمعة الوارد ة بنسبة (60 %) التي أراد الله من خلالها أن يبيّن أنّ خطوات الإيمان الصّحيح هو أن يتمسّك المسلم بالجانب الإيماني أوّلا، و يَردفه بالجانب المادي . وأقرّ فيها أنّ اتّحاد هذين الجانبين يحقّق وحدة صفوف المسلمين مثل صفوف صلاة يوم الجمعة ، ثمّ جاءت بعدها سورة الصّف بنسبة (50 %) لتبيّن أن كل من وحّد هذين الجانبين أصبح من أنصار الله المقرّبين، وسيكون محلّ فزع و بأسٍ شديد على العدوّ، وهذا ما جاء في سورة الإسراء الواردة بنسبة (40.86 %)، أمّا سورة التّغابن فوردت بنسبة (38.88%) وأراد الله من خلال بيان مشاكل عدم اليقين بالله والمتمثّلة في الانخداع والاغترار بملذات الدّنيا من مال وأولاد وأزواج، وتلتها سورة الحديد بنسبة (29.16 %) والتي جاءت بحلول لهذه المشاكل المذكورة حيث بيّنت مظاهر و سبل تحقيق الإيمان وما يترتّب عليه من التّقوى والخشوع ومن ثمّ الخضوع لله وأوامره. وتأتي سورة الحشر كحجّة أدنى في هذا السّلّم ؛ لكونها تمثّل المحطّة الأولى لباقي الحجج التي وضّحت ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون مع أعداء الله من قوّة وحزم، ولا يتأتّى لهم ذلك إلّا من خلال الثّبات على الجانب الرّوحي (الدّين) .

ونستطيع أيْضا رسم سلّما عامّا لما ورد من أضرب الخبر في كل السّور المسبّحات معتمدين في ذلك على قراءة القدامى لأصناف الخبر؛ أي (سلميّة أضرب الخبر في اللّغة) وعلى نتائج إحصاءات تواتر هذه الأضرب في كلّ سورة من سور المسبّحات وعليه كان السّلّم كالآتي : السّلم الكمي لأضرب الخبر

السّلم الوظيفي لأضرب الخبر(ن) التّنبيه إلى عظمة الله ووجوب تسبيحه

الإنكاري	ق1	الابتدائي: تواتر(78مرّة)
الطّلبي	ق2	الطّلبي : تواتر (69 مرّة)
الابتدائي	ق3	الإنكاري: تواتر (46 مرّة)

فالملاحظ من هذا السّلّم أنّ الضرب الابتدائي هو الغالب حيث تكرّر في السور المسبّحات 78 مرّةً ؛ لأنّ أغلب الخطاب في سور المسبّحات موجّه بالدّرجة الأولى إلى النّبي ﷺ قصد تبليغ الرّسالة، فلا يحتاج الخبر لمؤكّدات بالنسبة إلى نبيّ مقرّب لله ؛ فهو حبيبه ؛ أي غير منكر للقول، ولا يحتاج إلى طاقة حجاجية، وعليه فالخبر تمكّن في نفسه لمصادفته خالي الذّهن من الحكم المسبق على القول، كما أنّه موجّه أيضا إلى المؤمنين

الذين يرجون رحمة اللّه ويخشون عذابه، فهو يوضّح لهم حقيقة الإيمان، و الطرق والسبل المؤّدية إلى الفلاح، ويدعوهم إلى الثّبات على الإيمان ونصرة الدّين، وهذا الأمر معهودا لديهم فهم يتلقون الخبر دون سؤال ويسلّمون به تحليلا و تحريما، فلا يحتاج ذلك إلى توكيد

و يأتي في المرتبة الثانية الخبر الطلبي الذي تكرر 69 مرّة في السور المسبّحات، وذلك في بعض المواقف الخاصّة فيحتاج الخبر فيها لتوكيدات ، فمن جانب هو خطاب للرّسول لصفة التكليف التي يحملها للتبليغ، ومن جانب آخر وجود حالات تتعلّق بشخصيات مصطفاة من الله لتأكيد شيء لهم أو عنهم فتظهر في شكل حوارات، ومن الأمثلة التي نستطيع أن نسيقها في هذا الصدد قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾[الصّف:6] كما أنه خطاب موجّه لأهل الكتاب لما يتميّزون به من حمل لعقائد جاء بها القرآن ليحاججهم بها ويبطل مفاسدها .

أمّا في المرتبة الثالثة فجاء الخبر الإنكاري في السياق العام في السور المسبّحات بتواتر أقلّ(46) في خطاب موجّه لمتلّقٍ منكر جاحد (أهل الكتاب، الكفّار، الشّياطين الفاسقين ...إلخ) ونفسه مشبّعة بالشكّ والكفر فيما ينزل عليهم من الخبر، فكانت الحاجة إلى مخاطبتهم بأكثر من مؤكّديْن حتّى يثبت لهم الأمر، أو لغرض التهديد والتّحذير ومن ثمّ الإذعان لله وأوامره ، وضمان استمالته وتسليمه، فكلّما زاد إنكاره زادت القوّة الحجاجية ولعلّ وروده أقل من الضرب الابتدائي والضّرب الطّلبي يعود إلى عدم أهمّية هذه الفئة عند الله سبحانه وتعالى.

وكخلاصة عامّة إنّ توظيف أضرب الخبر بأنواعه الثلاثة كان بحسب حال المخاطب ودرجة اقتناعه و إنكاره، أو إنزاله منزلة من منازل المخاطبين، وعلينا أنْ ننبّه إلى أنّ المقام دوره الفعّال أيضا ؛ لأنّ كل خطاب محفوف بظروف محيطة شتّى، إلّا أنّ تركيزنا في هذه الدّراسة على السلّمية فقط .

خاتمة

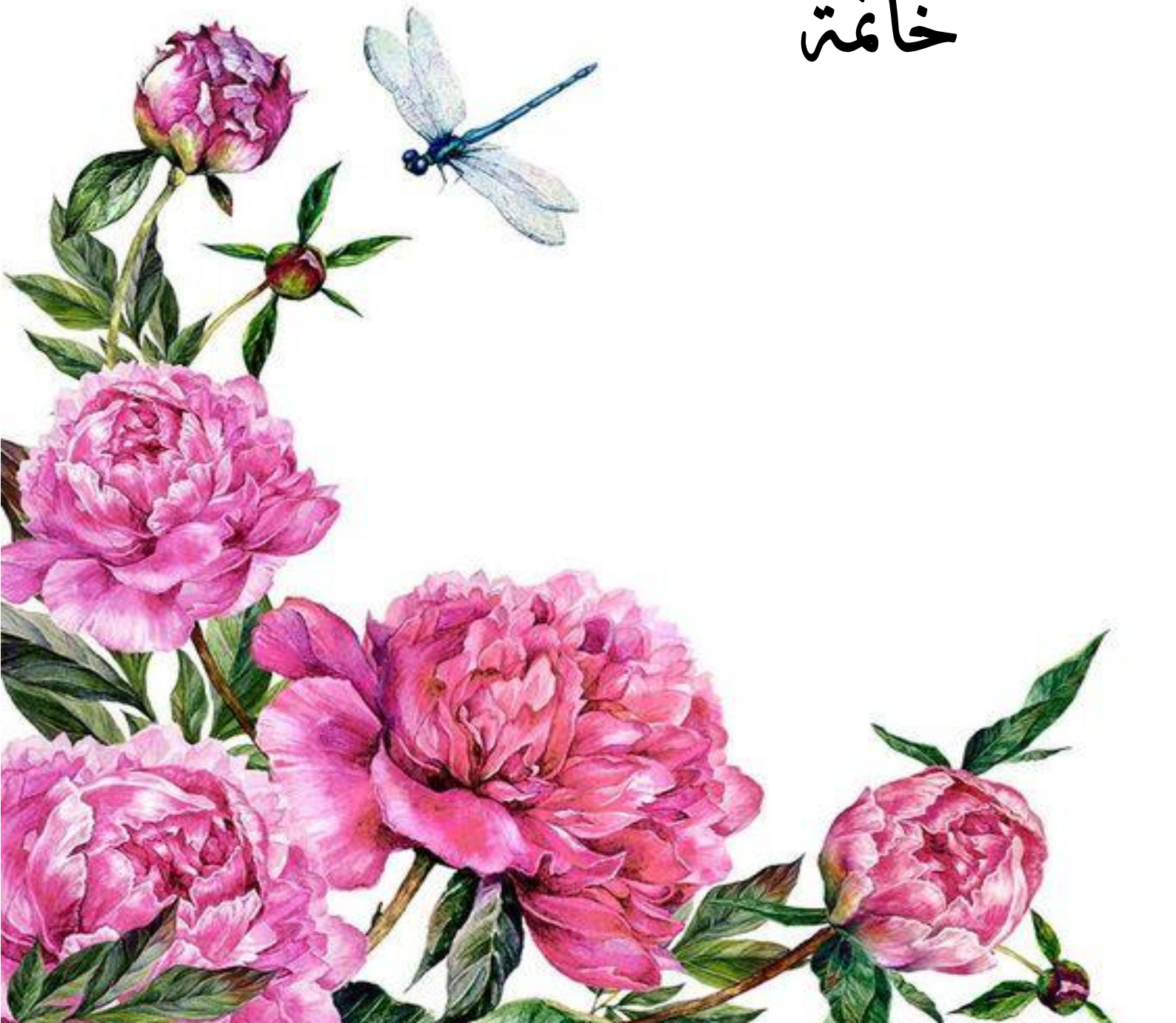

خاتمة

إلى هنا يكون هذا البحث قد استوفى بعون الله وفضله فصوله، ونرجو أن نكون بهذه الدّراسة قد حققنا ولو جزءًا يسيرا في إبراز السّلالم الحجاجيّة ، وبيان تراتبية السّور المسبحات من القرآن الكريم ،والتي تدعو إلى التّدبر الموضوعي والواعي في قضيّة التّوحيد ، وفرادة التّسبيح لله تعالى . وبعد هذه الرّحلة التي تسبحُ في السّور المسبّحات أطلقنا مرساة سفينتنا لترسو بنتائج أهمّها :

- تناسق كلّ سورة من السّور المسبحات، مع اسمها وانسجام موضوعها مع دلالة الاستهلال بالتّسبيح ، ممّا يقتضي ذلك وجوب تسبيحه .
- رصد تسعة سلالم حجاجيّة ، مقسّمة إلى : سلالم الموضوعات المطلقة (العامّة) سلالم الموضوعات المقيدة (المخصّصة).
- السّور المسبّحات جاءت مرتبة في المصحف ترتيبا لغويا منطقيا وفق الترتيب الاشتقاقي للكلمة العربية فشكلت سلما تراتبيا ، بدأ بالمصدر (سبحان)– وهو أصل المشتقات – في سورة الإسراء ، ثم الفعل الماضي (سبّحَ) في كل من السّور الحديد والحشر والصّف ثم الفعل المضارع (يسبح) في سورتي الجمعة والتّغابن . ثم فعل الأمر (سبّح) في سورة الأعلى. ولعل هذا ما يدل على أنّ ترتيب هذه السور توقيف من عند الله .
- ورود " التّسبيح " بصيغ مختلفة دليل على أنّ التّنزيه مستمر غير مقيّد بزمان أو مكان أو أي شيء.
- تنوع التّسبيح في ثنايا السّور المسبحات يعود إلى تنوع أصناف المسبحين فيها والتي شكلّت سلما تصاعديّا في حد ذاتها . قمّته سورة الإسراء و قاعدته سورة الأعلى.
- وجود تناسق موضوعي عجيب بين السّور المسبحات، رغم انفراد كل سورة بفكرة ميّزتها عن غيرها ، وشكّل هذا التّرابط سلما تصاعديًّا ، نتيجته فرادة الله بالتّسبيح .
- اشتراك السّور المسبّحات في موضوعات محددة – مع تفاوت بسيط – أهمها : وجوب تسبيح الله و القتال، والإنفاق في سبيل الله ، التّعريض بأهل الكتاب ، وحقيقة الحياة الدّنيا وخطورة الانغماس في ملذّاتها وحقيقة البعث والحساب .

- رصْدُنا لتسعة حوارات في السّور المسبّحات ، حيث أنّها اتّصفت بالتّسلسل والتّراتبيّة وكأنّها واردة في سورة واحدة رُغم تفرقها بين السور، و كلّ هذه الحوارات ترمي إلى نتيجة واحدة هي فرادة تسبيح لله سبحانه وتعالى ونصرة رسوله ودينه .

- وجود تفاوت في عدد ونوع أسماء الله الحسنى في السّور المسبحات، ولعلّ هذا يعود إلى طبيعة وأغراض ومواضيع تلكم السّور، كما ارتبط ذكرها أيضا بتنوع حالة المخاطب ومدى احتياجه للتّعريف بالله . فشكّل تنوّع ورودها سلّما تصاعديّا يرمي إلى نتيجة حتمية وهي معرفة الله حق المعرفة ومن ثمّ تسبيحه . ذروته سورة الحشر بنسبة 25% وقاعدته سورة الأعلى1.25%.

- شكّل تنوّع ذكر أسماء اللّه الحسنى في السّور المسبّحات سلّما يعلو قمّته اسم "العزيز " ويليه اسم الحكيم ، ثمّ البصير والرّحيم ، ثمّ الخبير والعليم ،ثمّ الغفور ، ثمّ القادر والوكيل ، ثمّ باقي الأسماء ، وهو ترتيب منطقي فسبحان الله الذي عزّ فحكم ، وسبحانه الذي بصُر فرحِم ، وسبحانه الّذي علِم وخبر فغفر ، فهو القادر فنعم المولى ونعم الوكيل .

- توصّلنا في سلالم الموضوعات المقيّدة إلى دراسة مستويات السلّم الحجاجي الأربعة (المعجمي ،الصّرفي ، التراكيب النّحوية ، البلاغي) ،فرصدنا في السّلّم المعجمي ستّة مدارج سلّميّة .

- ورود هذه المد ارج بنسب متفاوتة في السّور المسبّحات ، شكّل سلّما تراتبيّا نتيجته وجوب تسبيح الله تعالى ، وذروته مدارج اليقين التي وردت 70 مرّة، وهي الأقوى حجاجيّا في الوصول إلى النّتيجة، تليها مدارج التّجاوز والامتنان، ثمّ مدارج الإنكار والجحود الذي ورد 56 مرّة . وتليه مدارج الإدراك التي وردت 35 مرّة، ومن ثمّ جاءت مدارج الظّفر المذكورة 22 مرة ، وتليه مدارج المعاملات الماليّة تواتر 18 مرّة .

- السّور المسبحات مدونة خصّبة للصّيغ الصّرفيّة ، والتّراكيب النحوية ، والتّقسيم البلاغي ووردت هذه الأخيرة مشحونة بالدّلالات العميقة لتثبت صفات الكمال والعظمة وتنفي صفات النّقص والعبث ، وهذا ما يستوجب التّسبيح .

- ورود الصّيغ الصّرفيّة في السّور المسبحات بنسب متفاوتة حيث شكّلت سلّما تنازليّا يرمي إلى تحقيق نتيجة مفادها : إثبات صفات الكمال والعظمة و فرادة الله بالتّسبيح ،و قد علا قمته اسم الفاعل بنسبة 32.09% بالنّسبة لباقي الصّيغ ليدل على الفاعليّة المنسوبة لله

سبحانه وتعالى ،وأنّ التّسبيح منسوب لجلالته ، ثمّ تليها الصّفة المشبهة بنسبة 26.74% ، لتدّل على ثبات الفاعليّة والتّسبيح ، و تعقبها مباشرة صيغة المبالغة التي وردت بنسبة 25.94% لتؤكد على كثرة اتّصاف الله بالفاعليّة ووجوب الإكثار بالتّسبيح ، ثمّ يليها اسم التّفضيل بنسبة 15.22% ليثبت فضل التّسبيح ويمحص فضل السّور المسبحات.

- تلوّن التّراكيب النّحويّة في السّور المسبحات بين تقديم وتأخير وحذف ؛حيث وفّرت تراتبيّة وطاقة حجاجية لاستفزاز المتلقّي قصد الإذعان والإقناع ؛ وقد ورد التّقديم والتّأخير فيها بنسب متفاوتة ،حيث شكّل هذا التفاوت سلما تصاعديا، يرمي إلى نتيجة مفادها :أهميّة تسبيح الله تعالى وتعظيمه ونصرة دينه ونبيّه .وقد علت قمته سورة الإسراء بنسبة 64.76% بالنّسبة لباقي السّور كحجّة أقوى لتبيّن أهميّة العناية الإلهيّة لإثبات النّبوة وتندد بكل من يحاول التّشكيك فيها ، ثمّ تليها سورة الحديد بنسبة 15.49% كحجّة وسطى لتبيين أهميّة إثبات صفات الكمال لله و الدّعوة إلى الإنفاق ثم تلتها باقي السّور كحجّة أدنى ،وقد ورد الحذف فيها بنسب قليلة ومتقاربة ولعل ذلك يعود إلى محدوديّة وتقارب معاني مواضيعها .

- تفاوت نسبة ورود الحذف في السّور المسبّحات ، حيث شكّل سلما تصاعديا ، يرمي إلى نتيجة مفادها فرادة التّسبيح لله سبحانه وتعالى ، علت قمته سورة الإسراء بنسبة : 43،10% كأقوى حجّة ، لإثبات النّبوة ببلاغة الحذف . ثمّ سورة الحشر بنسبة 15،51% كحجّة وسطى وذلك لكشف ما خفي من دخائل المنافقين وخذل ظنونهم لمقياس النّصرة . أمّا في السّور المتبقيّة فورد الحذف بنسب قليلة ومتقاربة وهي الحجة الأدنى فيه، كونها سورا تعلّقت بالتشريع و العقيدة واهتمّت بالمزواجة بين الجانبين المادي والروحي معًا .

- تسجيل حضور واضح لدرجتيْ الخطاب (الحقيقة والمجاز) في دراستنا للتّقسيم البلاغي ؛ كصروف الكناية وأضرب الاستعارة وأصناف التّشبيه وأضرب الخبر.

- اتّخذت سلميّة التّقسيم البلاغي في السّور المسبحات مسارا تصاعديا ، حيث احتلت الكناية ذروة السّلم كأقوى حجّة فيه ، وأقرب إلى نتيجته التي تتمثل في إثبات توحيد الله وتسبيحه والاعتراف بفضله ونصرة نبيّه ، أمّا الحجّة الوسطى فتمثلت في الاستعارة ؛ لأنّ توضيح تلك النّتيجة يتطلب إلى توظيف الإعارة ، فيقبلها المنطق ثمّ تستسيغه نفس المتلقي ، أمّا الحجّة الأدنى فتمثلت في ورود التّشبيه وأصنافه (بليغ ، تمثيلي ، تام) كونه أقل تأثيرا حجاجيا منهما .

- تنوع توظيف أضرب الخبر في السّور المسبحات بسبب مراعاة حال المخاطب فتفاوت ورودها من سورة إلى أخرى ، ليشكل تراتبيّة سلّميّة ذات مسار تنازلي في هذه السّور ، قمته الخبر الابتدائي ، كونه الأقرب إلى نتيجة السّلم المتمثلة في التّنبيه إلى عظمة الله ووجوب تسبيحه ،وأعقبه الخبر الطّلبي كحجّة وسطى لما تطلبه الخطاب لبعض المواقف الخاصّة، أمّا الحجّة الأدنى فحاز عليها الخبر الإنكاري ؛لأنّ الخطاب فيه موجّه لمخاطب منكر جاحد ، فاقتضى خطابهم إلى دعمه بقوة حجاجيّة .

- سورة الإسراء هي نواة السّور المسبحات حيث علت قمّة السّلم في أغلب السّلالم المنجزة . وهي سورة لا تضاهيها سورة أخرى في احتوائها على صيغ التّسبيح ، ولعل في ذلك إشارة إلى حقيقة نقل الرّسول ﷺ إلى عالم التّسبيح .

وفي الختام وبما أنّ النّقص من سمات البشر، لا يسعنا إلّا أن نقرّ بعدم إلمامنا لجوانب الموضوع ؛ لكن أملنا كبير أن يكون هذا الجهد لبنة في صرح الدّراسات الحجاجيّة ، نفتح به آفاق البحث المستقبلي في الجوانب الأسلوبيّة والصّوتيّة وغيرها . ونقدم به فكرة دراسة السلالم الحجاجيّة في السّور التي تشترك في نفس الاستهلال كالحواميم والطّواسين ، وكذلك القرآن ككل . والله وليّ التّوفيق .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم .

أ- الكتب

1- أثير الدّين محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تح : عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط1 – 1993م ، ج6.

2- أرسطو طاليس، الخطابة، تح : عبد الرحمن بدوي، وكالة مطبوعات الكويت، دار القلم – بيروت ، دط – 1979 .

3- أرسطو طاليس، الخطابة، التّرجمة العربيّة القديمة، د ط، تح عبد الرحمن بدوي، دار العلم- بيروت، 1979م .

4- أبو إسحاق بن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح : محمد شرف، مطبعة الرّسالة، عابدين – مصر، دط – د ت .

5- باتريك شارودو، معجم تحليل الخطاب، تر : عبد القادر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للتّرجمة- تونس، 2008م.

6- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة – حلب، 1958 م.

7- بدر الدّين، محمد بن عبد اللّه الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التّراث – القاهرة، دط – دت، ج 1.

8- بدر الدّين محمد بن عبد الله الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، دار الجيل – بيروت، ج2، فصل في معرفة جدله .

9- بدر الدّين محمود بن أحمد العيني، ملاح الألواح في شرح مراح الأرواح في الصّرف، لأبي الفضائل حسام الدّين أحمد بن علي بن مسعود، تح : محمد السّيد عثمان، دار الكتب العلميّة – بيروت، لبنان، دط – 1971م .

10- بروتون فليب جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، ترجمة : محمد صالح الغامدي، مركز النّشر العلمي – جدّة، ط1 – 2011م – 1432هـ .

11- أبو بكر العزاوي، اللّغة والحجاج، العمدة في الطّبع – الأحمديّة، ط1 – 2006م – 1426هـ .

12- أبو بكر العزاوي ، من المنطق إلى الحجاج، الأحمديّة للنّشر– الدّار البيضاء ، ط 1 – 2010 م .

13- جار الله محمود بن عمر أبو القاسم الزّمخشري الخوارزمي، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، دار المعرفة –بيروت ، لبنان ، ط3–2009م ، ج28.

14- جاك موشلار وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتّداوليّة، تر:مجموعة من الأساتذة والباحثين، إشراف :عزّ الدّين المجدوب، المركز الوطني للتّرجمة ، دار سيناترا – تونس، ط1، ط2– 2010م.

15- جلال الدّين السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، عالم الكتاب – بيروت، لبنان، 1973 م، ج 2، فصل في جدل القرآن.

16- حافظ اسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة، دار الرّوافد الثّقافيّة – بيروت، 2013 م ، ج4.

17- أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى ، مطبعة الصّباح – دمشق ، ط1–1999م .

18- حسن بن علي الفيومي، كتاب فتح القريب المجيب على التّرغيب والتّرهيب، تح :محمد إسحاق محمد آل إبراهيم، دار السّلام – الرّياض، ط1 –2018 م ، ج2.

19- الحسين أحمد ابن فارس، مقاييس اللّغة العربية، تح عبد السّلام هارون، دار الفكر ، 1979م، مادة (س ل م)، ج3.

20- الحسن بن عبد الله بن سهل أبوهلال العسكري، الفروق اللغويّة، تح: محمّد إبراهيم سليم ، دار العلم والثّقافة – القاهرة، دط – دت .

21- الحسن بن عبد الله بن سهل أبو هلال العسكري، كتاب الصّناعتين، الكتابة والشّعر، تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ' دار إحياء الكتب العربيّة – مصر، ط1 – 1952م .

22- أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح : محمد الحبيب بن الخولة، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط2 –1998 م .

23- الحسين بن محمد أبو القاسم المعروف بالرّاغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، تح : صفوان عدنان، دار القلم – دمشق، الدّار الشّاميّة – بيروت، ط3 –2002م، مادة (ح و ر)

24- الحسين بن محمد أبو القاسم المعروف بالراغب الأصفهانى، المفردات في غريب القرآن، دار القلم- دمشق، الدار الشامية – بيروت، ط1-1416هـ.

25- الحسين بن محمد أبو القاسم المعروف الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح : صفوان عدنان الدّوادي، دار القلم – دمشق، الدّار الشّاميّة – بيروت، ط1- 1412هـ .

26- حمادي صمود، التّفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السّادس الهجري، منشورات الجامعة التّونسية، 1981م .

27- خالد بن سليمان المزيني، المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التّسعة، دار ابن الجوزي – الدّمام، المملكة العربيّة السّعودية، ط1-2006م، ج2.

28- خالد بن عبد الله الأزهري، شرح التّريح على التّوضيح أو التّصريح بمضمون التّوضيح في النّحو، دار الكتب العلميّة – بيروت، لبنان، ط1-2000م ، ج2.

29- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة ، تح :محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، ط3 – دت .

30- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح : د .مهدي المحزومي ود. إبراهيم السامرّائي ، دار مكتبة الهلال، ج7.

31- رشيد الرّاضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، دار الكتاب الجديد المتحدة- بيروت، لبنان ط1- 2010م.

32- رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة عمر أوكان، افريقيا الشّرق، الدّار البيضاء- المغرب ، دط – 1994م .

33- زين محمد شحاته، المنهاج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، دار بلنسية – الرّياض، ط10-1422هـ ، ج2.

34- سامية الدريدي ، الحجاج في الشّعر العربي القديم من الجاهليّة إلى القرن الثّاني هجري، عالم الكتب – الأردن، ط1 – 2008م .

35- سعدي أبو حبيب، القاموس الفقهي، دار الفكر- دمشق، سوريّة، ط2 – 1988م، مادة حجج

36- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشّروق – القاهرة، بيروت، ط32 – 2003 م، مج 4 ، ج15.

37- شمس الدّين محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزيّة، بدائع التّفسير ، دار ابن الجوزي – المملكة العربيّة السّعوديّة، الدّمام ، ط1-1427هـ، مج1.

38- شمس الدّين محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزيّة ، كتاب الوابل الصّيب ورافع الكلم الطّيب، تح : عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عطاءات العلم، دار ابن حزم – الرياض، بيروت، ط5 -2019م، ج1.

39- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، ط 12 – دت.

40- صابر الحبّاشة ، التّداوليّة والحجاج، مداخل ونصوص ، صفحات للدّراسة والنّشر- دمشق، سوريا، ط1 -2008م .

41- طه عبد الرّحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثّقافي العربي - الدار البيضاء، ط1 - 2000م .

42- طه عبد الرّحمن، في أصول الحوار، وتجديد علم الكلام، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء - المغرب، ط3 - 2007 م.

43- طه عبد الرّحمن، اللّسان والميزان أو التّكوثر العقلي، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء - المغرب، ط1 - 1998م .

44- عباس الحشّاني، خطاب الحجاج والتّداوليّة، دراسة في تاج ابن باديس الأدبي، عالم الكتب الحديث - الجزائر، ط1 -2014م .

45- عبد الجليل العشراوي، الحجاج في الخطابة النّبويّة، عالم الكتاب الحديث -الأردن، ط1 - 2002 م.

46- عبد العالي قادا ، الحجاج في الخطاب السّياسي، دار كنوز المعرفة - عمّان ، الأردن، ط1 - 2015م.

47- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النّهضة العربيّة - بيْروت، لبنان، ط1- 2009م.

48- عبد القادر حسين محمّد، القرآن والصّورة البيانيّة، عالم الكتاب - بيروت ، ط2 - 1405 هـ .

49- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح :ياسين أيوب، المكتبة العصريّة ، (د ط-د ت).

50- عبد القاهرالجرجاني، من دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي - بيروت، ط1- دت.

51- عبد الله إبراهيم، التّلقي والسّياقات الثّقافات، منشورات الاختلاف - الجزائر، ط2 - 2005م .

52- عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال : مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة – بيرلمان و تيتكا ضمن كتاب : أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب منوبة – تونس .

53- عبد الله صوله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبيّة، دار الفارابي- بيروت، ط 2 – 2007 م.

54- عدلي الخطيب ، تسهيل فهم وتدبر سور القرآن ، دائرة المكتبة الوطنيّة – المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، دط- 2018م.

55- عزّالدّين النّاجح، العوامل الحجاجيّة في اللّغة العربيّة، مكتبة علاء الدّين للنّشر والتوزيع – تونس ط1 – 2011م .

56- علي بن أحمد بن سعيد أبو محمد ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، منشورات دار الآفاق – بيروت، مج 1 .

57- علي بن إسماعيل أبو الحسن ابن سيّدة، المحكم المحيط الأعظم، تح : عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة – لبنان، مادة حجج.

58- علي بن محمّد السّيّد الشّريف الجرجاني، معجم التّعريفات، تح : محمّد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة –القاهرة ، د ط – د ت.

59- علي بن محمد بن علي الواحدي أبو الحسن النّيسابوري الشّافعي، أسباب نزول القرآن ، تح: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدّمام، ط2- 1992م .

60- عماد الدّين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير ، تفسير القرآن العظيم، تح :حكمت بن بشير بن ياسين، دار ابن الجوزي –المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1- 1431هـ، ج7.

61- عمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ، البيان والتّبيين ، تح : عبد السّلام محمد هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط1- 1418هـ، 1996م ، ج1.

62- فاضل صالح السّامرّائي، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، دارعمّار –عمان ، الأردن ، ط3 – 2003م.

63- فاضل صالح السّامرّائي، معاني الأبنية العربيّة، دار عمّار للنّشر والتّوزيع، ط2 ، 2007م.

64- الفضل بن الحسن الطبرسي أبو علي، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المرتضى – بيروت، لبنان، ط1–2006م ، ج6.

65- فخر الدّين الرّازي، التّفسير الكبير، دار إحياء التّراث العربي – بيروت ، ط3 – 1420 هـ ، ج3.

66- فخر الدّين محمد بن عمر الرّازي (606هـ)، لوامع البينات شرح أسماء الله والصّفات، المطبعة الشّرقيّة – مصر ، دط –1323هـ .

67- كورنيليا فونصكوحي، الحجاج في المقام المدرسي، منشورات كلية الآداب – جامعة منّوبة، دط–2003م.

68- لزهر كرشو، تقانة التّحليل الحجاجي للخطاب، مطبعة الرّمال – الوادي، الجزائر، 2020م .

69- مجد الدّين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الفكر–بيروت، 1995م، مادة "حجج " ج1

70- مجمع اللّغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الوطنيّة، ط4 –2004م، (مادة سلم).

71- محمد أبو عبد الله بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح : أحمد البردوني و إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2 –1964 ، ج 17.

72- محمد أبو عبد الله بن عبد الله الخطيب، كتاب مجالس، تح : غانم قدوري الحمد، دار عمّار، ط1– 2002م

73- محمد الأمين الشّنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفؤاد – مكة المكرّمة، ط1 -1996م، مج 7 .

74- محمد بن عزيز أبو بكر السّجستاني، غريب القرآن ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده – ميدان الأزهر، دط -1963م .

75- محمد بن محمد أبو حامد الغزالي الطّوسي، إحياء علوم الدّين، دار المعرفة – بيروت، دط -1431هـ ، ج1.

76- محمد التّومي، الجدل في القرآن فعاليته في بناء العقليّة الإسلاميّة، شركة الشّهاب – الجزائر ، دط- د ت .

77- محمد حسين الطّباطبي ، الميزان في تفسير القرآن ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات – بيروت، لبنان، ط1-1997م ، ج13 .

78- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد، ط1 – 2008م .

79- محمد شمال حسن، الصورة و الإقناع، دراسة تحليلية لأثر خطاب الصّورة في الإقناع، دار الآفاق العربيّة – بيروت، ط1 – 2006م .

80- محمد طاروس، النّظريّة الحجاجيّة من خلال الدّراسات البلاغيّة والمنطقيّة واللسانيّة، دار الثّقافة- المغرب ط1- 2005 م .

81- محمد طلحة، تداوليّة الخطاب السّردي، منشورات الحياة الصّحافة – الأغواط، ط1 – 2008م .

82- محمد الطّاهر بن عاشور، تفسيرالتّحرير والتّنوير، الدّار التونسيّة للنّشر- تونس، دط -1984م، ج15، 27.

83- محمد العبد، النّص والخطاب والاتّصال، الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعي- القاهرة، ط1 – 2005م .

84- محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، دار القرآن الكريم – بيروت، ط 4- 1981م، مج 3، ج27

85- محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التّخييل والتّداول، إفريقيا الشّرق – الدّار البيضاء، د ط – 2005م .

86- محمد العمري، البلاغة العربيّة أصولها وامتداداتها، دار النّشر افريقيا الشّرق – المغرب، لبنان، ط1 – 1999 م، ج 1.

87- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشّرق- بيروت، ط2 – 2009 م .

88- محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، دار الفكر – بيروت ، لبنان، دط -2001م، ج2 .

89- محمد مرتضى الزوبيدي، تاج العروس، تح : الطّحاوي، ج 4، مادة ب، ك، ت

90- محمد منير مرسي ، كتاب التّربيّة الإسلاميّة أصولها وتطوّرها في البلاد العربيّة ، عالم الكتب- القاهرة، طبعة مزيدة ومنقّحة -2005م.

91- محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف التّرغيب والتّرهيب، مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع - الرياض، ط1- 2000م ، ج1.

92- محمود بن عمر الزّمخشري، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل ، تح : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار العبيكان – الرّياض، ط1 – 1998م، ج3

93- محيي الدّين الدّرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، مطبعة سليمان زاده ، منشورات، كمال الملك –العراق، النّجف، ط1 – 1425هـ ، ج28.

94- مهدي المخزومي، في النّحو العربي، نقد وتوجيه ، دار الرّائد العربي ، بيروت- لبنان، ط2-1986م .

95- ناصر مكارم الشّيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المُنزل، مؤسسة الأعلي للمطبوعات – بيروت ، لبنان ، ط1 -2013م ، مج7، ج13.

96- هدى وصفي وأخريات، في فن الحجاج والجدل، جامعة عين الشّمس كليّة الألسن، دط- 2002م .

97- هشام الرّيفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب : أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة، من أرسطو إلى اليوم، تحت إشراف : حمادي صمود، منوبة – تونس، (دط – دت).

98- هنريش بليت، البلاغة والأسلوبيّة، نحو نموذج سيميائي لتحليل النّص، تح : محمد العمري ، دط- دت.

99- أبو وليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تح : عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي – بيروت، لبنان، ط 3 – 2000م .

100- يوسف بن أبي بكر أبو يعقوب السّكاكي، مفتاح العلوم، تح : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط1 – 2000م .

ب- المجلات والدّوريات

101- أسمهان سهل كاظم، محمد عبد مشكور الكعبي، السّلالم الحجاجية ومستوياتها في كتب المجالس النّحويّة، حوليات آداب عين الشّمس، بغداد، العراق، المجلّد49 ، العدد يوليو- سبتمبر 2011م، .

102- أندرية لالاند، موسوعة لالاند الفلسفيّة، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001 م، مج 1 .

103- بلحرش عبد الحليم، السلّمية الحجاجيّة للكلمة في الحوار القرآني، قراءة تداولية في مشاهد من قصتيْ إبراهيم وموسى عليهما السّلام، مجلة دراسات معاصرة .دورية دولية نصف سنويّة محكّمة، تصدر عن مخبر الدراسات النقدية و الأدبية المعاصرة .السنة2003 م، المجلّد 3، العدد ، 02 / جوان/ 2019 م.

104- بن أحمد عالم فايزة، الحجاج في التّراث العربي ، مجلّة علوم اللّسان، الجزائر، العدد :2، ديسمبر 2012م .

105- حامد الظالمي، عايز جدوع، نشأة الحجاج، مجلّة آداب البصرة، العدد 73، 2015م.

106- حامد ناصر الظالمي، نشأة الحجاج، مجلّة آداب البصرة ، العدد 73، جامعة البصرة، 2010م.

107- الحوّاس مسعودي، البنيّة الحجاجيّة في القرآن الكريم، مجلّة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد : 12، 1997م .

108- رشيد الرّاضي ، الحجاجيات اللّسانيّة عند ديكرووأنسكومبر، مجلّة عالم الفكر، العدد1، مج 34، 2005م.

109- سفيان لوصيف، عبد الحليم ريوقي، السّلالم الحجاجيّة في الخطاب التّفسيري ، مجلّة المدوّنة، المجلّد 8، العدد2جوان 2001م.

110- طه عبد الرّحمن، الاستعارة بين حساب المنطق ونظريّة الحجاج (بحث)، مجلّة المناظرة، العدد 4-1991م.

111- عبّاس حنّاشي، مصطلح الحجاج بواعثه وتقنياته، مجلّة المخبر، أبحاث في اللّغة العربية والأدب الجزائري، جامعة بسكرة ، الجزائر، العدد 9، 2013 م.

112- عبد الله بن صالح الفوزان، تعجيل الندى بشرح قطر النّدى، المكتبة الشّاملة ، دط-دت.

113- عايد جدوع حنون، صلاح جباري شناوة العبودي، السّلالم الحجاجيّة في شعر أحمد الوائلي، مجلة أوروك، العدد 2، المجلد 9، 2016م .

114- محمد حمودي، الحجاج واستراتجيات الإقناع عند طه عبد الرّحمن، مجلة حوليات التّراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد : 12، 2012م .

115- محمد يطاوي، أصول نظريّة الحجاج عند العرب بين الممارسة والتنظير، مجلّة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها ، المملكة المغربيّة، العدد :21، ماي 2018م .

116- مزاحم مطر حسين، مروة حسام كاظم، السّلالم الحجاجيّة في كلام الإمام حسن، مجلة كلية التّربيّة الأساسيّة للعلوم التّربويّة الإنسانيّة / جامعة بابل، العدد 41، 2018م .

117- ميْسم صباح خضير، زينب الملا السّلطاني، نظرية السّلالم الحجاجيّة (خطب النّساء في العصر الإسلامي أنموذجًا) مجلّة ديالي، جامعة بغداد، العدد73، 2017م.

118- Le Grand Robert . Dictiannaire de langue Françaiseparis 1989 . p M 23.. ترجمة الحبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر استقصاء نظري ، مقال، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظريّة وتطبيقية، في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم، حافظ إسماعيلي علوي، عالم، الكتب الحديث، ط1 – 2010، ج3 .

ج- الرّسائل الجامعيّة

119- ابتسام بن خرّاف، الخطاب الحجاجي السّياسي في كتاب الإمامة والسّياسة، لابن قتيّبة – دراسة تداوليّة – رسالة دكتوراه، جامعة باتنة، 2009 /2010م .

د- المراجع الأجنبيّة

120- cambridge A dvance Learners . Dictionary . cambridge University press . 2 na . pub .2004 .

121- Oswald. Ducrot. et Anscomber. L'argumentations dans la langue .èd. Pierre Mardaga.1983.

122- Oswald. Ducrot .Les èchelles-argumentatives .èd .Minuit. 1980.

هـ - المواقع الالكترونيّة

123- سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني ، من أسباب عذاب القبر، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، http://www.islamweb.net

124- سورة-الحديد-وسبب-نزولها-وفضلها-مع-التفسير، 4مارس 2023م، 18:04،
https://read.opensooq.com

125- بن عزيزة بختة، الخطاب الإشهاري والقيمة الحجاجيّة، 16/05/ 2013.
منتديات تخاطب، ملتقى الفلاسفة واللّسانيين واللّغويين والأدباء والمثقّفين.
https://takhatub.ahlamontada.com/t9111-topic

126- عبد العزيز بن عبد الله الراجي، دروس صوتيّة، قام بتفريغها موقع الشّبكة الإسلاميّةhttp://www.islamweb.net

127- محمد حسن عبد الغفار، كتاب تيسير أصول الفقه للمبتدئين ، المكتبة الشّاملة، كتاب صوتي مفرغ من طرف موقع الشّبكة الإسلاميّة ،
www.islamweb.net

128- محمد صالح بن العثيمين، أهل الحديث والأثر، تفسير سورة الغاشية، alathar.net، 04/02/2007م

129- يوسف الشبيلي، تفسير سورة التغابن، من موقع www.shubily.com، من محاضرات ألقيت في معهد العلوم الإسلامية بأمريكا .

فهرس
الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوعات	الصفحة
شكر وعرفان	–
مقدمة	أ–هـ
الفصل الأول **الحجاج مفاهيم وتقاطعات**	
توطئة	12
أولا : مفهوم الحجاج	14
ثانيا : علاقة الحجاج بمجاله المفهومي	18
ثالثا : لمحة تاريخيّة عن الحجاج عند الغرب والعرب قديما وحديثا	24
الفصل الثاني **السلالم الحجاجية (الفهوم والمستويات والقوانين)**	
توطئة	57
أولا : مفهوم السلّم الحجاجيّ	58
ثانيا – ماهيّة نظريّة السّلالم الحجاجيّة	60
ثالثا– سمات نظريّة السّلالم الحجاجية وأهميّتها	61

رابعا- مستويات السلّم الحجاجي	69
خامسا- قوانين السّلّم الحجاجي	79
سادسا : أنواع السّلالم الحجاجيّة	81
سابعا- وسائل السّلم الحجاجي	83
الفصل الثالث **سلالم الموضوعات المطلقة (العامة) في السَّور المسبحات**	
توطئة	87
أولا : التّسبيح والسّور المسبحات	88
ثانيا : تراتبيّة المعاني العامة وتطبيقاتها في السّور المسبحات	98
1-تراتبيّة السّور المسبحات في المصحف الشّريف وفق التّرتيب الاشتقاقي لصيغة "التّسبيح"	98
2- تراتبيّة مواطن التّسبيح في السّور المسبّحات	100
3- تراتبية سلالم الموضوعات في السّور المسبحات	105
4-تراتبيّة الحوار الحجاجي في السّور المسبحات	118
5-تراتبية أسماء الله الحسنى في السّور المسبّحات	131
الفصل **سلالم الموضوعات المقيدة في السور المسبحات**	
أوّلا: سلّمية المعجم في السّور المسبّحات	140

ثانيا– سلميّة الصّرف في السّور المسبحات	159
ثالثا– سلميّة التّركيب النّحوي في السّور المسبحات:	172
رابعا– سلّميّة التّقسيم البلاغي في السّور المسبحات	181
خاتمة	201
قائمة المصادر والمراجع	206
فهرس الموضوعات	220

تمت بحمد
الله